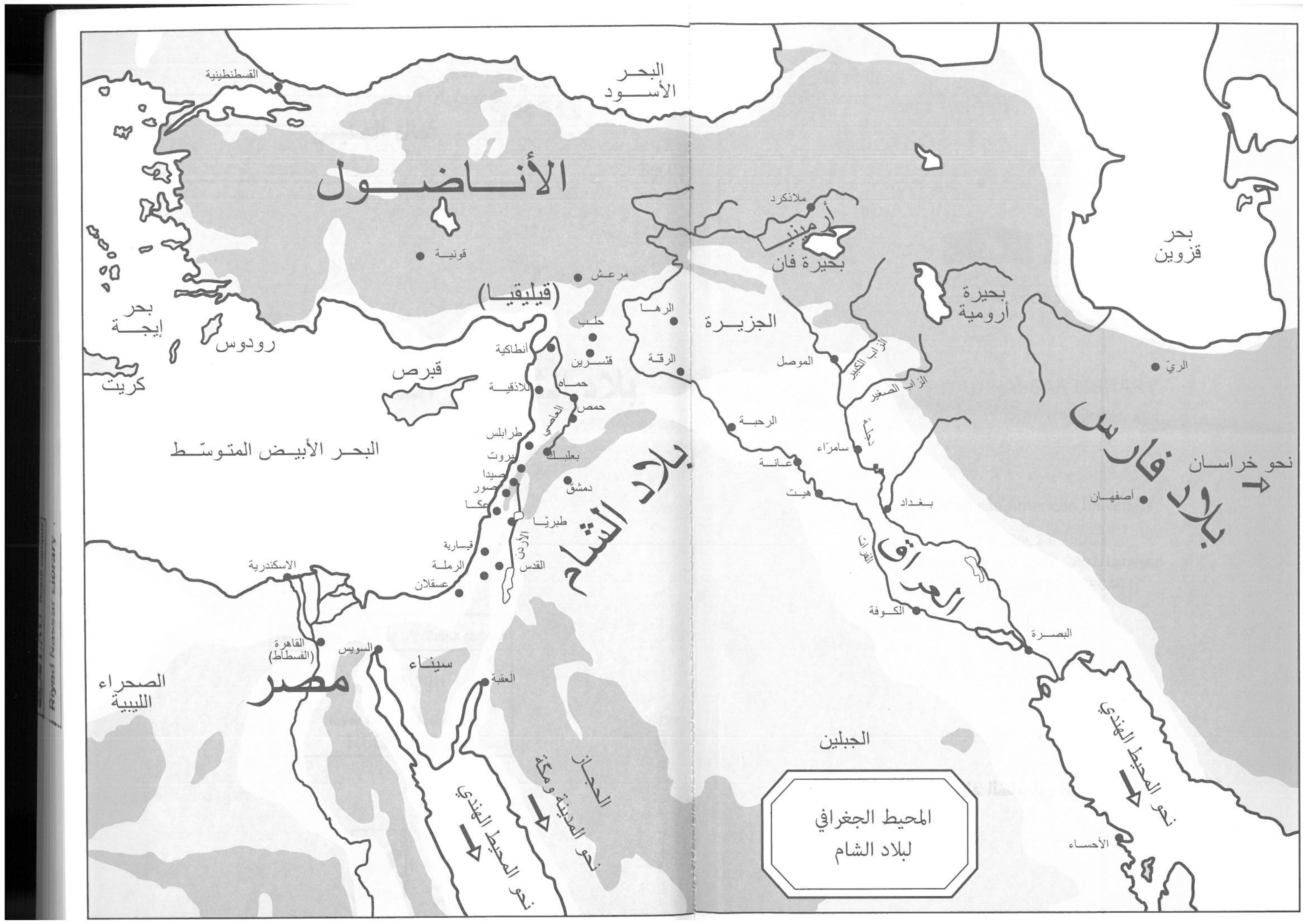

كمال الصليبي
بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى
نوفل
A
956.91
S1651s
c.1



المحيط الجغرافي
لبلاد الشام
القسطنطينية
البحر الأسود
الأناضول
قونية
مرعش
(قيليقيا)
بحر إيجة
رودوس
كريت
قبرص
البحر الأبيض المتوسّط
انطاكية
حلب
قنسرين
اللاذقية
حماه
حمص
العاصي
طرابلس
بيروت
بعلبك
صيدا
صور
دمشق
عكا
طبريا
الأردن
قيسارية
الرملة
القدس
عسقلان
بلاد الشام
الاسكندرية
القاهرة
(الفسطاط)
السويس
سيناء
العقبة
مصر
الصحراء الليبية
نحو المحيط الهندي
نحو المدينة ومكة
الحجاز
الرها
الجزيرة
الرقة
الموصل
الرحبة
عانة
هيت
ملاذكرد
أرمينيا
بحيرة فان
بحيرة أرومية
الزاب الكبير
الزاب الصغير
دجلة
سامراء
بغداد
الفرات
العراق
الكوفة
البصرة
الجبلين
الأحساء
نحو المحيط الهندي
بحر قزوين
الريّ
بلاد فارس
نحو خراسان
أصفهان

كمال الصليبي

بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى

1097 – 634

نقله عن الإنكليزية كمال خولي

حقّقه أنطوان ب. نوفل


نوفل

Original edition : 1977
Title : Syria under Islam, 634 - 1097
Author : Kamal Salibi

الطبعة العربيّة:
العنوان: بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى، 634 - 1097
Bilād ash-shām fī al-'usūr al-islāmiyah al-ūlā, 634 - 1097
المؤلّف: كمال الصليبي
المترجم: كمال خولي
المحقّق: أنطوان ب. نوفل
الناشر: مؤسّسة نوفل Naufal

ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
العنوان التجاري: سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
البريد الإلكتروني: naufal@hachette-antoine.com
الطبعة الأولى: 2011
ر.د.م.ك.: 978-9953-26-175-1

صورة الغلاف: المسجد الأموي في دمشق. تصوير خالد الشمعة
التصميم الفنّي: لينا مسلّم
الخرائط: سينتيا إدّه
التحرير: سمر أبو زيد

المقدّمة

يشمل هذا الكتاب فترة تمتدّ على مدى القرون الخمسة الأولى لبلاد الشام في العصر الإسلامي، وتنتهي بوصول طلائع جيوش الفرنجة إلى أنطاكية، في ما يُسمّى الحملة الصليبية الأولى. وتحصر هذه الفترة الزمنية قصّة مكتمِلة بحدّ ذاتها – قصّة التجارب المبكّرة للحكم الإسلامي في بلاد الشام، والمشاكل الّتي واجهها، وكيف عجزت كلّ دولة إسلامية بدورها عن التحكّم بهذه المنطقة. وركّزتُ، بطبيعة الحال، على التطوّرات الّتي حدثت خلال هذه الفترة في بلاد الشام نفسها، مع العلم أنّ الأمر اقتضى، من وقت إلى آخر، الخوض في مواضيع جانبية من تاريخ الإسلام الشامل، وعالم البحر المتوسّط، للدلالة على تأثير العوامل الخارجية المتعدّدة الّتي تضمّنتها الرواية. وقد حاولتُ، في حرصي على وضوح الصورة، أن ألتزم قدر الإمكان بالتتابع الزمني للأحداث.

وقد تفضّل عدد من الأصدقاء والزملاء بمراجعة أجزاء مختلفة من هذا الكتاب في الأطوار الأولى من تجهيزه وساهموا بملاحظات هامّة عن المحتوى أو الإخراج. أخصّ بالذكر جرالد أوبرماير، وصديق العمر أُسامة الخالدي، اللذَين راجعا المسوّدة النهائية، وقدّما مقترحات مفيدة جدًّا. كما ساعدني لورنس كونراد في تحرير النصّ

في كلّ مراحله، كذلك في تصحيح الأخطاء الطباعية. وطبعت سوزي ختشادوريان المسوّدة الأخيرة، وقرأت سهى طوقان النسخة الأخيرة قبل الطباعة. إلى هؤلاء جميعًا، أتوجّه بشكري العميق وامتناني.

بيروت، في 8 آذار / مارس 1977
كمال الصليبي

الفصل الأوّل
بلاد وَعرة وشعبها

على الطرف الشرقي من حوض المتوسّط، تنبسط على امتداد قرابة 700 كيلومتر على الشاطئ، من جبال اللكام في الشمال إلى حدود سيناء في الجنوب، أرضٌ من المرتفعات والهضبات المتقطّعة لا يزيد عرضها عن 50 إلى 100 كيلومتر، أطلق عليها الجغرافيّون التقليديون اسم سوريا، وأسماها العرب بلاد الشام[1]. هذه البقعة الواقعة بين البحر والصحراء، في نقطة تلتقي وتتقاطع فيها طرق بحرية وأرضية بين قارّات ثلاث، كانت عرضة للفتوحات منذ أقدم العصور. والسمات السطحية ذات الوعورة الفريدة تُشقّق الأرض بالوفير من الحواجز الطبيعية الّتي كانت تُعيق أيّة محاولات داخلية نحو وحدة سكّانها ووحدتها، كما سهّلت اجتياحها. إلّا أنّ هذه الوعورة الطوبوغرافية بالذات كانت تجعل البلاد صعبة الإدارة بعد إخضاعها. فخصوصية شعبها، وانشقاقه إلى فئات وأحزاب، وبغضه العنيف للإدارة المنسّقة المنظّمة، كانت تضاهي خشونة

1- استُعملت التسمية العربية «بلاد الشام» (أي بلاد الشّمال) تمييزًا عن «بلاد اليمن» (أي بلاد الجنوب) بالأصل للتمييز بين الأجزاء من سوريا الّتي يقطنها العرب وبين شبه الجزيرة العربية، واستمرّت تُطلق على المنطقة بكاملها حتّى بعد أن أصبحت التسمية «بلاد اليمن» تدل فقط على الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية.

أرضه وجعلت منه على الدوام مشكلة معقّدة لكلّ من اجتاح هذه الأرض وحَكمها.

وقد تتابع على حكم بلاد الشام، عبر التاريخ القديم، المصريون والأشوريون والبابليون والفُرس والإغريق والرومان وغيرهم، متصارعين، كلٌّ بدوره، مع الصعوبات الّتي كانت تثيرها تلك السيطرة. وخلال القرن السابع، فتح العربُ البلاد وضُمّت إلى ممتلكات الإسلام؛ وعلى مدى ثلاثة عشر قرنًا، جابهت أنظمةَ الحُكم المتلاحقةَ الصعوباتُ والتعقيداتُ المحيِّرة الّتي نصبتها قضيّة بلاد الشام. وسيتفحّص هذا الكتاب تاريخ بلاد الشام تحت الحكم الإسلامي، خلال القرون الخمسة الأولى، حتّى وصول الحملة الصليبية الأولى إلى أنطاكية عام 1097. وقبل هذه المعاينة، لا بدّ من إلقاء نظرة دقيقة على الخريطة.

* * *

تتكوّن مرتفعات بلاد الشام وهضباتها على وجه الإجمال من سلسلتَين متوازيتَين من الجبال والهضبات والتلال الممتدّة تقريبًا من الشمال إلى الجنوب، يفصل بينهما صدعٌ متباين العرض طوله حوالى 1000 كيلومتر، يبدأ في الشمال عند مرعش، على حدود الأناضول، وينتهي جنوبًا عند العقبة، على البحر الأحمر. أمّا من ناحية شكل تضاريسه فيتكوّن هذا الصدع من قسمَين: قسم شمالي

مؤلّف من حوضَي العاصي والليطاني (عُرف باسمه الإغريقي Coelesyria «الجوف السوري»)، وقسم جنوبي مكوّن من وادٍ مشقوق يشمل الغور – نهر الأردن والبحر الميّت – يتبعه وادي عَرَبة وقفاره. والمياه المتدفّقة بسرعة من نهرَي العاصي والليطاني ومن نهر الأردن تجعل أراضي هذا الصدع أقلّ ملوحة، إذ تجري فيه وتُضفي على تربته خِصْبًا مميّزًا. هذه الأنهر غير صالحة للملاحة. وفي الواقع، ليس في بلاد الشام أنهر صالحة للملاحة.

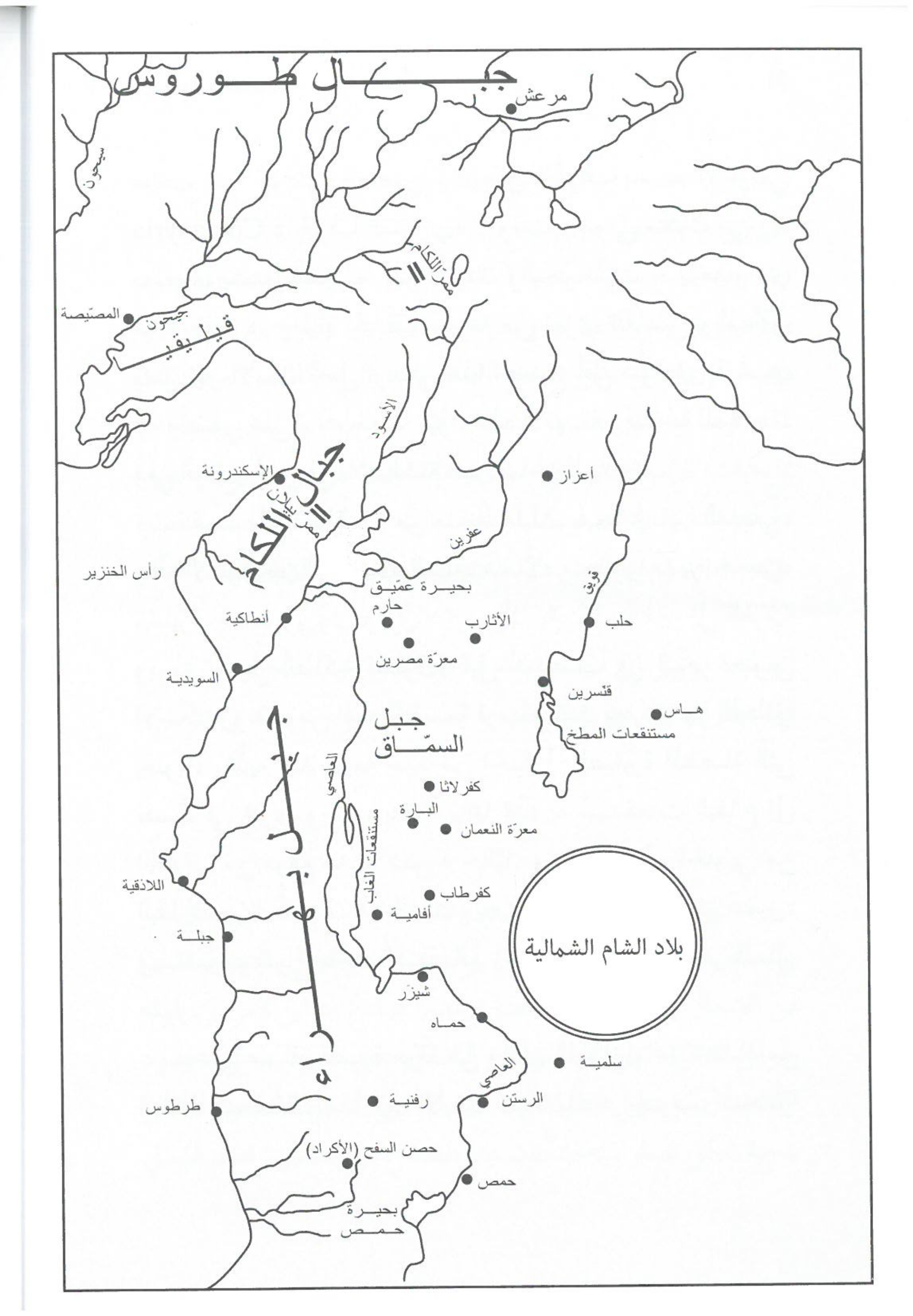
تنقسم المياه، بالقرب من مدينة بعلبك، فيجري نهر العاصي، وهو الأطول بين أنهار بلاد الشام، شمالًا، متجاوزًا مدينة حمص، وعابرًا حماه، ويروي وادي شَيزر وأفامية، ثمّ يستدير إلى الغرب ويروي سهل أنطاكية المطوّق، قبل أن يصبّ في البحر جنوبيّ الإسكندرونة. ومن المياه المنقسمة قرب بعلبك يجري نهر الليطاني جنوبًا، يغذّيه عند منبعه عدد من الجداول الصغيرة المنفصلة الّتي تصبّ في مجرى وحيد، يتضخّم بما تمدّه به مستنقعات البقاع إلى الجنوب من موقع مدينة شتوره حاليًا. وعند الطرف الجنوبي من البقاع، حيث أُقيم السدّ الحديث، يجري النهر في وادٍ ضيّق عميق، ويستدير بوضوح باتّجاه الغرب عبر الجبال ليصبّ في البحر شمالي صور.

وعلى مسافة قصيرة شرقًا من وادي الليطاني، عبر امتداد من التلال المنخفضة، يبدأ نهر الأردن مجراه باتّجاه الجنوب، منحدرًا

انطلاقًا من وادي التيم. وبعد أن يصرّف مستنقعات الحولة، يقطع بحيرة طبريّا، ثم يكمل انحداره عبر وادي الغور، لِيصبّ في البحر الميّت، على حوالى 400 متر تحت سطح البحر. ويرتفع وادي عَرَبة الصحراوي تدريجيًا من الطرف الجنوبي للبحر الميت، ثمّ ينحدر بالتدرّج ذاته ليبلغ مستوى سطح البحر في العقبة.

يغطّي وادي العاصي والليطاني، من الشمال إلى الجنوب، مع وادي الأردن نزولًا إلى بحيرة طبريّا، حوالى ثلثَي طول صدع بلاد الشام؛ ويكوّن الغور ووادي عَرَبة الثلث الآخر. والمرتفعات والهضبات على جهتَي الصدع تنقسم بطريقة طبيعية إلى قسمَين مميّزَين (كما ينقسم الصدع ذاته): قسم شمالي يحيط بوادي العاصي والليطاني، وقسم جنوبي يطوّق الغور ووادي عَرَبة. وبينما يُعتبر القسم الجنوبي عادةً، من ناحية الجغرافيا التاريخية، كوحدة، يتكوّن القسم الشمالي طوبوغرافيًا من جزءَين واضحَين، يمكن أن يشار إِليهما كبلاد الشام الشمالية والوسطى.

بالإمكان القول إنّ بلاد الشام الشمالية تبدأ من جبال اللكام الّتي تفصل سهل قيليقيا الساحلي الواسع، على سفوح جبال طوروس، من وادي النهر الأسْوَد (قرّه سو الحديث) وسهل أنطاكية. وتوجد، عبر وادي النهر الأسْوَد، شرقيّ جبال اللكام، منطقة أخرى من التلال المنخفضة، (تدعى أحيانًا جبال اللكام الزائفة) والمشرفة على كورة حلب (المنطقة الحدودية المتاخمة للبادية). جنوبيّ سهل أنطاكية ومصبّ العاصي تقع مرتفعات جبل بهراء (الّتي تُسمّى اليوم جبال



العلويّين أو النصيرية)، والّتي تمتدّ بين العاصي والشاطئ، وتستدقّ في الجنوب في سهل عكّار الساحلي، شماليّ طرابلس. وعبر وادي العاصي من جبل بهراء تمتدّ سلسلة متوازية من المرتفعات الأكثر انخفاضًا، تشرف على المنطقة الجنوبية من إقليم حلب، وتنتهي إلى الجنوب عند سهل حماه على حدود الصحراء. تفصل مرتفعات الرستَن، الّتي يتلوّى العاصي حولها، سهل حماه عن سهل حمص. وسفوح التلال الجنوبية لجبل بهراء، الّتي تتلوها مستنقعات البُقَيْعة المجاورة، تفصل السهل الداخلي لحمص عن سهل عكّار الساحلي. وبينما تكوّن سهول حمص وحماه جزءًا من حوض العاصي، تكوّن البُقيعة وسهول عكّار حوض النهر الكبير الّذي يجري باتّجاه الغرب، والّذي كان يُسمّى Eleutherus في العصور القديمة.

وحيث إنّ جبال اللكام تتحدّر إلى البحر، منتهيةً بالنتوء الهائل المسمّى رأس الخنزير، والّذي يعترض الممرّ الساحلي السهل بين قيليقيا وبلاد الشام، فالطريق الرئيسية تمرّ في الداخل، على طول الطرف الصحراوي، متجنّبةً تلال جبل بهراء. أمّا مستنقعات الغاب، الّتي يشكّلها العاصي شماليّ حماه، فتزيد من الانعزال الجغرافي لجبل بهراء. فلا عجب إن لم يكن هذا الجزء من بلاد الشام الشمالية، في العصور الإسلامية، ذا أهمّية إلّا هامشيًّا، وإن غطّت عليه، من ناحية الأهمّية التاريخية، مناطق حلب وحمص وحماه الداخلية الّتي كانت مُسيطرة على النقاط الهامّة، على طول الطريق من الشمال إلى الجنوب.

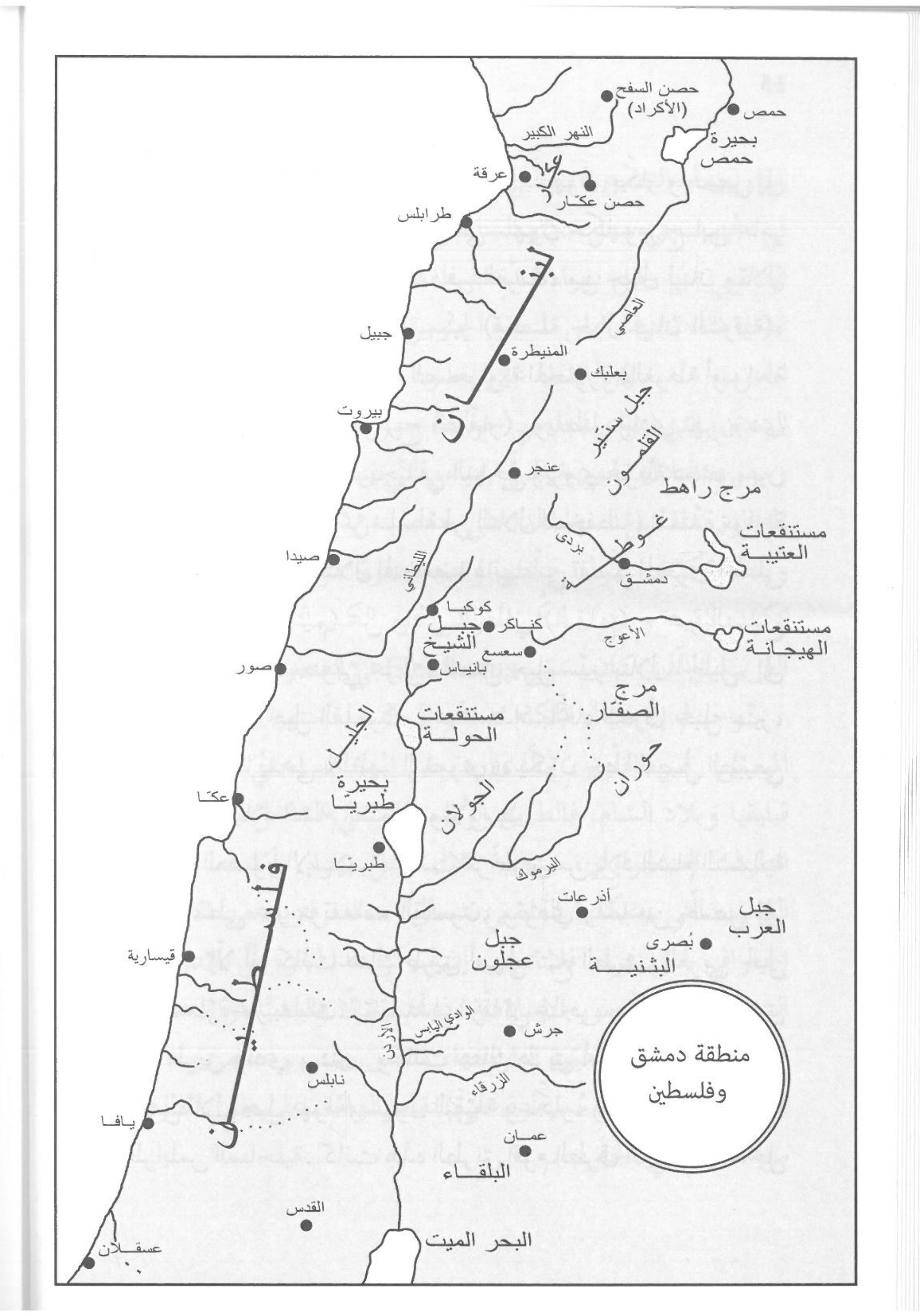
أمّا بلاد الشام الوسطى، الّتي تبتدئ بسهول عكّار وحمص إلى الشمال، فتمتدّ باتّجاه الجنوب حتّى سهول عكّا ومرج ابن عامر ومنخفض طبريّا. وهي مكوّنة، في الغرب، من جبال لبنان وتلال الجليل، وفي الشرق من جبل سنّير (سلسلة جبال لبنان الشرقية)، وكتلة جبل الشيخ والسهول الصحراوية المجاورة (الغوطة أو واحة دمشق وسهول سعسع ومرج الصفّار). ويفصل وادي نهر بردى الضيّق، الّذي يجري تدريجيًّا في الداخل ويروي غوطة دمشق، بين جبلَي سنّير والشيخ. وتمرّ سلسلة من التلال المنخفضة، الممتدّة بموازاة جبل الشيخ غربًا – التلال المنخفضة ذاتها الّتي تفصل المجرى الأعلى للأردن (وادي التيم) عن وادي الليطاني (البقاع) – عبر الصدع الشامي في اتّجاه جنوبيّ غربيّ، لتصل جبل سنّير بتلال الجليل. إلى الداخل، نتوء جبل القلمون، وهو امتداد باتّجاه الشرق لجبل سنّير، تتبعه تلال ما يُدعى «الظهر التدمري»، يكوّن خطّ الفصل الطبيعي بين قسمَي بلاد الشام الشمالي والأوسط.

في العصور الإسلامية، كانت تمرّ طريق من بلاد الشام الشمالية إلى الوسطى عَبر مرتفعات القلمون، وتؤدّي رأسًا من حمص إلى دمشق. إلّا أنّه كانت هناك طريق أسهل تتبع الطرف الغربي لجبل سنّير، مارّةً عبر بعلبك، ثمّ تستدير شرقًا في عنجر، وتكمل إلى دمشق عن طريق وادي بردى. وكانت هناك طريق أخرى سهلة تمرّ عبر أسفل تلال جبل بهراء وسهول البُقَيْعة وعكّار، رابطةً حمص بمدينة طرابلس الساحلية. كانت هذه الطريق أقوَم الطرق الّتي تربط داخل

بلاد الشام وساحلها. وأقصر طريق من دمشق إلى الساحل كانت تقطع البقاع في ممرّات جبال لبنان الصعبة (ظهر البيدر أو المروج أو فاريّا)، وتنتهي في بيروت أو جبيل. إلّا أنّه كانت هناك ممرّات أسهل تستدير حول الطرف الجنوبي لجبل لبنان إلى صيدا أو صور، أو تلتفّ حول سفوح جبل الشيخ، عبر انخفاضة طبريّا وتؤدّي إلى عكّا. وعلى طول الساحل كانت هناك طريق تمرّ عبر عكّا، صور، صيدا، بيروت، وطرابلس، قاطعةً في طريقها بعض النتوءات، وتُكمل شمالًا على طول الطرف الغربي لجبل بهراء، وصولًا إلى طرطوس واللاذقية. والسهل الساحليّ الضيّق الّذي كانت تمرّ به هذه الطريق ولا تزال[2]، والّذي لا يزيد عرضه في أيّ مكان عن بضعة كيلومترات، يُعرف جغرافيًّا باسم الساحل الفينيقي. وتشمخ فوق هذه المنطقة الساحلية سلسلة جبال لبنان بارتفاعات تتراوح ما بين 2000 و3000 متر، تحيط بها وتقطعها، في أمكنة متعدّدة، طرقٌ هامّة تسير في اتّجاهات متعدّدة، وهي ليست منطقة منعزلة مثل جبل بهراء، بالرغم من ارتفاعها ووعورتها الخارقَين. وخلال العصور الإسلامية، نادرًا ما اعتُبرت على حدة، وكانت تُحسب على العموم كجزء متكامل من بلاد الشام الوسطى.

بينما تحفّ بلاد الشام الشمالية والوسطى بوادي العاصي والليطاني، فالجنوب منها، كما سبق وأشرنا، يحفّ بشقّ وادي الغور وبوادي عَرَبة. وإلى غربيّ شقّ الوادي هذا تقع مرتفعات فلسطين، يفصلها عن الشاطئ السهل الساحلي الفلسطيني الواسع

2- جميع الطرق المذكورة ما زالت قيد الاستعمال اليوم كطرق رئيسية أو ثانوية.



نسبيًّا (عرضه الأقصى 25 كيلومترًا). أمّا نتوء جبل الكرمل في حيفا، جنوبيّ عكّا، فيفصل هذا الساحل الفلسطيني عن الساحل الفينيقي إلى الشمال. وفي الجهة المقابلة لوادي الشقّ، إلى الشرق من فلسطين، تقع مرتفعات شرقيّ الأردن وامتداداتها الجنوبية، وتنتهي إلى الشرق في الصحراء.

يبدأ شرقيّ الأردن، تحديدًا، من الشمال بمرتفعات الجولان، جنوبيّ جبل الشيخ، بين واديَي بانياس واليرموك – رافدَين من روافد نهر الأردن. هذه المرتفعات تواجه الجليل إلى الغرب مقابل مستنقعات الحولة وطبريّا. شرقيّ الجولان يقع سهل حوران، يفصله عن منطقة دمشق شمالًا وادي النهر الأعوج الّذي يتلاشى تدريجيًّا في الداخل. جنوبيّ الجولان، عبر وادي اليرموك (الّذي يتوحّد مع المجرى الرئيسي للأردن جنوبي بحيرة طبريّا)، تقع تلال جبل عجلون، مقابل جبل نابلس (السامرة) في فلسطين. وتندمج تلال عجلون شرقًا مع مرتفعات البثنية، المنتهية بمرتفعات جبل العرب (المعروف اليوم باسم جبل الدروز). وجنوبيّ جبل عجلون والبثنية، عبر وادي الزرقاء (رافد آخر للأردن)، تقع مرتفعات البلقاء بمواجهة جبل القدس وجبل الخليل في فلسطين. وأبعد إلى الجنوب، عبر الشقّ العميق لوادي الموجِب الّذي يصبّ مباشرة في البحر الميّت، تقع مرتفعات بلاد الشراة، بمواجهة صحراء النقب في فلسطين الجنوبية عبر البحر الميّت ووادي عَرَبة.

بين جميع مرتفعات بلاد الشام، كانت جبال فلسطين والأردن

وبلاد الشراة الأقلّ عزلة تاريخيًّا. هذه الجبال، الّتي تمرّ حولها وتتقاطع ضمنها شبكات متعدّدة من الطرق الساحلية والداخلية المتمركزة حول منخفض طبريّا، تضمّ المنطقة الّتي كانت تلتقي فيها الطرق الرئيسية من مصر وغربيّ شبه الجزيرة العربية وجنوبيّ العراق، لتتّصل بشبكة الطرق الشامية عبر عكّا، طبريّا أو دمشق. هنا كان مركز العصب لبلاد الشام: النقطة الأكثر تعرّضًا للضغوط والتأثيرات الخارجية، والّتي كان أمنها ضمانًا لأمن المنطقة ككلّ. لذا ليس من المستغرب أنّ جزءًا هامًّا من تاريخ بلاد الشام، في العصور الإسلامية وما قبل ذلك، تركّز حول هذه المنطقة.

* * *

كانت بلاد الشام على الدوام، بفضل موقعها بين البحر والصحراء، نقطة اتّصال طبيعية للطرق التجارية، كما كانت مركزًا ناشطًا للتجارة. وكان هناك صفّ من المدن ممتدّ من الشمال إلى الجنوب، على طول الساحلَين الفينيقي والفلسطيني، كانت مرافئ للتجارة البحرية مع مختلف أجزاء عالم البحر المتوسّط. كما كان هناك خطّ آخر من المدن المتاخمة للصحراء، يمتدّ بموازاة الخطّ الساحلي، وهو بمثابة أسواق للتجارة الداخلية مع البلدان الأبعد إلى الشرق. عندما كانت الظروف لصالح التجارة البحرية، كانت مدن الساحل تزدهر وتكتسب أهمّية حتّى لتطغى أحيانًا على أهمّية المدن المتاخمة

للصحراء. أمّا عندما كانت الظروف تنقلب، كما كان يحدث في أوقات كثيرة في العصور الإسلامية، فكانت المدن المتاخمة للصحراء تسجّل تقدّمًا واضحًا على مدن الساحل، وكثيرًا ما أخضعتها لنفوذها.

وكان سكّان مدن بلاد الشام الساحلية والداخلية، عبر التاريخ، عدا شهرتهم التقليدية بالمهارات الحِرَفية المتطوّرة، معروفين أيضًا بدهائهم التجاري، وبقدرتهم المميّزة على التكيّف مع الظروف المعاكسة. بالنظر إلى عدم الاستقرار المزمن للمنطقة، وبما أنّ تجارتها كانت في معظمها من أنواع تجارة العبور، غير المتماسكة، فقد اشتهر التجّار الشاميون على الدوام بكونهم وسطاء يعيشون بدهائهم، مختارين المبادرة الشخصية بدلًا من المبادرة الجماعية، مفضّلين الربح على المدى القصير أكثر منه على المدى الطويل. وبالنسبة للّذين كانوا يتعاملون مع تجّار بلاد الشام، فإنّ أساليب هؤلاء كانت تبدو وكأنّها مخادعة أو على حدود المراوغة. وانعكست حاجة التجّار إلى التأقلم مع ظروف تتغيّر بسرعة في ابتعادهم عن السياسة وشكّهم بها والسخر منها. وبما أنّ حكّامهم كانوا، في معظم الأوقات، غزاة عسكريين جشعين، كانوا لذلك يميلون لاتّخاذ مواقف تشكيك واستياء تجاه الحكومة. وكانوا، عندما تُتاح لهم الفرصة، يسعون إلى استمالة موظّفي الحكومة المحلّيين لحماية مصالحهم التجارية وترويجها. وعندما كانت الحكومة تعسّفية بوجه خاصّ، كانوا يغتنمون أوّل فرصة سانحة للتآمر عليها وغالبًا إلى درجة إشعال ثورة

ضدّها.

زيادةً على موقع بلاد الشام الطبيعي كمركز تجاري، فهي تبرز، من وجهة نظر الجغرافيا التاريخية، كبلد خصب محاذٍ للصحراء. فالمرتفعات فيها تلتقط الأمطار الشتائية الّتي تحملها الرياح باتّجاه الشرق، وتكثر فيها الينابيع الجارية على مدار السنة، بالإضافة إلى الأنهار والجداول، الموسمية منها والدائمة. وفي كلّ مكان تقريبًا، جُهّزت الجبال والتلال بمصاطب وجلول من أجل الزراعة المكثّفة. وسلسلة جبال لبنان، بارتفاعها المميّز، معروفة لكونها الحاجز الأكثر التقاطًا للمطر في بلاد الشام. ومنحدراتها، على الأخصّ من جهة الغرب، منقّطة بكثافة بقرى ومزارع تذكّرنا أسماؤها الكنعانية والآرامية بِقِدَمها السحيق، وهي ما زالت تُعرف بهذه الأسماء. هنا، من المرجّح أنّ الكثافة السكّانية كانت عالية على الدوام. إلى الشمال والجنوب من جبال لبنان، تتعرّض هضبات جبل بهراء والجليل وفلسطين لهطول الأمطار بنسبة أقلّ ولا تكثر فيها القرى. في أرجاء الصدع الشامي، تصبح الجبال والتلال الداخلية قاحلة، ويقلّ عدد القرى وتتّسع المسافات بينها، إذ تندمج المرتفعات بالصحراء. غير أنّ هذا التعميم لا ينطبق على غوطة دمشق الغنية، الّتي تُعيل حوالى ثلاثين قرية في منطقة لا تتجاوز ستّين كيلومترًا مربّعًا.

يتألّف سكّان الريف في بلاد الشام تاريخيًّا من نوعَين رئيسيَّين من القرويين: العشائر، أو القرويين القبَليّين، الّذين كانوا الأغلبية في المناطق الجبلية والمرتفعات، والفلّاحين، أو مزارعي العِزَب، الّذين

كانوا متواجدين على العموم في وديان الأنهار الأكثر اتّساعًا وفي السهول الداخلية والساحلية. وعلى وجه المثال، تبرز سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية والجليل وفلسطين وشرقيّ الأردن وبلاد الشراة كمناطق عشائرية. بينما كان وادي العاصي وسهول حلب وحمص وحماه على حدود الصحراء، وغوطة دمشق، مناطق فلّاحين. وكان النوعان يتعايشان في معظم الأنحاء، مع تفوّق العشائر على الفلّاحين تفوّقًا واضحًا. وكانت بيئة العشائر بين الزراعية والرعوية، لذلك اتّسم بعض القبليين المزارعين بنوع من البداوة تختلف عن الرُّحّل. وكان أهل العشائر في بعض الحالات يمارسون الرعاية المتنقّلة في المواسم، متتبّعين المراعي صعودًا ونزولًا على منحدرات الجبال (وَفقًا لشدّة الانحدار) لتمضية فصْل الصيف في قرية وفصْل الشتاء في قرية أخرى. وكانوا يزرعون الأرض ويرعون الأغنام أو الماعز الّتي يملكونها إفراديًّا، أو الّتي تعود إلى زعيم أو فرد غني من العشيرة ذاتها. بينما كان الفلّاحون، من جهة أخرى، يزرعون أملاكًا وعِزَبًا تعود لملّاكين أو أديرة وغيرها، أو كانوا يعاونون العشائر في أعمالهم اليدوية، ولم يكونوا يمارسون الرعي عادة.

وخلال التاريخ، انعكس التمييز الاجتماعي بين القرويين القبليين والفلّاحين في بلاد الشام بفروقات في الطباع والتصرّف السياسي. فبينما كان الفلّاحون عمومًا طيّعين، متواضعين، منصرفين إلى أعمالهم الزراعية، مذعنين لمن يصدف أن يكون سيّدهم، غير مُبدين أيّ اهتمام بالسياسة المحلّية أو العامّة، كانت

العشائر، على ممرّ العصور، ناشطة سياسيًّا إلى أقصى حدّ. ولكونهم شديدي العصبية لخصوصيّتهم، متمسّكين بالشرف الشخصي والقبلي، وذوي حساسية مرهفة ضدّ أيّ انتقاص أو استخفاف، كانوا ميّالين تقليديًّا إلى العصيان والثورة والحزبية والفوضى. وكان عداؤهم الفوري لأيّ شكل من النظام، ما خلا النظام القبَلي، يترافق دائمًا مع حبّ التآمر والمكائد، وميل دائم للتعبير عن جميع العلائق الاجتماعية والسياسية بشكل تآمري. حتّى عندما انتشرت الأديان العظمى، واحدًا بعد الآخر، في بلاد الشام، كانت العشائر تقبلها بأشكالها الخارجة عن الإجماع، الّتي كانت أحيانًا حزبية تآمرية. وكانت تلك النزعات الدينية ترسّخ القبلية العنيدة بدلًا من تخطّيها. فكانت الأديان غالبًا ما تُقبل بطريقة قويمة (أو ببدَع قليلة) بين أوساط أهالي المدن والفلّاحين المستكينين، ولكن نادرًا ما تُقبل كذلك بين العشائر.

وفي حين كانت الهضبات والوديان في بلاد الشام مناطق فلاحة وفلّاحين في الأساس، كانت الصحراء المتاخمة إلى شرقها أرضًا للرعي. ومنذ أقدم الدهور، كانت المناطق الريفية، وكذلك البلدات والمدن الداخلية، تشعر بوطأة البدو من الصحراء. فكان الرعاة البدو، كلّما سنحت لهم الفرصة، يقودون قطعانهم من الغنم أو الماعز أو الإبل إلى عمق الريف من بلاد الشام، متعدّين على الأراضي الزراعية ومحوّلينها لفترة، أو بصورة دائمة أحيانًا، إلى مراعٍ. وبسبب وجود البدو، وحيث إنّ الرعي والحراثة الزراعية

يتكاملان من ناحية البيئة، فغالبًا ما كانت العشائر في بلاد الشام تعقد تحالفات سريعة الزوال مع القبائل لتطبيع العلائق معها. وفي العصور الإسلامية، كما في الفترات السابقة، كانت الإمبراطوريّات المسيطرة على بلاد الشام تحاول الحفاظ على الصحراء مخفورة إلى حدّ ما، أو تحاول استمالة ولاء البدو، بطريقة أو بأخرى، لمنعهم من اجتياح المناطق المزروعة وتهديد المدن. إلّا أنّه كانت هناك فترات تُفلت فيها قوى الصحراء قيودها، فتتّخذ تعدّيات البدو على أطراف الداخل شكل اجتياحات ضخمة. في كثير من الأحيان، عندما كان يحدث ذلك كان الفلّاحون في مزارع المالكين وسكّان المدن يتخلّون عن أراضيهم ومساكنهم ويلوذون بالفرار، ولكنّ فلّاحي العشائر غالبًا ما كانوا ينضمّون إلى الغُزاة ويشاركونهم في السلب والنهب، ويبتهجون بالفوضى التي تسود. وكثيرًا ما كان شيوخ البدو أو العشائر المقدامون يستغلّون الفوضى تلك وينجحون في إقامة إمارات إقليمية، سريعة الزوال أحيانًا، وطويلة الأمد أحيانًا أخرى. وعلى أثر كلّ اجتياح من الصحراء، كان بعض البدو يظلّون مقيمين في المناطق الجبلية من بلاد الشام ليندمجوا مع فلّاحي القبائل. إلّا أنّ غيرهم كانوا يعودون إلى القفر الّذي جاؤوا منه وتختفي آثارهم.

* * *

يتضمّن تاريخ بلاد الشام في العصور الإسلامية خطَّين متميّزَين من السرد، ولكنّهما مترابطان. من ناحية، هناك تاريخ حوليّات الدول الإسلامية الّتي تتحدّث عن الفتوحات المتتابعة للبلاد، وعن القوى المزاحمة القريبة والبعيدة الّتي تتنافس على السيطرة، وتتحارب على ميادين القتال في بلاد الشام، وعن المحاولات المتكرّرة لإدخال إدارة حاكمة منظّمة، بشكل أو بآخر، على منطقة تتلاءم بسهولة أكثر مع التحزّب وغياب النظام، وعن صعود نجم أنظمة إمبراطوريّة أو أفوله، تتخلّلها فترات تعمّ فيها الفوضى والاضطرابات. ومن ناحية أخرى هناك تاريخ البلاد نفسها، وهي مجموعة محيّرة من الأحداث الإقليمية الّتي تروي ما يبدو كَسَير وقائع غير مترابطة لقيام إمارات وسقوطها، ونموّ مدن وانهيارها، واندلاع ثورات مدنية أو ريفية، وغزوات قبائل أو عصيانها، وسخط شعبي ينفجر في انشقاقات دينية، وتحالفات ونزاعات إقليمية سرعان ما تتغيّر، كما تدخل في تاريخ البلاد الصدامات بين المجتمعات والخلافات الحزبية الملحّة الّتي لا تكاد تختفي في شكل إلّا لتظهر بآخر. وعلى الصعيدَين، صعيد الدولة المسيطرة أو صعيد الخاضعين لها المحلّيين، يزيد من تعقيد قصّة بلاد الشام تداخل قوى خارجية وعوامل من جهات مختلفة تُلقي بوطأتها في أوقات حرجة معيّنة، بشكل سافر أو مستتر، لتقرّر مسار الأحداث.

ولأجل رواية السياق الكامل لتاريخ بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى، يجب أن يدخل الصعيدان المشار إليهما في هذا

السياق. وبالإضافة إلى دمج السيرتين، من الأفضل وضعهما في إطار الأحداث العالمية، وإلّا تركنا أسئلة جوهرية دون جواب، وذلك يحطّ من أهمّية الأحداث المروية. يجب أن نضع نصب أعيننا أنّ بلاد الشام تقع جغرافيًا على تقاطع طرق العالم. وفي نهاية الأمر، ليس بالإمكان فصل تاريخها عن المجرى الأساسي لتاريخ العالم، بالرغم من الخصوصيّات الإقليمية والمحلّية التي لا تُعدّ.

الفصل الثاني
السيادة الهشّة
906 – 634

يعود التماسّ التاريخي بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية إلى الماضي الغابر. فمنذ أقدم الأزمنة، كان تجّار ممالك جنوبيّ شبه الجزيرة في معين وسبأ وقَتَبان وأوسان وحضرموت يرسلون قوافلهم شمالًا إلى أسواق بلاد الشام الجنوبية والمتوسّطة المزدهرة. وعلى نقاط متعدّدة على امتداد الطريق، في هضبات الحجاز في غربيّ شبه الجزيرة العربية، وحول الأطراف الجنوبية لبلاد الشام، أُنشئت مستعمرات لجنوبيّ شبه الجزيرة العربية واستُخدمت كمحطّات للقوافل. بعض هذه المستعمرات، كثمود في شماليّ الحجاز ومعين في بلاد الشراة، كانت تحمل أسماء مدن أو أقطار من جنوبيّ شبه الجزيرة. في القرن السادس قبل الميلاد، ادّعى المؤرّخ الإغريقي هيرودوتس أنّ الموطن الأصلي لفينيقيّي ساحل بلاد الشام هو على طول شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي[1]؛ ومهما كانت صحّة هذا القول، فهو يدلّ بالتأكيد على وجود صلة قديمة معروفة – من المفترض أن تكون تجارية – بين بلاد الشام وشرقيّ شبه

1- Herodotus, **The Persian Wars**, I: i, as translated and annotated by George Ralinson in Francis R.B. Godolphin, **The Greek Historians** (New York, 1942), I, p.3, and ibid., note 2.

الجزيرة العربية، من المرجّح عن طريق بلاد ما بين النهرَين. وبحلول القرون المبكّرة للعهد المسيحي، إذ بدأت ممالك جنوبيّ شبه الجزيرة العربية بالانحلال، خرجت هجرات واسعة من هذه الممالك عزّزت المستعمرات القديمة المؤلّفة من جنوبيّ شبه الجزيرة العربية والقائمة على الطرف الجنوبي من بلاد الشام، وتسبّبت بإقامة مستعمرات جديدة هناك. مملكة الغساسنة، الّتي ازدهرت في القرنَين الخامس والسادس في شرقيّ الأردن ومنطقة دمشق كدولة تابعة للإمبراطورية البيزنطية، مدينة بنشوئها إلى تلك الهجرات المتأخّرة من جنوبيّ شبه الجزيرة العربية.

لم تكن مملكة الغساسنة هذه أولى الإمارات العربية الّتي ازدهرت في المناطق الحدودية الصحراوية من بلاد الشام. ففي العصور القديمة، كان الإدوميون والمؤابيون وشعوب أخرى مصنّفة تقليديًّا ضمن العرب قد أنشأوا ممالك على الحدود الصحراوية في وادي عَرَبة وتلال بلاد الشراة. وفي زمن الإغريق، أنشأ العرب الأنباط مملكة مزدهرة في المنطقة نفسها، عاصمتها في سَلَع (البتراء)، تتحكّم بالطريق الرئيسة من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. في عهد الرومان، حافظت مملكة الأنباط على وجودها لفترة كدولة رومانية تابعة، وفي أوج سطوتها كانت تضمّ منطقة بلاد الشام الداخلية شمالًا حتّى دمشق. أبعد إلى الشمال، كان هناك أيضًا وجود عربي منذ عصر قديم، في المنطقة ما بين الفرات والعاصي. وبعد ذوبان مملكة الأنباط في الإمبراطورية الرومانية بزمن قصير في

القرن الثاني بعد الميلاد، بدأت إمارة عربية موقعها في تدمر، حوالى مئة وخمسين كيلومترًا شرقيّ حمص، باكتساب أهمّية. خلال فترة قصيرة في النصف الثاني من القرن الثالث، أُقيمت العاصمة التدمرية في حمص؛ وعندها تحدّت الملكة زنوبيا سلطان روما ومدّت سيطرتها على معظم بلاد الشام، وأقدمت حتّى على اجتياح الأناضول ومصر، إلى أن انكسرت أمام الإمبراطور أوريليانوس عام 272 الّذي أسرها ووضع حدًّا لفترة عظمة تدمر القصيرة.

بحلول القرن السابع، كانت قد تسرّبت إلى ريف بلاد الشام أعداد كبيرة من العرب، من جرّاء هجرات من جنوبيّ شبه الجزيرة العربية، أو بسبب استقرار البدو من الصحراء القريبة. كانت مملكة الغساسنة مسيطرة على المدى الكامل للمناطق الحدودية الصحراوية إلى الجنوب من مرتفعات تدمر؛ ففي عدّة نقاط، على الأخصّ في وادي العاصي وجبل الشيخ والجليل ولبنان الجنوبي، كانت القبائل العربية قد تغلغلت بالعمق إلى المرتفعات، مُطلقة أسماءَها في بعض الحالات على الوديان والتلال الّتي استقرّت فيها (مثلًا: وادي التيم، على اسم قبيلة تيم الله بن ثعلبة؛ جبل عامل، في الجليل الشمالي، على اسم قبيلة عاملة؛ جبل بهراء، على اسم قبيلة عربية تحمل هذا الاسم). حالة انهيار النظام المتكرّرة في بلاد الشام بين القرنَين الثالث والسابع، خلال الفترات الطويلة الّتي كان فيها الرومان، أو البيزنطيون، في حروب ضدّ دولة الساسانيّين الفارسية (الّتي تأسّست عام 226 بعد الميلاد)، كانت دون ريب أحد العناصر الّتي سهّلت تسرّب العرب

إلى بلاد الشام على هذا المقياس الواسع. وكان من الطبيعي للنظام المديني الإغريقي في بلاد الشام أن يُضطرّ باستمرار إلى التكيّف مع هذا الدفق العربي المستديم، بدرجات متفاوتة من النجاح.

* * *

بين سنتَي 610 و630، خلال الحرب الأخيرة بين البيزنطيّين والفرس، حدث تطوّر في الحجاز الأوسط كان له تأثير كبير على تاريخ بلاد الشام، وفي الواقع، على المسار العامّ لتاريخ العالم. هنا برزت مكّة، وهي محطّة تجارية قديمة على الطريق العامّة من جنوبيّ شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، فنهضت من وضع خامل نسبيًّا كانت فيه، لتكتسب أهمّية مفاجئة. وأدّى انحطاط المراكز القديمة للنفوذ في جنوبيّ شبه الجزيرة العربية، فضلًا عن الأوضاع المضطربة في الشمال، الّتي كانت الحصيلة الطبيعية للنزاعات المتتالية بين الرومان والفرس خلال القرن السادس، إلى حدوث فراغ سياسي في المناطق العربية الوسطى، وشعر التجّار المنتسبون إلى قبيلة قريش، وهم قلّة مهيمنة، أنّهم مدعوّون إلى ملء ذلك الفراغ. وقد خلق اندلاع الحرب مجدّدًا بين البيزنطيين والفرس سنة 610 مشكلة خطيرة للقريشيّين، إذ إنّ انشغال القوى الكبرى في الشمال بهذه الحرب، وغياب أيّة سلطة في شبه الجزيرة العربية قادرة أن تفرض النظام على الصحراء، عاملان هدّدا بانقطاع التجارة الّتي تزدهر بها مكّة وتوابعها.

والظاهر أنّ قريش كانت في حيرة من أمرها فيما يجب أن تفعله عندما دبّ الشقاق في صفوف أهلها بسبب مسألة دينية. فحوالى السنة نفسها الّتي خاض فيها البيزنطيون حربهم الأخيرة ضدّ الفرس، قام محمّد بن عبد الله، وهو تاجر قريشي متقاعد كان قد عاش تجربة روحانية عميقة، وأخذ يدعو إلى دين جديد بحماسة أقلقت زملاءه في الأوساط المكّية. فمكّة كانت في ذلك الوقت المركز المعترف به للعبادة الوثنية في شبه الجزيرة، ولكنّ الوثنية الّتي كانت الطبقة القريشية المهيمنة تساندها، كانت مهدّدة إذّاك بالانتشار السريع للمسيحية واليهودية في مختلف أقطار شبه الجزيرة العربية. ومحمّد، الّذي كان ملمًّا بالأديان السماوية، المسيحية واليهودية، شجب بشكل قاطع الوثنية العربية، وكلّ أشكال تعدّدية الآلهة وعبادة الأوثان كأخطاء مميتة، ودعا الناس إلى التسليم لله – الإله الحقيقي الأوحد لإبراهيم. ودعا أيضًا المسيحيّين واليهود لقبول الإسلام كإعلان مجدَّد وصحيح للتعاليم الأصلية وغير المنحرفة لموسى وعيسى. وإذ قبل بعض الأفراد من أوساط قريش بتعاليم محمّد، إلّا أنّ الأكثرية وقفت منه موقفًا سلبيًّا، وفي بعض الأحيان قاومته بعنف. ولمّا عجز النبيّ وأنصاره عن تحقيق أيّ تقدّم أكبر في مكّة، غادروها عام 622 – العام الأوّل للتقويم القمري المسلم، أو الهجري – ونزحوا شمالًا إلى واحة يثرب، الّتي سُمّيت منذ ذلك الحين مدينة رسول الله. هنا، أنشأ محمّد أمّة سياسية جديدة مكرّسة للجهاد، وقائمة بحسب شريعة الإسلام الموحى بها في الآيات القرآنية.

من عاصمته المدينة، دعا النبيّ جميع سكّان شبه الجزيرة العربية إلى التخلّي عن طرقهم البالية، والخضوع لشريعة الإسلام. واقترنت التعاليم الجديدة والبسيطة بقوّة شخصية النبيّ، وذكائه السياسي، وإلمامه الواسع بالشؤون العربية – كأحد أعيان مكّة ذوي الخبرة الواسعة –، بالإضافة إلى مهاراته الأكيدة كقائد عسكري وحَكَم، فأسهم ذلك في النجاح السريع للدين الجديد. كما أنّ المدينة، بموقعها الإستراتيجي على الطريق الرئيسية إلى بلاد الشام، كانت في وضع يمكّنها من خنق التجارة الّتي يتوقّف عليها ازدهار مكّة. وكانت ثماني سنوات من العمليات العسكرية والمناورات الناجحة كافية لإخضاع مكّة. وفي العام 630، احتلّها محمّد، وقبِل بنو قريش الإسلام عن آخرهم. بعد ذلك بسنتَين تُوفّي النبيّ ودُفن في المدينة. إلّا أنّ الأمّة الإسلامية استمرّت بقيادة الخلفاء، كما سُمّي رؤساء الأمّة بعد النبيّ. وبحلول العام 634، كان الخلفاء قد أكملوا سيطرتهم على كامل شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما باشروا بحملة فتوحات نادرًا ما عُرف نظيرها من ناحية السرعة والتوسّع. فخلال مئة سنة، امتدّت الفتوحات الإسلامية من حدود آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي، بما في ذلك كلّ إمبراطورية الساسانيّين السابقة ومعظم الأراضي الّتي شكّلت في السابق الإمبراطورية الرومانية.

* * *

حصل فتح الإسلام لبلاد الشام ما بين 634 و641. في العام 629، وكان النبيّ على قيد الحياة، كانت قوّة من المسلمين قد أُرسلت من المدينة لدعم هجوم قبَلي عربي على موئتة، مخفر حدودي بيزنطي إلى الشرق من البحر الميّت. صُدّ ذلك الهجوم لكنّ الغزوات القبَلية على المناطق الحدودية لبلاد الشام استمرّت. وبحلول العام 634، بدأت تعزيزات أكثر فاعلية ترِد من المدينة بقيادة قادة مكّيّين ذوي خبرة. وبعد مُناوشتَين ثانويتَين ومعركة كبيرة في أجنادَين، إلى الجنوب من بحيرة طبريّا، أصبحت فلسطين بمتناول الغُزاة العرب. وعلى أثر معركة هامّة أُخرى ربحها العرب عام 636 على ضفاف نهر اليرموك في شرقيّ الأردن، تقرّر مصير بلاد الشام. بدأت الحاميات البيزنطية في المدن تستسلم الواحدة بعد الأخرى. وبحلول العام 639، كانت كلّ البلاد قد أصبحت فعليًا تحت الحكم العربي؛ ففي العام 641، انسحبت فلول الجيش البيزنطي من بلاد الشام عبر جبال طوروس إلى الأناضول.

إنّ العمليات العسكرية الإسلامية لا تفسّر وحدها الفتح العربي لبلاد الشام بالكامل؛ لا، ولا يُكمّل هذا التفسير إنهاك بيزنطية نتيجة حروبها الأخيرة ضدّ الفرس. فالاستياء المحلّي من الحكم البيزنطي، الظاهر منذ القرن الخامس من خلال انتشار البدعة الوحدطبيعة، وقيام كنيسة يعقوبية محلّية منفصلة، ساهم دون شكّ بالانتصار السهل للعرب. بالإضافة إلى ذلك، كانت أجزاء واسعة من أرياف بلاد الشام، بما فيها بعض المدن والبلدات، قد اتّسمت بالطبع

العربي قبل الفتح بمدّة طويلة. فبالنسبة للّذين كانوا من أصل عربي في بلاد الشام، البدو منهم كما الفلّاحون القبَليون، كان الفاتحون أنسباء عرقيّين. وفيما كان بعض هؤلاء العرب قد قاتلوا إلى جانب البيزنطيّين، كان سواهم في الواقع قد بدؤوا الفتح بهجماتهم المتكرّرة على المراكز البيزنطية على طول حدود الصحراء. وإذ اكتسب الفتح زخمًا، التحمت قوّاتهم مع المجنّدين الآتين من مختلف أرجاء شبه الجزيرة العربية، في جيش الإسلام، بالرغم من أنّ الكثيرين منهم ظلّوا مسيحيّين أوفياء لدينهم لوقت طويل. فبالنسبة لسكّان القرى والمدن الآراميّين المسيحيّين، الّذين كانوا قد اعتادوا على سيطرة الإمبراطورية لمدّة طويلة، لم يكن العرب سوى فاتحين جدد، وإن رفعوا راية دين جديد، لم يبدُ ذلك ذا أهمّية كبيرة. ويبدو أنّ اليهود، الّذين كانوا ما زالوا وافري العدد في بلاد الشام، وكانوا قد تحمّلوا الكثير من الاضطهاد على أيدي البيزنطيّين، رحّبوا بالفتح العربي؛ فبالنسبة إليهم، كان هذا الفتح يَعِدُ بتغيّر لا يمكن إلّا أن يكون نحو الأفضل.

بوجه عامّ، يمكن فهم الفتح العربي لبلاد الشام (وللعراق أيضًا دون ريب) بشكل أفضل كانفجار قبَلي هائل، بدلًا من سلسلة عمليات عسكرية منظّمة أوحت بها الحماسة الدينية، وموجّهة بحسّ مركّز نحو الهدف. فبعد وفاة النبيّ، واجه الإسلامَ في كلّ أنحاء شبه الجزيرة العربية تأكيدٌ عنيفٌ للقبَلية، اتّخذ شكل حركة ارتداد ديني واسعة – «حروب الرِّدّة». واتّخذ الخلفاء الأوّلون

تدابير عسكرية فورية لقمع هذه الرِّدّة. إلّا أنّه لم يكن بالإمكان السيطرة على القبائل العربية إلى ما لا نهاية بالعمل العسكري، كما أنّها كانت، في شبه الجزيرة العربية وعلى امتداد أطراف بلاد الشام والعراق، المصدر الرئيسي للقوّة البشرية الّتي تحتاجها الأمّة للبقاء على قيد الحياة. وعليه، لمّا قاربت حروب الرِّدّة نهايتها عام 634، بدأ الخلفاء، بمساندة الأوساط القريشية في المدينة ومكّة، بتدليل القبائل، سامحين لها بالقيام بغزوات حيثما شاءت خارج إطار الأمّة. فكانت الحاميات في المدن الحدودية لبلاد الشام والعراق أهدافًا طبيعية لغزوات كهذه، وفقط عندما بدأت أولى هذه المدن بالسقوط في أيدي القبائل الغازية، تدخّل الخلفاء لتنظيم هذا السياق العشوائي وتحويله إلى فتح.

وحتّى بعد أن تولّى الخلفاء قيادة هذا الفتح، استمرّت القبائل بالتحرّك على هواها إلى حدّ بعيد. وحين انطلقت قوّتها من عِقالها، لم يعد ممكنًا أن تسيطِر عليها إلّا مجموعة قريشية صغيرة في المدينة، من خلال منحها امتيازات إضافية (ممّا سبّب تعقيدات أكثر)، وتشجيعها على فتوحات أوسع لإبعاد العناصر القبلية الأكثر مشاغَبة. هذه السياسة الأخيرة تفسّر إلى حدّ ما السرعة الّتي تمّت بها الفتوحات ما وراء بلاد الشام والعراق. من جهة أخرى، فإنّ اعتماد الفتوحات العربية في كلّ مكان على مجنّدي القبائل غير النظاميين يفسّر فشل الفاتحين في الإقامة السريعة لحكومة تنظّم البلدان المفتوحة.

بالنظر إلى كلّ هذه الأمور، ليس من المستغرَب أن يكون

التأثير الفوري للفتح العربي لبلاد الشام مؤدّيًا إلى الانهيار الشامل للنظام المديني السائد. فاستسلام الحاميات البيزنطيّة، وبالتالي رحيل المجتمعات المدينية الإغريقية، تبعهما انحطاط سريع للمدن والبلدات. وتضعضع تجارة المتوسّط – الّتي كان الفتح العربي دون شكّ أحد أهمّ مسبّباته – وضع حدًّا لازدهار المدن الساحلية، الّتي تقهقر العديد منها إلى مصافّ القرى. في الداخل، هُجِرت معظم المدن الّتي كانت على الحدود البيزنطية القديمة على طول طرف الصحراء، وبالأخصّ مدن جنوبيّ بلاد الشام. في أيّام الإغريق والرومان، كانت هذه المدن قد لعبت دورًا مهمًّا في الصمود أمام قوى الصحراء. وبزوال الحدود الصحراوية مع الفتح العربي، لم يعد من الضروري المحافظة عليها، ومع تقلّص استعمالها، تبعت المدن الساحلية وتدهور شأنها، فحُوِّلت مدرّجاتها العظيمة وأبنيتها العامّة الأُخرى إلى حصون لدوريات أمن الطرق الصحراوية، أو أصبحت مقالع للقرى المجاورة. وبمرور الزمن تداعت شوارعها المعبّدة وساحات أسواقها بينما تأكّلها المناخ الطبيعي ونكبت الهزّات الأرضية مداخلها المقنطرة الجميلة وصفوف أعمدتها الرشيقة. وهناك سردٌ يروي ما آلت إليه بيروت، كُتب بعد الفتح بثمانية قرون، وما كان مصير العديد من مدن بلاد الشام في ذلك الزمن:

«إنّه في سنة ستّة عشر، عند استيلاء المسلمين على السواحل وتقرير الجزية[2] عليهم، دخل أهل بيروت في التقرير. ثمّ صارت المسلمين يتكاثر فيها والروم تقلّ

2- ضريبة أعناق يفرضها القرآن على غير المسلمين.

منها وقت بعد وقت، حتّى صار أكثر أهلها مسلمون (...) بيروت مدينة قديمة جدًّا، يُستدلّ على قدمها بعتق [سورها]، ومع عتقه فهو محدث عليها، استخدوه الأوّلين من خرايب كانت مقدمة أقدم منه بمدد كثير، لأنّنا نجد في السور المذكور قواعد من الرخام وأعمدة كثيرة من الحجر المانع الّذي قد تعب عليها الأوّلين في عملها، و[جلبوها من أسوان] ونفقوا عليها أموالهم. فدلّ ذلك على أنّها من خرايب قديمة كانت عظيمة البناء، جليلة المقدار، فاستهانوها الّذين جاؤوا بعدهم وجعلوها في السور المذكور مع الحجارة الّتي لا قيمة لها لاستغنايهم عنها بكثرة أمثالها في الخرايب. ودلّ ذلك على أنّ العماير الأولى كانت أعظم من الثانية» (...) «وممّا يستدلّ على كبر بيروت وَسعَتها ما يجدوه الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العماير القديمة، ما طوله قريب من ميلَين، أوّله مكان يُسمّى بليدة ودوقسية [Eudoxia] غربي البلد، إلى مكان يُسمّى حقل القشا مقارب النهر شرقي البلد. فلمّا عمّروا السور اختصروه على القدر الّذي هو عليه اليوم.»[3]

* * *

من بين المدن القديمة في بلاد الشام، بدت دمشق وكأنّها نجت من التدهور الّذي أصاب المدن بعد القرن السابع. وقد عُيِّن يزيد بن أبي سفيان، من بني أمية – إحدى عائلات قريش الرئيسة – حاكمًا على المدينة عند فتحها عام 636. وإثْر وفاته بعد ذلك بعامَين خلَفه أخوه معاوية. وقد اغتنم هذا الأخير الظروف المؤاتية، ومنها تولّي قريبه

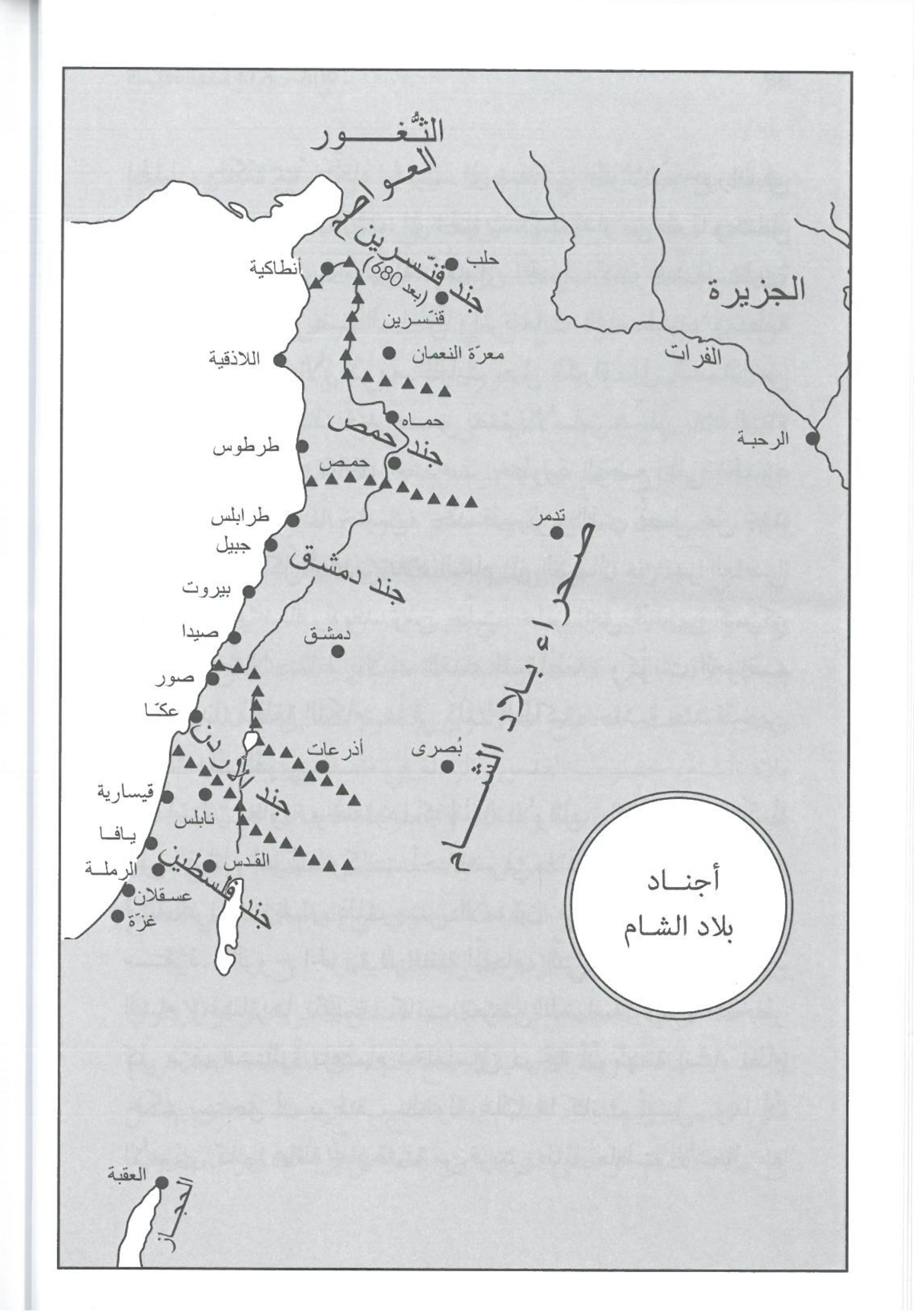
3- صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت**...، نشره فرنسيس أَوَرْز وكمال الصليبي (بيروت، 1969) الصفحات، 13، 8-9؛ الترتيب الأصلي للفقرات المذكورة هنا عُكس لتوضيح المعنى.

عثمان بن عفّان الخلافة عام 644، ليقوّي مركزه في دمشق، ويقيم تحالفات مع القبائل العربية الرئيسة في بلاد الشام، ويوطّد نفسه كحاكم مستقلّ فعليًا. وعندما اغتيل الخليفة عثمان عام 656 وخلَفه ابن عمّ النبيّ وصهره عليّ بن أبي طالب، اعترض معاوية على هذه الخلافة، متّهمًا عليًا بأنّه المسؤول الرئيسي عن الاغتيال. في العام 657، أعلن معاوية نفسه خليفة في دمشق، ولمّا اغتيل عليّ في العراق عام 661، قُبِل حكم معاوية بوجه عامّ. منذ تلك السنة حتّى العام 750، أصبحت دمشق، تحت حكم معاوية والّذين خلفوه، المركز الرسمي للخلافة الأموية وقلب السلطة الإسلامية. جمّلها حُكّامها وشيّدوا فيها الأبنية الفخمة الّتي بقيت بعد زوال السلالة، وحُسِّنتْ شبكة الأقنية الّتي كانت تزوِّد غوطة دمشق والمدينة بالماء من نهر بردى ووُسِّعتْ. صحيح أنّ الأمويّين التفتوا أيضًا إلى مدن أخرى في بلاد الشام، خصوصًا القدس والرملة في فلسطين، وأنشأوا كذلك بعض المدن الجديدة هنا وهناك، وجعلوها حاميات للسيطرة على الأرياف النائية، إلّا أنّ دمشق ظلّت مدينتهم المفضّلة. وعلى مدى قرن تقريبًا، كانت محور النشاط التجاري في العالم الإسلامي الطالع وازدهرت بفضل غنى الإمبراطورية المتنامية.

عدا كونها عاصمة الخلافة، كانت دمشق الأموية المركز الإداري لأحد الأجناد الأربعة الأصلية (جمع جند، أي المقاطعة العسكرية) الّتي قُسِّمت إليها بلاد الشام بعد الفتح. كان جند دمشق يشمل كلّ بلاد الشام الوسطى تقريبًا، من الساحل إلى الصحراء، باستثناء

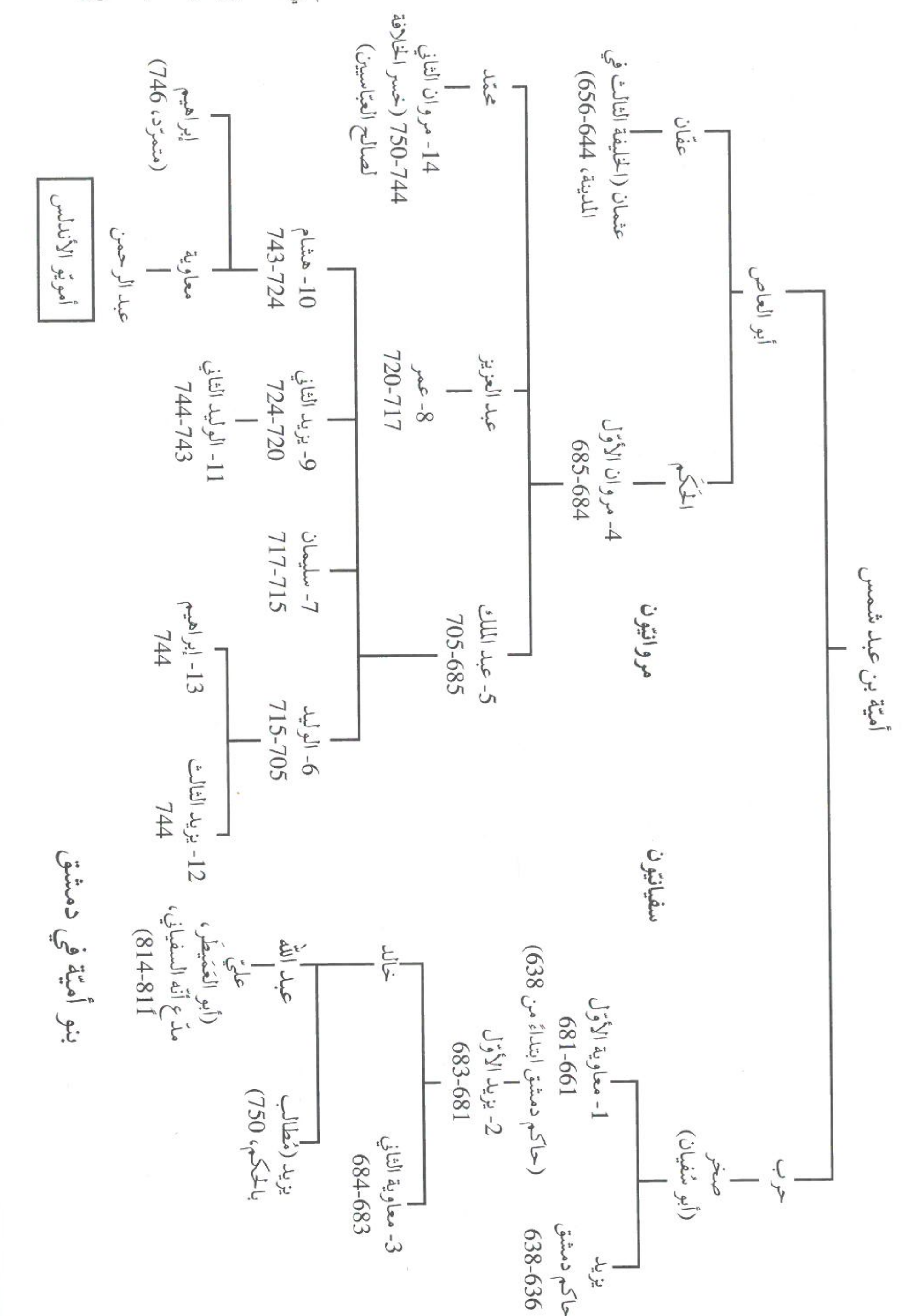
الجليل، ولكنّه يمتدّ باتّجاه الجنوب إلى منطقتَي الجولان وحوران في شرقيّ الأردن. جند الأردن، إلى الجنوب، كان يُدار من طبريّا ويشمل الجليل وجبل عجلون والبثنية. أبعد إلى الجنوب كان جند فلسطين، يدار من الرملة ويضمّ الساحل والمرتفعات الفلسطينية، ومنطقة البلقاء من شرقيّ الأردن ومرتفعات جبل الشراة. إلى الشمال من مرتفعات تدمر، كان جند حمص يضمّ بالأساس شماليّ بلاد الشام بكامله. بعد العام 680، استدعت خطورة الوضع على الحدود البيزنطية إنشاء جند خامس، جند قنّسرين، الّذي فُصل عن جند حمص وضمّ كلّ أراضي بلاد الشام إلى الشمال من نهر العاصي عند شَيزر وحماه. وبعد زمن حلّت حلب محلّ قنّسرين كمركز للجند، مع الاحتفاظ بالاسم القديم للمقاطعة. وكوّنت العواصم (الحصون) لمنطقة اللكام، بما في ذلك أنطاكية، حاشية جند قنّسرين إلى الشمال الغربي.

استمرّ معاوية وخلفاؤه، كالخلفاء الأوائل، بالاعتماد عسكريًّا على القبائل العربية، وكانت أجنادهم في بلاد الشام مزوّدة بقوّات قبَلية عربية. ويفسّر ذلك فشل الأمويّين في إقامة إدارة منظّمة مستقرّة. فالروح الحزبية الرافضة للّجام، الّتي يتّسم بها بدو بلاد الشام وعشائرها المقيمة، كانت تعرّض السياسة الأموية للخطر كلّ مرّة، مستأثرةً باهتمام الخلفاء إلى درجة أنّ مهمّة إنشاء نظام حكم يستحقّ أن يوصَف بالدولة غالبًا ما كانت تُهمل. وبما أنّ الأمويّين كانوا عائلة تجّار قديمة من قريش طالما تعاطت الأشغال مع



مدن الحدود البيزنطية، كانوا لذلك مطّلعين على التقاليد التجارية المدينية الإغريقية في بلاد الشام ويقدّرونها؛ فبذل الكثيرون منهم كحكّام، وعلى الأخصّ الخليفة الوليد (705-715)، جهودًا كبيرة للحفاظ على تلك التقاليد وإنشاء نظام قائم على النمط البيزنطي. إلّا أنّ القوى القبلية، الّتي أطلقت يدها إلى آخر حدّ ظروف الفتح العربي، كانت تصدّ جهود أكثر الأمويّين استنارة في ذلك الاتّجاه، مضطرّة إيّاهم إلى إضاعة أفضل طاقاتهم في إدارة المسائل القبَلية والتحكيم في النزاعات القبَلية. ونتيجةً لتلك المهامّ المرهقة والتافهة، وجد كثيرون من الخلفاء الأمويّين العزاء في صحبة مسيحيّين محلّيين من أهل المدن، وغالبًا ما أوكلوا إليهم مسؤوليات الإدارة.

بين القبائل العربية في بلاد الشام الّتي كان على الأمويّين أن يتعاملوا معها، كانت الأقدم تدّعي أنّ أصلها من اليمن، وتكوّن اتّحاد قبائل يقوده بنو كلب. ومقابل هذه الجماعة من كلب أو من اليمن، كانت قبائل قيس (أو مُضَر) الآتية، أو المدّعية أنّها آتية أصلًا من وسط شبه الجزيرة العربية أو شمالها. خلال العهد الأموي، من المرجّح أنّ عدد العرب من بني كلب (الّذين كانوا يشملون معظم العشائر المقيمة القديمة على ما يبدو) كان يفوق بكثير جماعة بني قيس، الّذين كان معظمهم على ما يبدو قد قدموا مؤخّرًا إلى بلاد الشام مع الفتح. وكان معاوية وعدد ممّن جاؤوا بعده يميلون بتعمّد، كخلفاء، إلى محاباة الأكثرية من بني كلب. إلّا أنّ جماعة قيس كانوا أقلّية، أقوياء الشكيمة، وكان يجب أخذ مطالبهم في الاعتبار. بالإضافة



إلى ذلك، لم يكن بالإمكان الاتّكال على مساندة عرب بني كلب للأمويّين، وفي كثير من المناسبات كان يلائم الأمويّين أن يحرّضوا بني قيس ضدّهم. وقد حاول بعض الخلفاء الأمويّين الحفاظ على توازن في الامتيازات بين الجماعتَين – وهي سياسة باهظة الثمن استنزفت موارد الدولة. وفي أواخر العهد الأموي، إذ ضعفت سلطة الخلفاء، توصّل العداء بين بني قيس وبني كلب إلى إفساد العائلة الحاكمة، فتحالفَ أمراء أمويّون مع فريق أو آخر ليثوروا ضدّ الخليفة الحاكم ويثبّتوا مراكزهم، هنا وهناك، كأسياد محلّيين مستقلّين فعليًّا. وقد ذهب بعض الثوّار إلى حدّ انتحال لقب «الخليفة» تحدّيًا للحاكم الشرعي، وبلغت الفوضى الناشئة عن ذلك أوجها في حوالى منتصف القرن الثامن وكان فيها تفكّك السلالة وزوالها.

وإذا كانت الإدارة العسكرية لأجناد بلاد الشام، بما فيها رعاية القبائل، أحد أهمّ مشاغل خلفاء بني أميّة كحكّام في بلاد الشام، فقد كان هناك شأن آخر يضاهيها أهمّية، ألا وهو إدارة خزانة الدولة. فبلاد الشام، عدا كونها المركز الجديد للدولة الإسلامية الكبرى، كانت أرضًا غنية. وكانت مدنها وبلداتها مراكز مزدهرة للتجارة والصناعة المتّصفة بالجودة. أمّا ممتلكاتها الزراعية، الكبيرة والصغيرة، والتي كانت تشرف عليها، في كثير من الحالات، مؤسّسات كنسية أو رهبانية بفعالية، فكانت تغلّ أنواعًا مختلفة من الفاكهة والحبوب الممتازة وغيرها من المحاصيل، على الأخصّ زيت الزيتون والخمر. وبقدر ما كان الفتح العربي انفجارًا قبليًّا، فإنّه كان كذلك يهدّد

بتعطيل ازدهار بلاد الشام. لذلك، منذ البدء، اتّخذ منظّمو الفتح، والخلفاء الأمويّون بعدهم، التدابير في بلاد الشام وفي غيرها من الأماكن للحؤول قدر الإمكان دون استيطان القبائل العربية الداخلة إليها في المناطق المزروعة ومراكز التجارة. وفي الأمكنة الّتي لم يكن فيها مجال لتفادي توطينهم، خُصّصت مدن حاميات لأجل ذلك. بنتيجة ذلك ظلّت التجارة والصناعة والزراعة، على مدى عقود، حكرًا على السكّان المحلّيّين الأصليّين.

* * *

بين هؤلاء السكّان الأصليّين في بلاد الشام، يبدو أنّ نسبة عالية من العشائر العربية، أو الفلّاحين القبَليّين المستوطنين منذ زمن، قبلوا الإسلام منذ عهد مبكّر، على الأرجح منذ الفتح. كما أنّ أفرادًا من المسيحيّين واليهود في المدن اعتنقوا الإسلام منذ البدء. ما عدا ذلك، ظلّ أصحاب الأملاك والفلّاحون وأهل المدن في بلاد الشام مسيحيّين في معظمهم، يدفعون الجزية[4] الّتي يفرضها الشرع الإسلامي. وضريبة الأعناق الشرعية هذه، بالإضافة إلى ضرائب أخرى مختلفة لا ينصّ عليها الشرع، تتعلّق بالتجارة، موروثة في معظمها من البيزنطيّين، كانت تشكّل الدخل المالي من المدن والبلدات. بالنسبة إلى الممتلكات الزراعية، كانت هناك، بالإضافة إلى الجزية، ضريبة خاصّة على

4- راجع أعلاه، الحاشية رقم 2.

الأرض تدعى الخراج. منذ وقت مبكّر، طوّر التشريع الإسلامي المبدأ القائل بأنّ كلّ الأراضي ملك لله؛ وعند الفتح، أصبحت ملكًا مشتركًا للأمّة الإسلامية، وأصبح بالإمكان وضع اليد عليها كملك للدولة، أو تركها في أيدي ملّاكيها السابقين من غير المسلمين لقاء خراج سنوي.

وكان الدخل من الجزية ومن الخراج، مثله مثل الأرض المحتلّة، من ناحية نظرية، ملكًا للأمّة الإسلامية عامّة. وكان يديره مكتب أُطلق عليه اسم موضّح: «بيت مال المسلمين». في العقود الّتي تلت الفتوحات مباشرةً، عندما كانت الأمّة الإسلامية ما تزال في معظمها مقتصرة على القبائل العربية الغازية، كان جزءٌ كبيرٌ من دخل الدولة الناتج عن الضريبة على غير المسلمين يُوزَّع فعليًّا على العرب المسلمين، لإغرائهم، في الدرجة الأولى، على عدم الاستيطان (في الحالات الّتي لم يكونوا فيها قد استقرّوا) وللمحافظة عليهم كنخبة عسكرية قبَلية. لكن سرعان ما اختلّ هذا النظام. فقد بدأت الشعوب المقهورة تعتنق الإسلام بأعداد متزايدة وتطالب بحقّها بالامتيازات الضرائبية كمسلمين[5]. وبنتيجة ذلك، بدأ الدخل من الجزية، وبالأخصّ من الخراج، يتضاءل، بينما تزايد عدد السكّان المؤهَّلين لتسلّم حصصهم من الدخل العامّ تزايدًا يفوق الحدود. وبنهاية العصر الأموي، لم يعد المتحدّرون من الفاتحين المسلمين الأصليّين ولا المسلمين الجدد ينالون دفعات من خزانة المال

5- نظام المَوالي، الّذي بموجبه كان على غير العرب الّذين يعتنقون الإسلام أن يشتركوا بصفة «موال» لقبيلة عربية معترَف بها، لم يطبّق فعليًّا في بلاد الشام، حيث كان السكان الأصليون عربًا في معظمهم، أو كان باستطاعتهم ادّعاء الاستنساب إلى أصل عربي بفضل اتّصالهم الطويل بجيرانهم العرب.

بشكل منتظم. بالإضافة إلى ذلك، بدأ الخراج يُستوفى من الملّاكين المسلمين على حدّ سواء مع غير المسلمين، ووصلت الدولة والأمّة، على الصعيد الضرائبي، إلى نقطة الافتراق.

من ناحية إثنيّة ولغوية، أكمل الفتح الإسلامي تعريب بلاد الشام، وقد رسّخت الإدارة الأموية هذا التعريب. خلال جيل أو جيلَين أصبحت اللغة الآرامية الّتي كانت اللغة المحكية في البلاد، على مدى أكثر من ألف سنة، في طيّ النسيان تقريبًا، مع أنّ السريانية، أو الآرامية الأدبية، ظلّت إلى حدّ ما لغة الطقوس الدينية المسيحية المحلّية للاستعمال الكنسي. وكما أشرنا، لم يكن انتشار الإسلام بين أهل بلاد الشام سريعًا مع أنّه ظلّ مُطَّردًا. والظاهر أنّ الغالبية العددية للمسيحيّين استمرّت في المدن والأرياف (في الأرياف بين فلّاحي العِزَب على الأخصّ، وكذلك بين بعض العشائر) لقرون عديدة.

إنّ بقاء المسيحية في بلاد الشام (وكذلك في العراق ومصر) تحت حكم الإسلام يحتاج إلى تفسير، خاصّةً أنّه يغاير بوضوح الزوال السريع للزرادشتية في العراق وبلاد فارس بعد الفتح العربي. ففي بلاد فارس والعراق، أفضى تحطيم الإمبراطورية الساسانية، الّتي كانت تدعم المعتقدات الزرادشتية، إلى ترك الزرادشتية دون أيّ دولة تسندها. لذلك كان الاعتناق المكثّف للإسلام من قبل الزرادشتيّين، ممّا حوّل الدولة الساسانية برمّتها، بشكل واضح، خلال مدّة قصيرة، إلى مصدر رئيس للقوى الإسلامية. أمّا حيث كان الأمر يتعلّق بالمسيحية، فالوضع كان مختلفًا تمامًا. فاستمرار بيزنطية كقوّة مسيحية

عظمى بعد القرن السابع أدّى إلى المحافظة على اعتبار المسيحية كدين ضمن دار الإسلام. وهذا ما كان الوضع عليه على الأخصّ في بلاد الشام، الواقعة مباشرةً على حدود الأناضول البيزنطية. بالإضافة إلى ذلك، في بلاد الشام، حرص الخلفاء الأمويّون، الّذين لم يكونوا، في معظمهم، من المسلمين المتشدّدين، على محاباة المسيحيّين، خصوصًا في أوائل العهد الأموي. فقد عُيّن وجهاء مسيحيّون في مناصب سامية كمديرين في بيت المال، أو أصبحوا ندماء للأمراء الأمويّين، بينما كان يطيب للخلفاء الحاكمين أن يدعوا اللاهوتيّين المسيحيّين من مختلف الطوائف إلى عقد مناظرات حامية في حضورهم، يقوم فيها الخلفاء أنفسهم بدور المحكّمين.

* * *

في الواقع، من وجهة نظر الاستقامة الدينية، لم يكن تأثير الفتح الإسلامي على المسيحية في بلاد الشام ضارًّا. كان المسيحيون المعارضون للحكم البيزنطي، قبل الفتح الإسلامي، يلجأون إلى البدَع الجديدة بأعداد كبيرة، ويساندون الكنيسة اليعقوبية. وبزوال البيزنطيّين، تضاءل الاستياء من الاستقامة البيزنطية بطريقة طبيعية، إذ إنّ الأسياد المسيحيّين السابقين واللاهوت الّذي كانوا يفرضونه لم يعد لهم وجود ليُثيروا معارضة ناشطة. بنتيجة ذلك، أصبحت الكنيسة الملكية، الّتي تتبّع الاستقامة البيزنطية، أقدَر على الوقوف

في وجه اليعاقبة، وبالتالي نجحت في نيل الاعتراف بكونها الكنيسة الأولى في بلاد الشام. إلّا أنّ الكنيسة اليعقوبية لم تختفِ من الوجود، ولم تمّحِ تمامًا الأشكال الأخرى من البدَع المسيحية. وبنهاية القرن السابع بدأت طائفة مسيحية جديدة، هم الموارنة، تبرز كمجموعة منفصلة في وادي العاصي والمرتفعات المحيطة به.

في الواقع كانت الكنيسة المارونية الطائفة المسيحية الوحيدة المعروفة الّتي ظهرت في بلاد الشام بعد الفتح الإسلامي. منذ القرن الخامس، كانت المؤسّسة الرهبانية لدير مارون (أو دار مارون) مركزًا دينيًّا مرموقًا في شمالي بلاد الشام، في منطقة الفلّاحين الريفية للعاصي الأوسط، قرب حماه وشَيزر. وكان قد أنشأها تلامذة قدّيس محلّي اسمه مارون، تُوفّي في أوائل ذلك القرن. خلال حكم الإمبراطور هراقليوس، عندما قامت محاولة لإعادة اليعاقبة إلى الاستقامة البيزنطية من خلال تسوية لاهوتية، قَبِلَ رهبان دير مارون، الّذين كانوا من الملكيّين المستقيمي الرأي، بتلك التسوية. وكانت الاستقامة البيزنطية تعتبر أنّ المسيح هو الله وإنسان في الوقت ذاته، وله إذًا طبيعتان متّحدتَان في شخصه، لا يجوز تفريق الواحدة منهما عن الأخرى. أمّا اليعاقبة فكانوا يعتبرون أنّ المسيح هو الله الّذي أصبح إنسانًا. وكانت تلك هرطقة بالنسبة إلى النهج المستقيم، إذ إنّها توحي بأنّ للمسيح في الجوهر طبيعة واحدة إلهية، وبأنّ طبيعته البشرية هي مجرّد شكل (ومن هنا التسمية: الوحدطبيعية، أي الطبيعة الواحدة). أمّا التسوية الّتي اقترحها هراقليوس، والّتي لم تُصَغْ

بالكامل حتّى العام 638، فتوحي بأنّ المسيح – كما يعتقد أصحاب النهج المستقيم – له في الواقع طبيعتان، ولكنّ هاتَين الطبيعتَين قد اندمجتا لدرجة إنتاج طاقة واحدة وإرادة واحدة (ومن هنا التعبير، الوحدإرادي، أي ذو الإرادة الواحدة). هذه الصيغة الوحدإرادية، الّتي حافظت عليها الدولة البيزنطية رسميًّا – مع شيء من التهكّم الخفيّ – حتّى العام 680، لم يرفضها اليعاقبة فقط، بل رفضها كذلك أصحاب النهج المستقيم أيضًا، الّذين رفضوا من ناحية مبدئية إخضاع اللاهوت لذرائع السياسة. على كلّ حال، جاءت تلك التسوية متأخّرة، فلم تكن لها قيمة عملية، إذ بحلول العام 638 كانت بلاد الشام ومصر قد أصبحتا تحت الحكم الإسلامي. وبحلول العام 680 كانت الصيغة قد أحدثت انشقاقًا ضمن صفوف المستقيمين (الأرثوذكسية) إلى درجة أنّ مجمعًا مسكونيًّا خاصًّا (السادس) عُقد في اسطنبول لإدانتها لكونها هرطقة. ولأسباب لم تزل غير واضحة، رفض رهبان دير مارون قرارات المجمع وانفصلوا عن الكنيسة الملكية، وبدأوا بتنظيم أنفسهم بصورة منفصلة. وباعتبار أنّ أوّل أعمالهم بعد 680 كان انتخاب بطريرك خاصّ بهم (راهبهم يوحنّا مارون) للكرسي الأنطاكي، فربّما كان السبب المباشر لانشقاقهم عن الملكيّين الخصام على خلافة الكرسي البطريركي الرئيسي لبلاد الشام[6].

مهما كانت الحال، تطوّر الموارنة سريعًا ليصبحوا ملّة مسيحية

6- الكرسيّ البطريركي الآخر في بلاد الشام كان كرسيّ القدس، الّذي لم تكن له يومًا الأهمّية ذاتها كالكرسيّ الأنطاكي.

هامّة في بلاد الشام. وسرعان ما بدأوا بإخلاء وادي العاصي والتجمّع في جبل لبنان بشكل رئيسي. وكان فشل الدولة الإسلامية في حماية الأرياف على حدود الصحراء من غارات البدو، دون ريب، أحد العوامل الّتي شجّعت تلك الهجرة. وقد كتب مؤرّخ مسلم في القرن العاشر عن الموارنة ما يلي:

«وأمرهم مشهور بالشام وغيرها، وأكثرهم بجبل لبنان و[جبل] سنّير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرّة النعمان. وكان له [مارون] دير عظيم يُعرف به شرقيّ حماة وشيزر، ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمئة صومعة فيها الرهبان. وكان فيه من آلات الذهب والفضّة والجوهر شيء عظيم. فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الأعراب وحيف السلطان. وهو يقرب من نهر الأرنط، نهر حمص وأنطاكية (...) ولبعض متّبعيه [مارون] من المارونية، ويُعرف بقيس الماروني، كتاب حسن في التاريخ وابتداء الخليقة والأنبياء (...) انتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي. ولم أرَ للمارونية في هذا المعنى كتابًا مؤلّفًا غيره، وقد ألّف جماعة من الملكية النسطورية اليعقوبية كتبًا كثيرة ممّن سلف وخلف منهم.»[7]

من ناحية معيّنة، يمكن أن يُنظر إلى بروز الكنيسة المارونية في أواخر القرن السابع على أنّه تمرّد لأهل الريف المسيحيّين في بلاد الشام ضدّ السيطرة الكنسية الّتي كانت تمارَس تقليديًّا من المدن. تحت الحكم البيزنطي، لم يكن تمرّد رهبان وفلّاحين ريفيّين كهذا لينجح؛ فاستخدمت

7- المسعودي، **التنبيه والإشراف**، تحقيق دي خويه، (لَيدن، 1893)، ص. 152-3. وعلى عكس الملكيّين واليعاقبة والموارنة، لم يكن النسطوريون موجودين في بلاد الشام، بل في العراق وما وراءها إلى الشرق. كانت معتقداتهم، التي أدانها مجمع أفسس عام 431، تشدّد على التمييز بين ألوهية المسيح وبشريته إلى حدّ لم يكن مقبولاً على العموم.

الكنيسة الملكية فعليًّا ما لها من نفوذ وقوّة لسحقه، بدعم من الدولة. إلّا أنّ الوضع كان مختلفًا تحت الحكم الإسلامي، لأنّ الكنيسة الملكية لم تعد ذراعًا للدولة. بالإضافة إلى ذلك، قد يكون انحطاط العديد من المدن والبلدات القديمة في بلاد الشام، الّذي تلا الفتح العربي، مهّد الطريق للبروز السريع لكنيسة منفصلة عن المؤسّسة الكنسية المدينية، مركزها الأرياف. وأن يكون الموارنة الأوائل لم يُنتجوا إلّا القليل من الكتابات، بالمقارنة مع الملكيّين واليعاقبة المحكومين من المدن، فذلك ليس سوى انعكاسٍ لنشأتهم كملّة غير مترفة من الأرياف.

* * *

هذا الاستياء الآتي من الأرياف ضدّ سيطرة المؤسّسات المدينية، والمعبَّر عنه بالانشقاق الديني، ليس ظاهرة تنحصر عند مسيحيّي بلاد الشام وحدهم؛ لا بل إنّ هذا الاتّجاه كان أوضح بين المسلمين. فمنذ وفاة النبي، كان البدو العرب وأبناء العشائر، بقيادة القبَليّين الأصليّين من المدينة، المعروفين بالأنصار[8]، قد عارضوا بقوّة تصميم قريش على الاحتفاظ بالخلافة لذاتها. كان قياديّو الأنصار يقولون إنّ جميع المسلمين، كمؤمنين، متساوون، وإنّ الخلافة يجب أن توكَل إلى الأكفأ بينهم، بقطع النظر عمّا إذا كان ينتمي إلى قريش أم لا. كان هذا الموقف المبدئي لقياديّي الأنصار مخلصًا جزئيًّا، كما كان، جزئيًّا،

8- الأنصار اسمٌ أطلقه النبيّ على رجال قبائل المدينة لأنّهم اعتنقوا قضيّته وناصروها بعد وصوله هناك آتيًا من مكة.

خادمًا لمصالحهم، إذ كان بينهم من كان يطمح شخصيًا إلى الخلافة. إلّا أنّ موقفهم هذا كان يلقى الدعم الواسع بين القبَليّين العرب. ولم يكن ذلك بسبب المبدأ المرتكز عليه بقدر ما كان يعود إلى حذر القبائل من تكريس نظام رسمي ترأسه قريش، وقد يحدّ من ميولهم الفوضوية.

تمكّن أحد قادة قريش من اكتساب دعم كبير بين الأنصار وأتباعهم، وهو عليّ بن أبي طالب، ابن عم النبيّ وصهره زوج ابنته. عليّ نفسه ادّعى بحقّه الشخصي بالخلافة، كونه أقرب أنسباء النبيّ بالمنبِت كما بالمصاهرة. كان مناصرو مطالبته الشخصية بالإمامة، كما كانت تُدعى رئاسة الأمّة أحيانًا[9]، مجموعة من المتمسّكين بالحقّ والصواب، الّذين سُمّوا «شيعة عليّ» أو ببساطة «الشيعة». في ثلاث فرص متتالية، ابتداءً من وفاة النبيّ، لم يفلح عليّ في تأمين انتخابه كخليفة. أمّا في المرّة الرابعة وقد نجح، فوجد بأنّ الدعم القبَلي المتقلّب، الّذي بذل الجهد الكبير لإقامة قوّته عليه، لم يكن ندًّا للدهاء السياسي لأخصامه الأمويّين.

بعد حرب طويلة وغير حاسمة، عام 660، بين عليّ ومنافسه الأموي معاوية، وافق عليّ على وضع مسألة الخلافة قيد التحكيم. تسبّب قراره هذا فورًا بانشقاق مفتوح بين أتباعه. من جهة كان هناك أولئك الّذين يعتقدون أنّ الخلافة، أو الإمامة، كانت حقّه الطبيعي، يتصرّف بها كما يشاء؛ من ناحية أخرى، كان هناك القائلون بأنّه مؤتَمن على هذا المنصب من الأمّة باختيار المؤمنين، وبالتالي ليس له

9- لقبا «خليفة» و«إمام» اللذان كانا يُطلقان على رئيس الأمّة، كانا يشدّدان على صفته المزدوجة كخليفة للنبيّ وكقائد يؤمّ الأمّة ويقودها.

الحقّ بأن يخون ثقة الأمّة بوضع مسألة خلافته قيد التحكيم. وظلّت الفئة الأولى تُعرف باسم الشيعة؛ وبعد وفاة عليّ، ظلّت هذه الفئة تحترم ذرّيته بمختلف سلالاتها كأصحاب الحقّ في المطالبة بالإمامة. أمّا الفئة الثانية، الّتي كانت تمثّل الموقف الأصلي للأنصار، فقد أُطلق عليها بعد عام 660 اسم «الخوارج». كلتا الفئتَين ظلّتا في موقف عداء من معاوية وخلفائه الأمويين، وكانتا تعتبرانهم مغتصبين. إلّا أنّ الخوارج كانوا يعادون عليًّا أيضًا، وقد اغتيل على يد أحد أفرادهم في العام 661.

لم تكن بلاد الشام تحت حكم الأمويين، كمركز الدولة الإسلامية العظمى، بلدًا يمكن للشيعة وللخوارج أن يتوسّعوا فيه علنًا. كلتا الحركتَين في البدء كان مركزهما الرئيسي في العراق بين رجال قبائل الكوفة وغيرها من المستوطنات العسكرية المجاورة. واضطرّ الأمويّون هناك إلى قمع عدد من الثورات الشيعية والخوارجية الخطرة، ومن هناك انتشر هذان الاتّجاهان الإسلاميان في عدّة فروع إلى أقصى زوايا الفتوحات الإسلامية. بالنسبة إلى الأمويين، كانت حركة الخوارج أشنع الحركتَين، بسبب موقفها الملتزم المعارض لانتقال الحكم ضمن السلالة على العموم، ولهيمنة قريش بوجه خاصّ. وكان معاوية والّذين خلفوه مستعدّين لتحمّل الشيعة، الّذين كانوا يناصرون فرعًا منافسًا من قريش للخلافة، شرط أن يظلّوا مسالمين ولا يثيروا المشاكل، لذلك، لم يُتح للخوارج بأن يُحرزوا أي تقدم في بلاد الشام، بينما يبدو أنّ الشيعة تجذّرت في بعض المناطق

القبَلية في بلاد الشام (على الأخصّ جبل عامل، في الجليل) منذ وقت مبكّر. ولا ريب أنّ سوء إدارة الشؤون القبَلية العربية الّذي أبداه الخلفاء الأمويون المتأخّرون ساهم في نموّ الشيعية في بلاد الشام، رغم أنّ الحكم الأموي ظلّ يتمتّع على ما يبدو بشعبية في المدن والمناطق المحظية، كدمشق وفلسطين، حتّى النهاية.

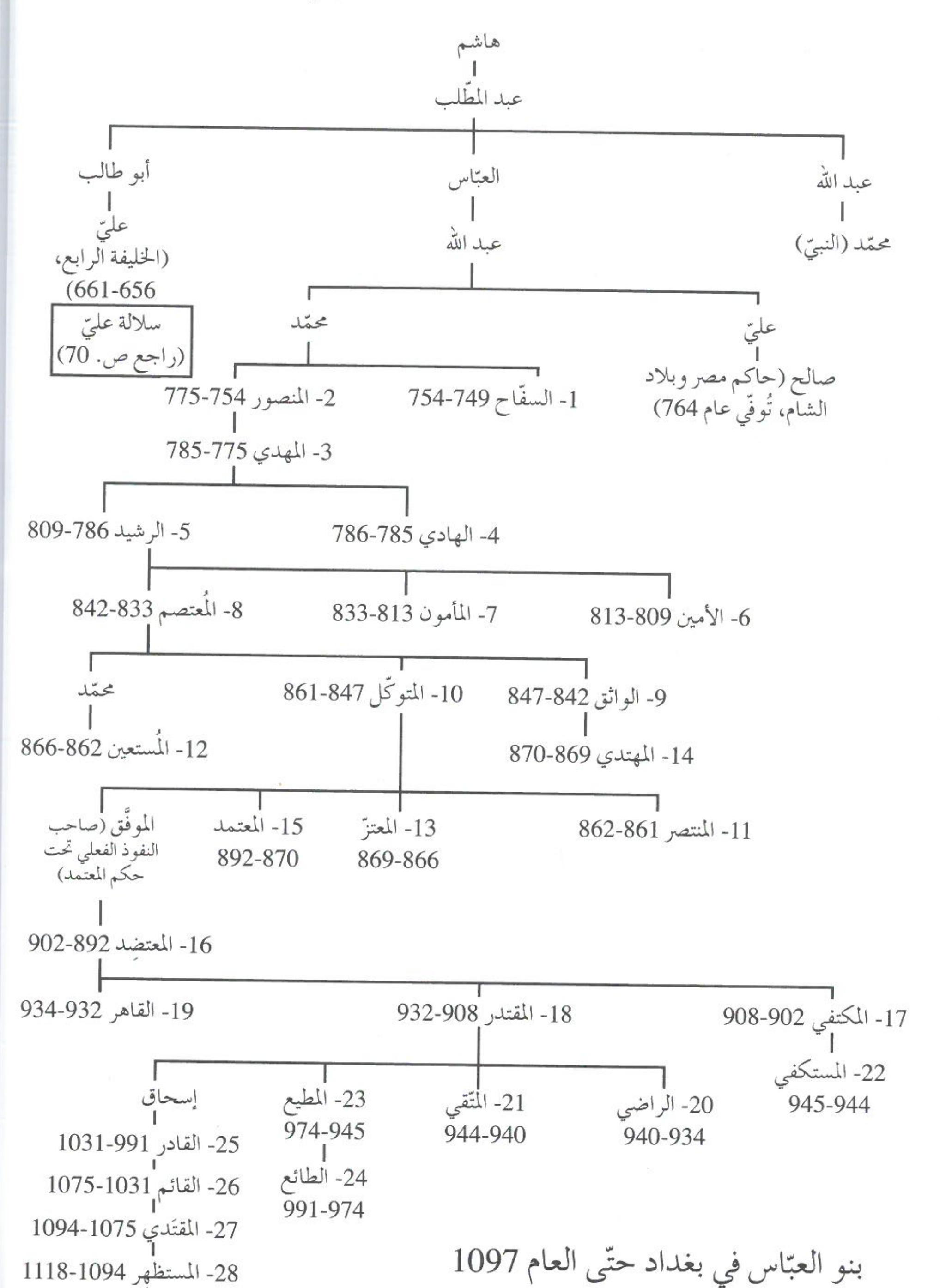
* * *

نجَم سقوط الأمويّين عام 750 جزئيًّا عن فشلهم في تطوير إدارة ناجحة تخدم دولة عظمى، وعن انهيار سياستهم القبلية إلى حدّ ما، كما يُعزى سقوطهم جزئيًّا إلى انقسامات بين أفراد السلالة؛ ولكنّ السبب الأكبر ربّما كان بروز بلاد فارس بحلول القرن الثامن كالمركز الرئيسي للطاقة البشرية الإسلامية القابلة للتجنيد. بينما نُظّمت الحركة الّتي أدّت إلى سقوط الأمويين وقِيدت من بلاد الشام (من الحُمَيْمَة، جنوبيّ البحر الميّت) على يد متحدّرين من عمّ النبي، العبّاس، فإنّ الثورة الفعلية اندلعت في خراسان، في شماليّ شرقيّ بلاد فارس. في تشرين الثاني / نوفمبر 749، قام أبو العبّاس السفّاح، بمناصرة الثورة الخراسانية، بإعلان نفسه كأوّل خليفة عبّاسي في الكوفة. بعد ذلك بشهرَين، في كانون الثاني / يناير 750، هُزم آخر خليفة أموي في معركة على ضفاف الزاب الكبير، أحد روافد نهر دجلة، واجتاحت قوّات العبّاسيّين بلاد الشام وذبحت الأمويّين،

ونصّب العبّاسيّون أنفسهم في مكانهم كأسياد البلاد الإسلامية. وبمساعدة الفرس ذوي الخبرة، بادروا بسرعة إلى تجهيز دولتهم بإدارة مركزية فعّالة، وبجيش نظامي مدرّب حلّ تدريجيًّا محلّ المجنّدين القبَليّين السابقين كدعامة أساسية للسلطة الإسلامية الحاكمة. وتحت حكم أخي السفّاح وخليفته، المنصور (774-775)، أُنشئت عاصمة جديدة هي بغداد، على دجلة، على مقربة من أطلال المدائن، عاصمة الساسانيّين القديمة. وأصبحت بلاد الشام، الّتي كانت في الماضي قلب الحكم الإسلامي، تُدار مثل مصر كمقاطعة عبّاسية تحكمها سلسلة من أقرباء الخلفاء الحاكمين.

وكان من الطبيعي أن يؤدّي تثبيت العراق كالمحور الأساسي الجديد للإمبراطورية الإسلامية إلى تقهقر إضافي لمدن بلاد الشام. ومع ذلك، ظلّت التحصينات العسكرية لمدن بلاد الشام وبلداتها مصانةً، لا بل إنّ العبّاسيّين، في الواقع، قد حسّنوها، على الأخصّ في المدن الساحلية والثغور على طول حدود الأناضول. إلّا أنّ الانحطاط استمرّ من الناحية الاقتصادية.

وبحلول منتصف القرن الثامن، كانت تجارة المتوسّط الّتي ازدهرت بها المدن الساحلية قد أصبحت في حكم العدم فعليًّا. وما كادت الخلافة العبّاسية تثبّت أقدامها حتّى حلّت بغداد وسواها من مدن العراق وبلاد فارس محلّ مدن بلاد الشام الداخلية ككبرى أسواق العالم الإسلامي الشرقي. وأصبح تجّار العراق وبلاد فارس هم الوسطاء الرئيسيّين بين أسواق آسيا الشرقية والوسطى وأسواق



بنو العبّاس في بغداد حتّى العام 1097

أوروبا الشرقية. وحلّ، إلى حدٍّ كبير، الخليج الفارسي كطريق بحرية محلّ البحر الأحمر، الّذي كان ينقل تجارة الشرق إلى مصر وبلاد الشام مباشرةً. ونُقلت كذلك الطرق الداخلية الرئيسية أيضًا إلى الشرق، متجنّبة بلاد الشام، مُنزلة إيّاها إلى مرتبة ثانوية تجاريًا. وأدّى إفقار البلاد الناتج عن ذلك إلى تململ واسع النطاق. في هذه الأثناء بدأت القبائل المحلّية العربية، الّتي لم يعُد رجالها يُجنّدون على النطاق نفسه كالسابق، بالاستيطان في المناطق الريفية والاستيلاء أكثر وأكثر على الأرض الصالحة للزراعة. وربّما كانت الفوضى في حقوق الأراضي الناتجة عن الاستيطان المتزايد للقبائل هي الّتي دفعت الخليفة المنصور إلى محاولة إجراء مسح لأراضي بلاد الشام أثناء حكمه[10]. في هذه الأثناء، ربّما كان انتهاك قبائل مسلمة لمناطق امتلكها سابقًا فلّاحون مسيحيّون سببًا لثورة في أواسط لبنان سنة 759-760.

«رياح بن عثمان (...) ولي إمرة دمشق لصالح بن عليّ الهاشمي أمير الشام ومصر من قبل المنصور[11]. (...) ومن الوقائع في زمن رياح أنّ الروم دخلوا طرابلس ثمّ ظهر في لبنان رجل من أهل المنيطرة[12] شابّ ممتلئ الجسم [اسمه بُندار] وذلك في سنة اثنتَين أو سنة ثلاث وأربعين ومائة وسمّى نفسه الملك ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع عليه أنماط جبل لبنان وغيرهم ثمّ استفحل أمرهم فسبوا بعض قرى البقاع فقتلوا المسلمين وأخذوا ما وجدوا وكتب بُندار الملك إلى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم فتأهّبوا وقاتلوا [رجال بُندار] بأسفل جبل لبنان

10- ابن عساكر، **التاريخ الكبير** (دمشق 1330-1332 هـ.)، III، ص. 273.
11- صالح بن عليّ كان عمّ الخليفة المنصور. راجع مخطط السلالة ص. 56.
12- المنيطرة هي قرية، وجبّة المنيطرة هي منطقة، في القطاع الجبلي من لبنان الأوسط، بين مدينة جبيل الساحلية وبعلبك.

ثمّ أظهروا الهزيمة فأمعن [المتمرّدون] في الطلب فلمّا بعدوا عن الجبل كرّت عليهم خيل بعلبك فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وانهزم بقيّتهم ثمّ إنّهم هاجموهم في قلعتهم فظهروا عليهم وامتلكوها منهم وهرب بُندار إلى بلاد الروم فكتب حينئذٍ صالح بن عليّ يأمر بإخراج من بقي في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام وكفيرها يعني قراها.»[13]

وثمّة رواية أكثر قدمًا للحدث ذاته، أقلّ تفاصيل، ولكنّها تتيح تبصّرًا أكبر:

«خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك فوجّه صالح بن علي (...) من قتل مقاتلتهم وأقرّ من بقي على دينهم وردّهم إلى قراهم وأجلى قومًا من أهل لبنان (...) [و]الأوزاعي كتب إلى صالح رسالة طويلة حفظ منها: وكان من أجلاء أهل الذمّة من جبل لبنان ممّن لم يكن ممالئًا لمن خرج على خروجه، ممّن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم، ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة، حتّى يخرجوا من ديارهم وأموالهم[؟].»[14]

وعاشت بطولات الملك بُندار في الأساطير المسيحية المحلّية، وظلّ يُحتفل بها حتّى القرن الخامس عشر في مطلع ملحمة مارونية باللغة العامّية:

سكن الملك في بسكنتا[15]، وأرسل عساكر في بغته،

13- ابن عساكر، **المصدر نفسه**، V، ص. 341.

14- البلاذري، **فتوح البلدان** (ليدن، 1863-1866)، ص. 162. الأوزاعي (تُوفّي عام 774)، وهو الفقيه المسلم الأهمّ في بلاد الشام في تلك الأيّام، وُلد في بعلبك وعاش وتُوفّي في بيروت. مقامه، خارج المدينة، أعطى اسمه لضاحية الأوزاعي الحديثة، والتي كانت قرية تسمّى حنتوس.

15- قرية جبلية في لبنان الأوسط، إلى الجنوب من المنيطرة.

نهب البقاع في فرد نكته، وقتل رجاله مع النسوان.
وطلع وسكن في قبّ الياس[16]، ورتّب عساكر مع حرّاس:
البقاع تحت خيله انداس، وطلعت اخباره للسلطان[17]...

* * *

تعكس ثورة المسيحيين في أواسط لبنان، خلال حكم المنصور، إحدى نواحي وضع الأرياف في بلاد الشام في أوائل حكم العبّاسيّين. وثمّة ناحية ثانية تعكسها دلائل مختلفة على الامتعاض والاستياء بين القبائل العربية في كلّ البلاد. فقد ازدادت النزاعات التقليدية حدّةً بين عرب بني قيس وبني كلب (اليمنيّين) إذ بدأ رجال القبائل في بلاد الشام، الّذين انصرفوا عن حروب الفتوحات، بالاستيطان هنا وهناك والتنافس على المطالبة بأراضٍ مختلفة. وبحلول أواخر القرن الثامن، كانت غارات البدو قد نكبت الكثير من الأراضي في بلاد الشام، على الأخصّ في وادي العاصي. وأعلن الخليفة هارون الرشيد (786-809) عن موقفه الشاجب للعصيان المتفشّي في بلاد الشام، وأدان سكّان بلاد الشام بأنّهم «جند سوء»[18]. وفي العام 796 أرسل حملة خاصّة إليها لتثبيت الاستقرار:

16- قرية في البقاع، على سفح جبل لبنان.

17- ابن القلاعي، **مديحة على جبل لبنان** (نُشرت كـ **حروب المقدّمين...**، بيت شباب، 1938)، ص. 13.

18- ابن عساكر، **المصدر نفسه**، ص. 276.

«ذُكر أنّ هذه العصبيّة لمّا حدثت بين أهلها، وتفاقم أمرُها، اغتمّ بذلك من أمرهم الرشيد، فعقد لجعفر بن يحيى على الشأم[19] (...) فشخص في جِلّة القوّاد والكُراع والسِّلاح (...) فأتاهم فأصلح بينهم، وقتل زواقيلهم (أي لصوصهم) والمتلصّصة منهم، ولم يَدَعْ بها رمحًا ولا فَرسًا، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة.»[20]

بعد وفاة الرشيد، أتاحت المنافسة بين ولَدَيه، الأمين (809-813) والمأمون (813-833)، فرصة ممتازة لتستعيد الفوضى القبَلية في بلاد الشام سيطرتها. وبحلول الوقت الّذي اعتلى فيه المأمون الكفوء العرشَ، كانت الفوضى قد سادت إلى درجة جعلت الخليفة يصمّم على التصدّي للمشكلة بنفسه[21]. وفي الواقع، قام المأمون بما لا يقلّ عن ثلاث زيارات إلى بلاد الشام، دامت إحداها، في العام 829، سنة بكاملها. في تلك المناسبة، أشرف الخليفة على مسح جديد لأجناد بلاد الشام. وجيء بفريق متميّز من المسّاحين الأشدّاء من العراق وبلاد فارس لهذه الغاية، إذ لم يوافِق أحد من الأقطار الأقرب على القيام بهذا العمل[22]. ولا بدّ أنّ عملية المسح كانت تُعتبر خطرة للمطّلعين على الوضع في بلاد الشام بسبب معارضة القبائل لها. فالمسح، بتعيينه حدود أراضٍ مملوكة قانونيًا، كان يهدّد مطالب القبائل على الأراضي، الّتي كانت تزدهر في الفوضى. بالإضافة إلى

19- يحيى بن جعفر البرمكي (تُوفّي عام 803) كان من المقرّبين من هارون الرشيد، وكان ينتمي إلى عائلة فارسية ذات نفوذ كبير خلال أوّل فترة من حكم الخليفة. انظر «البرامكة» في **Encyclopaedia of Islam, 2**.

20- الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (القاهرة، 1969)، VIII، ص. 262.

21- محمّد كرد علي، **خطط الشام** (بيروت 1969)، I، ص. 160.

22- ابن عساكر، **المصدر نفسه**، IV، ص. 107-8.

ذلك، كان المسح يسهّل الجباية المنتظمة والصحيحة للخراج كما للعُشر – وهي الضريبة الّتي يدفعها المالكون المسلمون على نتاج أراضيهم. ومع أنّ السلطات العبّاسية كانت، في كثير من الأحيان، تتلقّى شكاوى من هذه القبيلة أو تلك بشأن مطالب متعارضة، إلّا أنّ القبائل كانت مضطرّة إلى الوقوف معًا في وجه أيّة محاولة من الدولة للقيام بكشف رسمي؛ وكلّ جهد لإعادة بسط سلطة القانون والنظام كان يشكّل تهديدًا للمصالح القبَلية، وكان بالتالي محتّمًا عليه أن يلقى مقاومة شرسة.

حتّى نهاية حكم المتوكّل (847-861)، ظلّ العبّاسيون مصمّمين على إبقاء بلاد الشام تحت السيطرة. حتّى أنّ المتوكّل فكّر، عام 857، بنقل عاصمته إلى دمشق – وهي فكرة تنازل عنها زاعمًا أنّ المناخ لم يوافقه بعد قضاء ثلاثة أشهر في المدينة. إلّا أنّ سكّان بلاد الشام ظلّوا على العموم معادين للعبّاسيّين، متّهمين إيّاهم، من بين أمور أخرى، بتفضيل الفرس على حساب العرب. وتجلّى عداؤهم بانتشار متزايد للشيعية في بعض المناطق الريفية المسلمة، بالأخصّ بعد حكم المتوكّل[23]. بين مسلمي بلاد الشام الّذين كانوا يفضّلون السُنّة، بالأخصّ في دمشق وجنوبي البلاد، كان الشعور المناهض للعبّاسيّين يتجلّى بالعبادة الغريبة لـ «السفياني» – المتحدّر من صلب معاوية بن أبي سفيان، والّذي سوف يظهر في الوقت المناسب

23- يعزو محسن الأمين (**خطط جبل عامل**، I، بيروت، 1961، ص. 67) بدء تزايد انتشار المذهب الشيعي في شمالي الجليل إلى أوائل القرن الثاني للهجرة، الّذي يطابق فترة حكم هذا الخليفة.

ويسترجع الخلافة لبني أميّة. ونظرًا إلى أنّ فرعًا من بني أميّة تمكّن من التمركز في الأندلس سنة 756، متحدّيًا العبّاسيين، فمن الممكن أنّ عبادة «السفياني» لم تكن مجرّدة من التأثيرات الخارجية. وبحلول القرن العاشر، كان الأمويون في إسبانيا، الّذين اغتنموا فرصة انحطاط العبّاسيّين ليعلنوا أنفسهم خلفاء منافسين لهم، يستخدمون عبادة «السفياني» لترويج قضيّتهم في بلاد الشام. وكتب المؤرّخ المسعودي (تُوفّي عام 956) يقول:

«ورأيت في سنة 324 بمدينة طبريّة (...) كتابًا فيه نحو من ثلاثمائة ورقة (...) «البراهين في إمامة الأمويّين[24]» (...) يذكر فيه خلافة عثمان ابن عفان ومعاوية (...) ومن تلاه [في بلاد الشام...] وينسّق [تاريخ الأمويين في الأندلس] (...) إلى سنة 310 [921] (...)

وذكر من بعد ذلك أخبارًا من أخبار الملاحم الآتية والأنباء الكائنة ممّا يحدث في المستقبل من الزمان والآتي من الأيّام من ظهور أمر [الأمويّين] ورجوع دولتهم، وظهور السفياني في الوادي اليابس من أرض الشأم في غسّان وقُضاعة ولَخم وجُذام[25] وغاراته وحروبه ومسير الأمويّين من بلاد الأندلس إلى الشأم، وأنّهم أصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر (...).» [26]

* * *

24- بالنسبة إلى الإمامة، راجع أعلاه، الحاشية رقم 9.
25- تمتدّ المنطقة المذكورة من منطقة دمشق جنوبًا حتّى حدود شبه الجزيرة العربية، وكان أغلب سكانها من العرب اليمنيّين، المناصرين تقليديًّا للأمويّين. الوادي اليابس، في منطقة جبل عجلون، هو وادي رافد شرقيّ لنهر الأردن.
26- المسعودي، **التنبيه والإشراف** (بغداد، 1938)، ص. 291-2.

في الواقع، جرت محاولات لإعادة حكم أموي أو شبه أموي في بلاد الشام منذ السنين الأولى للعهد العبّاسي. ففي سنة 750، قامت تمرّدات شعبية في حوران وقنّسرين تطالب بإعادة الحكم الأموي، ولكنّها قُمعَت بسرعة[27]. ولم يحدث أيّ تحرّك جدّي للسفيانية قبل العام 811، إثر وفاة هارون الرشيد وخلافة ابنه الأمين المتنازَع عليها. في تلك السنة، تمرّد أحد المتحدّرين من سلالة معاوية وأعلن ذاته خليفة في دمشق. كان اسمه عليّ بن عبد الله، ولكنّه اشتهر بكنية أبي العَمَيْطَر (كان قد ادّعى مرّة، في حديث عرَضي، أنّ هذه كنية العَظاية، وما لبث أن أُطلق عليه الاسم). وقد رأى فيه أتباعه من مناصري الأمويّين «السفيانيَّ» المنتظَر، ولكنّه حاول أيضًا نيل مساندة الشيعة بادّعائه التحدّر، من جهة والدته، من الخليفة عليّ. وبمساندة عرب بني كلب، طرد أبو العميطر الحاكم العبّاسي من دمشق؛ كما استطاع السيطرة على صيدا ونوديَ به خليفة في مدن أخرى على الساحل، وكذلك في بعلبك وحمص. وحيثُ امتدّت سلطته، اضطُهِد عرب بني قيس: في دمشق، لوحقوا وأُضرمت النار في منازلهم. أخيرًا، عام 813 أو 814، تمكّن تحالف من بني قيس من دحر قوّات أبي العميطر خارج دمشق، وأسره. ومضت بضع سنوات قبل أن يتمكّن المأمون، بمساندة بني قيس، من إعادة تثبيت السيطرة العبّاسية على المدينة[28].

27- محمّد كرد علي، **المصدر نفسه**، ص. 147.
28- **المصدر نفسه**، I، ص. 154-7؛ راجع الطبري، **المصدر نفسه**، VIII، ص. 415.

ويسترجع الخلافة لبني أميّة. ونظرًا إلى أنّ فرعًا من بني أميّة تمكّن من التمركز في الأندلس سنة 756، متحدّيًا العبّاسيين، فمن الممكن أنّ عبادة «السفياني» لم تكن مجرّدة من التأثيرات الخارجية. وبحلول القرن العاشر، كان الأمويون في إسبانيا، الّذين اغتنموا فرصة انحطاط العبّاسيّين ليعلنوا أنفسهم خلفاء منافسين لهم، يستخدمون عبادة «السفياني» لترويج قضيّتهم في بلاد الشام. وكتب المؤرّخ المسعودي (تُوفّي عام 956) يقول:

«ورأيت في سنة 324 بمدينة طبريّة (...) كتابًا فيه نحو من ثلاثمائة ورقة (...) «البراهين في إمامة الأمويّين[24]» (...) يذكر فيه خلافة عثمان ابن عفان ومعاوية (...) ومن تلاه [في بلاد الشام...] وينسّق [تاريخ الأمويين في الأندلس] (...) إلى سنة 310 [921] (...)

وذكر من بعد ذلك أخبارًا من أخبار الملاحم الآتية والأنباء الكائنة ممّا يحدث في المستقبل من الزمان والآتي من الأيّام من ظهور أمر [الأمويّين] ورجوع دولتهم، وظهور السفياني في الوادي اليابس من أرض الشأم في غسّان وقُضاعة ولَخم وجُذام[25] وغاراته وحروبه ومسير الأمويّين من بلاد الأندلس إلى الشأم، وأنّهم أصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر (...).»[26]

* * *

24- بالنسبة إلى الإمامة، راجع أعلاه، الحاشية رقم 9.
25- تمتدّ المنطقة المذكورة من منطقة دمشق جنوبًا حتّى حدود شبه الجزيرة العربية، وكان أغلب سكانها من العرب اليمنيّين، المناصرين تقليديًّا للأمويّين. الوادي اليابس، في منطقة جبل عجلون، هو وادي رافد شرقيّ لنهر الأردن.
26- المسعودي، **التنبيه والإشراف** (بغداد، 1938)، ص. 291-2.

في الواقع، جرت محاولات لإعادة حكم أموي أو شبه أموي في بلاد الشام منذ السنين الأولى للعهد العبّاسي. ففي سنة 750، قامت تمرّدات شعبية في حوران وقنّسرين تطالب بإعادة الحكم الأموي، ولكنّها قُمعَت بسرعة[27]. ولم يحدث أيّ تحرّك جدّي للسفيانية قبل العام 811، إثر وفاة هارون الرشيد وخلافة ابنه الأمين المتنازَع عليها. في تلك السنة، تمرّد أحد المتحدّرين من سلالة معاوية وأعلن ذاته خليفة في دمشق. كان اسمه عليّ بن عبد الله، ولكنّه اشتهر بكنية أبي العَمَيْطَر (كان قد ادّعى مرّة، في حديث عرَضي، أنّ هذه كنية العَظاية، وما لبث أن أُطلق عليه الاسم). وقد رأى فيه أتباعه من مناصري الأمويّين «السفيانيَّ» المنتظَر، ولكنّه حاول أيضًا نيل مساندة الشيعة بادّعائه التحدّر، من جهة والدته، من الخليفة عليّ. وبمساندة عرب بني كلب، طرد أبو العميطر الحاكم العبّاسي من دمشق؛ كما استطاع السيطرة على صيدا ونوديَ به خليفة في مدن أخرى على الساحل، وكذلك في بعلبك وحمص. وحيثُ امتدّت سلطته، اضطُهِد عرب بني قيس: في دمشق، لوحقوا وأُضرمت النار في منازلهم. أخيرًا، عام 813 أو 814، تمكّن تحالف من بني قيس من دحر قوّات أبي العميطر خارج دمشق، وأسره. ومضت بضع سنوات قبل أن يتمكّن المأمون، بمساندة بني قيس، من إعادة تثبيت السيطرة العبّاسية على المدينة[28].

27- محمّد كرد علي، **المصدر نفسه**، ص. 147.
28- **المصدر نفسه**، I، ص. 154-7؛ راجع الطبري، **المصدر نفسه**، VIII، ص. 415.

إنّ انشغال الأمين بحروبه ضدّ المأمون أتاح الفرصة، ليس فقط للأموي أبي العميطر، بل لزعماء قبائل مختلفة من بلاد الشام أيضًا، للتمرّد والتخلّص من السيطرة العبّاسية. عند تولّي المأمون الخلافة، كان ستّة زعماء على الأقلّ قد أقاموا إمارات لأنفسهم في الأرجاء المختلفة لشمالي بلاد الشام. وكانت إمارات قبلية مماثلة قد ظهرت في بلاد الشام الوسطى والجنوبية على أثر سقوط أبي العميطر. وقد وضع المأمون حدًّا لهذه الإمارات، وقمع ثورتَين أخريَين ضدّ العبّاسيّين (إحداهما مناصِرة للأمويّين، في دمشق)، ونجح أخيرًا في فرض قَدر من النظام. ويُقال إنّ المجهود الّذي بذله لهذه الغاية لم يترك له من طول الأناة تجاه أهالي بلاد الشام أكثر ممّا كان لوالده الرشيد:

«تعرّض رجلٌ للمأمون بالشأم مرارًا، فقال له: يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشأم كما نظرت لعجم أهل خراسان! فقال: أكثرت عليّ يا أخا أهل الشأم؛ والله ما أنزلت قيسًا عن ظهور الخيل إلّا وأنا أرى أنّه لم يبقَ في بيت مالي درهم واحد؛ وأمّا اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبّتني قطّ؛ وأمّا قضاعة فسادتها تنظر السفيانيّ وخروجَه فتكون من أشياعه، وأمّا ربيعة فساخطةٌ على الله منذ بعث نبيّه من مُضَر؛ ولم يخرج اثنان إلّا خرج أحدهما شاريا [أي من الخوارج]، اعزب فعل الله بك!»[29]

دامت تهدئة المأمون لبلاد الشام حتّى نهاية عهده، إلّا أنّ التحرّكات المناصرة للأمويّين عادت لتظهر تحت حكم أخيه

29- الطبري، **المصدر نفسه**، VIII، ص. 652. ربيعة ومُضَر هما فرعان متوازيان من نزار، عرب الشمال، وبنو قيس متفرّعون من مُضَر. وكانت قريش تنتمي أيضًا إلى مُضَر.

وخليفته، المعتصم (833-842). وبحلول العام 842، ظهر سفياني جديد في جند فلسطين، وهو شخصية حيويّة لُقّب بالمُبَرقع، وكان رجلًا من عرب اليمن اسمه أبو حرب، جاء من منطقة الغور:

«ثمّ هرب [أبو حرب] وألبس وجهه برقعًا كي لا يُعرف، فصار إلى جبل من جبال الأردن؛ فطلبه السلطان فلم يُعرف له خبر؛ وكان أبو حرب يظهر بالنهار فيقعد، على الجبل الّذي أوى إليه متبرقعًا؛ فيراه الرائي فيأتيه، فيذكره ويحرّضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه؛ فما زال ذلك دأبه حتّى استجاب له قوم من حرّاثي أهل تلك الناحية وأهل القرى؛ وكان يزعم أنّه أمويّ، فقال الّذين استجابوا له: هذا هو السفيانيّ؛ فلمّا كثرت غاشيته وتبّاعه من هذه الطبقة من الناس، دعا أهل البُيوتات من أهل تلك الناحية؛ فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية؛ منهم رجل يقال له ابن بَيْهس، (...) ورجلان آخران من أهل دمشق، فاتّصل الخبر للمعتصم وهو عليل (...) فوجّه إليهم المعتصم رجاء الحِضاريّ في جماعة كبيرة، فواقع [رجاءُ ابنَ بَيهس وصاحبَيه] بدمشق، (...) وأخذ ابن بيهس أسيرًا، وقتل صاحبَيه، وواقع [رجاءُ بعدها] أبا حَرْب بالرّملة، (...) وأسر أبا حرب، فحُمِل إلى سامرّا[30]، فجُعل وابن بيهس في المطبق.»[31]

يبدو أنّ تمرّد المُبَرقع كان جزءًا من ثورة عامّة بين عشائر منطقة دمشق وبلاد الشام الجنوبية في ذلك الزمن – ثورة عامّة شملت

30- أقرّ المُعتصم سامرّاء، إلى الشمال من بغداد، كعاصمة للعبّاسيين سنة 835. راجع أدناه، ص. 67.
31- الطبري، **المصدر نفسه**، IX، ص. 116-8.

تمرّدات في زُمر كلّ من القيسيّين واليمنيّين[32]. ولا ريب بأنّ الدعم الّذي لاقاه المبرقع في فلسطين جاء على العموم من الفلّاحين القبَليّين:

«فلمّا صار رجاء إليه وجده في عالم من الناس (...) – زُهاء مائة ألف؛ فكرِه رجاء مواقعته وعَسْكَرَ بحذائه، وطاوله؛ حتّى كان أوّل عمارة الناس الأرضين وحِراثتهم. وانصرف مَنْ كان من الحرّاثين مع أبي حرب إلى الحِراثة وأرباب الأرضين إلى أرضيهم، وبقي أبو حرب في نفر زُهاء ألفٍ أو ألفين؛ ناجزه رجاء الحرب...»[33]

كانت ثورة المُبرقع آخر ثورة «سفيانية» شديدة في بلاد الشام. إلّا أنّ أسطورة «السفياني» استمرّت بين سكّان الأرياف السنّة، وحتّى في المدن، على الأقلّ لمدّة قرن بعد قمع ثورته. وفي زمن متأخّر، العام 907، أوقفت السلطات مشاغبًا ادّعى أنّه السفياني المنتظَر وأعلنَت أنّ به مسًّا من الجنون[34]. ولكنّ الموقف في بلاد الشام كان قد خضع حينذاك لتغيّر جذري.

* * *

بوفاة المتوكّل عام 861، وصل العهد الذهبي للخلافة العبّاسية

32- ابن عساكر، **المصدر نفسه**، V، ص. (311-12). الرواية الواردة هنا عن تمرّدات القيسيّين واليمنيّين وكيف قمعها رجاء الحضاري، مشوّشة وغير واضحة.
33- الطبري، **المصدر نفسه**.
34- **المصدر نفسه**، X، ص. 135.

إلى نهايته. كان والد هذا الخليفة، المعتصم، قد بذل أقصى الجهد لإنشاء جيش كبير من الجنود المماليك الأتراك، ليكونوا حرّاسًا لقصره ويحاربوا حروبه. وكان هؤلاء الجنود معسكرين في سامرّاء، وهي مدينة جديدة بُنيت عام 835 على نهر دجلة إلى الشمال من بغداد، وحلّت محلّ بغداد كمركز للخلافة لمدّة حوالى الستّين سنة. أمّا خلفاء المعتصم، الّذين عُزلوا في سامرّاء على أيدي مماليكهم، فقد وقعوا تدريجيًّا تحت سيطرتهم. في العام 861، اغتيل المتوكّل بمؤامرة عسكرية تركية؛ بحلول العام 870، لاقى ثلاثة من خلفائه الخمسة المباشرين المصير ذاته. تحت حكم المعتمد (870-892)، والمعتضد (892-902) والمكتفي (902-908)، تمكّنت الخلافة من استرجاع بعض هيبتها المفقودة. ولكن ابتداءً من حكم المقتدِر (908-932)، أصبح الخلفاء رؤساء صوريّين، ووقعت السلطة بين أيدي أمراء الجيش الأتراك، الّذين لم يتمكّنوا من الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العبّاسية لافتقارهم إلى سلطة الخلفاء المعنوية.

حتّى في أيّام المأمون، كانت المقاطعات البعيدة في الإمبراطورية العبّاسية قد بدأت تنجرف مبتعدةً عن السلطة المركزية. وقد أنشأ القائد الفارسي طاهر، سنة 820، إمارة سلالية في خراسان، وقد كان سابقًا قائدًا لجيوش الخليفة في بغداد. وأنشئت إمارة أخرى في الوقت نفسه تقريبًا في زبيد، في اليمن، على يد الحاكم المحلّي محمّد بن زِياد، وهو موظّف عربي في خدمة المأمون كان يدّعي التحدّر من بني أميّة. بعد وفاة المتوكّل، نبتت إمارات سلالية مماثلة في كلّ أرجاء

الدولة العبّاسية. أمّا في بلاد الشام، فقد ثبّت حاكم الرملة، عيسى ابن الشيخ ابن السليل الشيباني، نفسه عام 866 كحاكم مستقل فعليًّا في فلسطين[35]. بعد ذلك بسنتَين، عام 868، أُرسل ضابط تركي اسمه أحمد بن طولون من سامرّاء ليقمع ثورة في مصر، حيث بادر فورًا، بصفته نائب حاكم، إلى تثبيت نفسه كسلطة ذاتية مستقلّة. من مصر، وسّع ابن طولون وخلفاؤه حكمهم ليشمل فلسطين وما تبقّى من بلاد الشام، الّتي ظلّت جزءًا من حكم الطولونيّين حتّى ما قبل سقوط السلالة ، عام 905، بزمن قصير.

في هذه الأثناء، كان انحطاط السلطة العبّاسية يؤثّر على الأحداث بطريقة أخرى. بعد 861، لم يعد هناك ضبط صحيح لصحارى بلاد الشام والصحراء العربية. وفي بلاد الشام، سقطت معظم المدن، وكذلك المناطق الريفية، تحت السيطرة البدوية. في الشمال، كانت المجموعة البدوية المسيطرة من تحالف بني كلاب القيسي؛ في الجنوب، كان تحالف بني طيّ اليمني. وتشاركت المجموعتان، بطريقة أو بأخرى، مع القرامطة، وهم أهل مذهب شيعي متطرّف برز في ذلك العهد في جنوبي العراق، وامتدّ جنوبًا إلى شرقيّ شبه الجزيرة العربية.

يُعتقد أنّ مذهب القرامطة كان مذهبًا قريبًا من الإسماعيليّين،

35- هذا، على الأقلّ، هو انطباع هنري لامنس (Henri Lammens, **La Syrie;Précis historique**, Beyrouth, 1921, I, p. 136). راجع الطبري، **المصدر نفسه**، IX، ص. 372. فيما بعد، أصبح خلفاء عيسى هذا الحكام الوراثيّين لآمِد، في بلاد ما بين النهرَين العليا. راجع الطبري، **المصدر نفسه**، IX، ص. 165، 308، 372، 474، 553، 587، و627. كذلك محمّد كرد علي، **المصدر نفسه**، I، ص. 167.

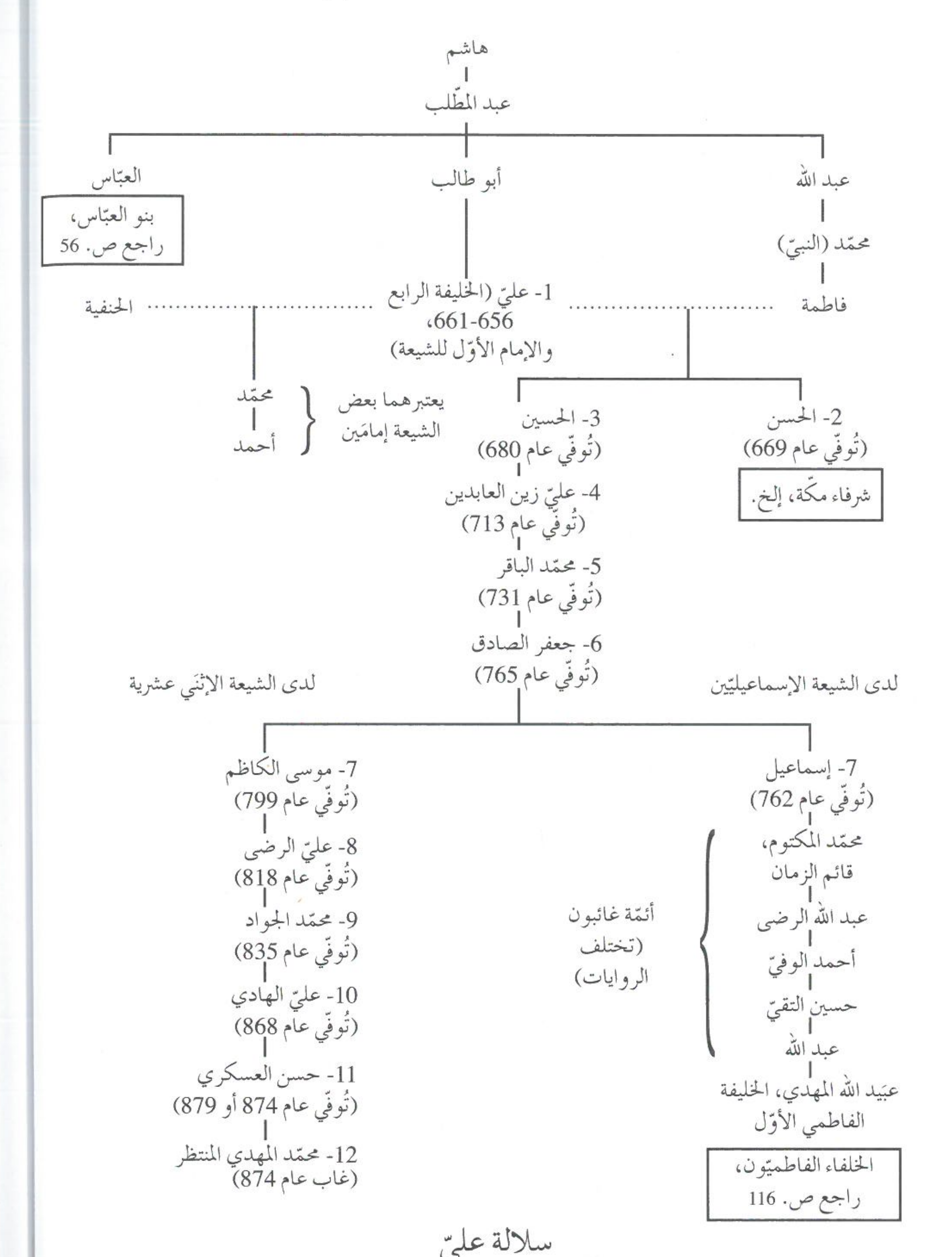
وهم فرع من الشيعة يؤمنون بحضور «الأئمّة الغائبين» من ذريّة إسماعيل، ابن الإمام السادس جعفر الصادق (تُوفّي 765)، وبالتالي فهو الإمام السابع بالتحدّر من عليّ[36]. ويقول الإسماعيليون بأنّه، عندما يأتي الزمن الملائم، سوف يظهر «الإمام الغائب» في زمنه – المتحدّر من إسماعيل – ويجعل حضوره متجلّيًا ويُنشئ الخلافة الصحيحة، الّتي سوف تحكم بالعدالة المطلقة. الإسماعيلية، على صعيد تركيبتها غير البسيطة، كانت تحت قيادة مدينية مركزية[37]. أمّا القرامطة فربما كانوا فرعًا قبليًّا ريفيًّا بسيطًا من حركة الإسماعيلية، معظم أتباعه من البدو والعشائر[38]. وفيما نجحت الحركة الإسماعيلية المنظّمة بإنشاء ما يدعى الخلافة الفاطمية في أفريقيا الشمالية[39] في العام 909، كان القرامطة القوّة الرافعة وراء عدد من الثورات الريفية والقبلية، بلغت ذروتها في أواخر القرن التاسع، بإنشاء ما يسمّى بالـ «جمهورية» (لعدم وجود تسمية أفضل) في شرقيّ شبه الجزيرة العربية. ووسّع القرامطة نفوذهم، من عاصمتهم في الأحساء، إلى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية وإلى جنوبي العراق. وبمساندة القبائل العربية، حاولوا أيضًا الاستيلاء على السلطة في بلاد الشام في أوائل القرن العاشر.

36- بالنسبة إلى الأئمّة، راجع أعلاه، الحاشية رقم 9.

37- عن الإسماعيلية، راجع Bernard Lewis, “The Ismā‘īlites and the Assassins” in **A History of the Crusades**, edited by Kenneth M. Setton, I (Philadelphia, 1955), pp. 99-132.

38- هناك بعض الدلائل على أنّ القرامطة، أو على الأقلّ فرعًا منهم، كانوا مرتبطين بهؤلاء الشيعة الّذين يؤمنون بإمامة محمّد ابن الحنفية المرتّبة إلهيًّا – وابن الحنفية هو أحد أبناء الخليفة عليّ من زوجة غير فاطمة ابنة النبي – وابنه المفترض أحمد بن محمّد من بعده. راجع الطبري، **المصدر نفسه**، X، ص. 25-26 (مذكور في الفصل التالي، ص. 81)

39- راجع أدناه، ص. 84-5.



سلالة عليّ

وبينما كانت حركة القرامطة تنتشر بين البدو والعشائر في بلاد الشام، كان شكل آخر من الشيعية، أكثر اعتدالًا، يُحرز تقدّمًا هناك. هذا الفرع هو الّذي يُسمّى الشيعية الإثني عشرية، لأنّه يعترف باثني عشر إمامًا بالتحدّر من عليّ، غاب الأخير منهم في طفولته ليعود يومًا بمثابة «المهدي المنتظر». يُرجع الشيعة الإثنا عشريّون تحدُّر الأئمّة الخمسة الأخيرين ليس إلى صلب إسماعيل، الّذي كان قد تُوفّي خلال حياة أبيه، بل إلى صلب أخيه الأصغر منه سنًّا، موسى الكاظم. والظاهر أنّ القرنَين التاسع والعاشر كانا الفترة الّتي ترسّخت فيها الشيعية الإثنا عشرية في جبل عامل[40]، وربّما أيضًا في جبل بهراء وعدد من المناطق الأخرى. وكما كانت الحال مع الإسماعيلية، يُفترض أحيانًا أنّ الشيعية الإثني عشرية تطوّرت في بلاد الشام إلى فرعَين منفصلَين: فرع تقليدي يقوده علماء اتّبعوا تفسيرات جعفر الصادق الشرعية (المسمّاة مدرسة الفقه الجعفرية)، وفرع ذي طابع قروي أكثر، وهو النصيرية[41]، الّذي لم تكن عقائده مصاغة بالوضوح ذاته. بوجه عام، يبدو أنّه بدءًا من أواخر القرن التاسع، حلّت الاتّجاهات الشيعية، بأشكالها الإمامية، النصيرية، الإسماعيلية، والقرمطية، محلّ الحركة السفيانية كوسيلة للتعبير عن التحدّي الشعبي للنظام القائم في بلاد الشام. ومع ذلك، ظلّ الشعور القديم المؤيّد للأمويّين موجودًا إلى حدّ ما، على الأخصّ في دمشق وفلسطين.

* * *

40- راجع أعلاه، الحاشية رقم 23.

41- راجع Louis Massignon, **Opera minora** (Beyrouth, 1963), I, pp. 619-24, 640-9

بدأ انهيار النظام والقانون في بلاد الشام خلال السنين الأخيرة من حكم المتوكّل، واستمرّ متسارعًا بعد وفاته. كانت هناك تمرّدات في كلّ مكان، بالأخصّ في الشمال حيث مهّد زوال السلطة العبّاسية الطريق أمام إحراز عرب بني كلاب السيطرة القبلية. في العام 855، خلال حكم المتوكّل، أعدم الحاكم العبّاسي المحلّي زعيمًا عربيًا من جند حمص. على أثر ذلك، طرد أهالي حمص الحاكم، بالإضافة إلى مديره المالي (ولذلك دلالة هامّة)، من المدينة، واستمرّ التمرّد إلى حين صرف الخليفة ذلك الحاكم رسميًا[42]. وهناك تمرّد آخر في المدينة، لعب فيه المسيحيون دورًا قياديًا، أُخمِدَ بشكل صارم في السنة التالية[43]. وقامت تمرّدات أخرى في حمص سنتَي 862 و864، وتمّ قمعها بأقصى الضراوة[44]. وفي سنة 874، «قتلت الأعراب منجور والي حمص [التركي]، فاستعمل عليها بَكتمُر»[45]. تحت حكم أحمد بن طولون، الّذي استولى على بلاد الشام عام 878[46]، قامت تمرّدات أخرى: سنة 880، «وفي شوّال منها قتل أهلُ حمص عاملَهم عيسى الكرخيّ»[47]، وبعد ذلك بسنتين، قمعت قوّة طولونية تمرّدًا في مناطق حمص والسلمية[48] وحلب[49].

42- الطبري، **المصدر نفسه**، IX، ص. 197.
43- **المصدر نفسه**، IX، ص. 199-200.
44- **المصدر نفسه**، IX، ص. 259، 276.
45- **المصدر نفسه**، IX، ص. 510.
46- راجع أعلاه، ص. 68.
47- الطبري، **المصدر نفسه**، IX، ص. 551.
48- مدينة على تخوم الصحراء، شرقيّ حماه.
49- الطبري، **المصدر نفسه**، IX، ص. 611.

تدلّ ظروف هذا التمرّد الأخير في بلاد الشام على الوضع الّذي كان سائدًا في تلك الحقبة. كان القائد أميرًا من سلالة العبّاس الحاكمة، متحدّرًا من فرع العائلة الّذي كان حكم بلاد الشام موكلًا إليه في أوائل الخلافة العبّاسية[50]. والظاهر أنّ هذا الأمير كان مدعومًا من العشائر القديمة العهد والبدو في شمالي بلاد الشام، الّذين كانت أراضيهم ومطالباتهم التقليدية بملكيّتها عرضة لتعدّيات عرب بني كلاب الحديثي القُدوم. مهما كان الوضع، من المؤكّد أنّ عرب بني كلاب قاوموا التمرّد وساندوا الطولونيّين في قمعه. وبعد ذلك بوقت قصير، عندما قام الحاكم الطولوني المعيّن حديثًا لشماليّ بلاد الشام (حمص، قنّسرين وحلب) بتمرّد ضدّ أحمد بن طولون، انحاز عرب بني كلاب، على ما يبدو، مرّة أخرى إلى جانب ابن طولون وقاوموا المتمرّد[51]. ولا ريب بأنّ بني كلاب، في زمن ابن طولون، كانوا قد ثبّتوا أنفسهم كقوّة يُعتدّ بها في شمالي بلاد الشام، مع أنّ هيمنتهم هناك لم تكن تامّة بعد. فلم يثبّت رجال قبائل بني كلاب سيطرتهم شمالي مرتفعات تدمر[52] كاملًا إلّا عندما انضمّوا إلى القرامطة وناصروهم في غزواتهم التالية لبلاد الشام. كذلك الأمر في جنوبيّ بلاد الشام، حيث اشترك عرب بني طيّ مع قضية

50- هؤلاء الحكّام العبّاسيون لبلاد الشام كانوا من سلالة صالح بن علي، عمّ السفّاح والمنصور الّذي قمع ثورة «الملك بندار» في جبل لبنان (راجع أعلاه، ص. 57-8). E. de Zambaur, **Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam** (Hanover, 1927), pp. 28, 32؛ راجع أيضًا مخطّط السلالة العبّاسية، ص. 56.
51- الطبري، **المصدر نفسه**، IX، ص. 614.
52- المسعودي، **المصدر نفسه**، ص. 322.

القرامطة ليُركّزوا سيطرتهم هناك دون منازع.

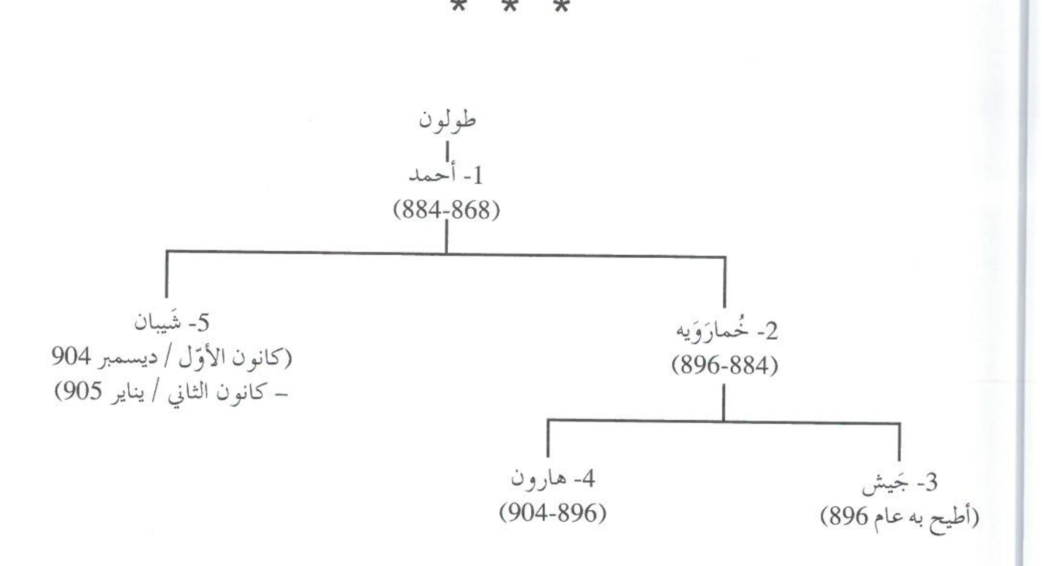
لفت الوجود المُقلق لعرب بني طيّ في مناطق شرقيّ الأردن وبلاد الشراة الانتباه لأوّل مرّة سنة 883 – السنة الّتي تُوفّي فيها أحمد بن طولون. ففي تلك السنة أُلغيت رحلة الحجّ السنوية من دمشق إلى مكّة لأنّ بني طيّ في بلاد الشام الجنوبية وفي الأرجاء الشمالية من الحجاز كانوا في حالة تمرّد. وعلى مدى ثلاث سنوات، لم يتمكّن الحجّاج من مغادرة دمشق إلى الحجاز[53]. تمكّن خُمارَوَيه، ابن أحمد بن طولون وخليفته، من قمع هذا التمرّد الأوّل لبني طيّ عام 885، واستعادة قدر من النظام في بلاد الشام لمدّة ولايته. كان عرب بني طيّ في جنوبيّ بلاد الشام، مثل عرب بني كلاب في الشمال، حديثي القدوم نسبيًّا، وأخذت سطوتهم المتزايدة في المنطقة تتعدّى المطالبات القبَلية الأقدم عهدًا[54]. قد يكون خُمارَوَيه اعتمد على القبائل العربية الأقدم عهدًا في المنطقة – لخم وجذام – لإبقاء بني طيّ تحت السيطرة. غير أنّه اغتيل عام 896 في دمشق. تحت حكمَي ولدَيه، جَيش (896-897) وهارون (897-905)، اختلّ النظام الطولوني في بلاد الشام مرّة أخرى. وكان القرامطة في هذا الوقت قد بدأوا بتثبيت أنفسهم كقوّة في شرقيّ شبه الجزيرة

53- محمّد كرد علي، **المصدر نفسه**، I، ص. 177-8، بالاستناد إلى ابن عساكر.

54- تمرّد عرب بني طيّ في الأعوام 883-885، الّذي أعلن للمرّة الأولى عن حضورهم القوي في جنوبي بلاد الشام، سبقته حِزازات ضارية في فلسطين وشرقيّ الأردن وبلاد الشراة بين قبائل العرب الأقدم عهدًا (لخم وجذام). راجع محمّد كرد علي، **المصدر نفسه**، I، ص. 175. من الممكن أنّ هذه الحزازات استمرّت بسبب الضغوط القبَلية الجديدة الآتية من الصحراء. راجع أيضًا أدناه، ص. 111.

العربية، ومدّ نفوذهم السياسي شمالًا إلى القرى حول الكوفة، جنوبي العراق[55]. وفي العام 898، الأرجح بتحريض من القرامطة، ثار عرب بني طيّ مرّة أخرى، ونهبوا قوافل الحجّاج وعطّلوا طرق المواصلات بين بلاد الشام والحجاز. بعد ذلك بأربع سنوات، بدأ القرامطة بغزوتهم الأولى لبلاد الشام، متقدّمين من جنوبيّ العراق.

* * *



سلالة الطولونيّين في مصر، 868-905

55- الطبري، **المصدر نفسه**، X، ص. 94-5. في الواقع كانت حركة القرامطة قد بدأت في الكوفة قبل ذلك، ولكنّ العبّاسيّين قمعوها بصرامة.

لمراقب غير ملمّ بالمسائل الدينية وتفاصيلها، لا بدّ أنّ اجتياح القرامطة عام 902-903 قد بدا كانفجار شامل جديد للقوى القبَلية. طوال ثلاثة قرون تقريبًا، حاول الخلفاء الأمويون في بلاد الشام، والحكّام العبّاسيون من بعدهم، وأخيرًا الطولونيون، المحافظة على شبه حدود بوجه قوى الصحراء. في هذه الأثناء، كان الضغط الّذي تمارسه تلك القوى يتصاعد تدريجيًا، حتّى أُطلقت فجأة الطاقات القبَلية المكبوتة. الذكر الأوّل لاجتياح القرامطة لبلاد الشام لدى المؤرّخ المعاصر له، الطبري، يصفه كمسألة قبَلية محض:

«وفيها ظهر بالشام رجل جمع جموعًا كثيرة من الأعراب وغيرهم، فأتى بهم دمشق...»[56]

الرجل المذكور، الّذي لم يكشف الطبري عن هويّته في هذا المقطع، كان في الواقع الزعيم القرمطي المدعوّ أبا القاسم. قبل المباشرة باجتياح بلاد الشام، كما يفيد الطبري لاحقًا، كان أبو القاسم هذا قد «سعى في استغواء من قرب من الكوفة من أعراب أسد وطيّ وتميم وغيرهم من قبائل الأعراب ودعاهم إلى رأيه»[57]. وخلال تقدّمه نحو بلاد الشام، كثر أتباعه القبليون بقدر أكبر بعد:

«وسار أبو القاسم [القرمطي] إلى نواحي دمشق فلقيه طغج ابن جفّ الفرغاني

56- الطبري، **المصدر نفسه**، X ، ص. 94.
57- الطبري، **المصدر نفسه**، X ، ص. 95. يعتبره الطبري خطأً زكرويه بن مهرويه، وكان هذا قائدًا آخر للقرامطة في ذلك الوقت.

عامل دمشق وحمص والأردن لهارون بن خُمارويه ابن أحمد بن طولون (...) بالموضع المعروف بوادي القردان والأفاعي من أعمال دمشق سلخ [آخر يوم] رجب سنة 289 [10 آب / أغسطس 902][58] (...) [وفي الموضع] المعروف بالكدّة (...) ومن شهر ربيع الأوّل سنة 290 [شباط / فبراير 903] فهزمه أيضًا [و] قتل خلقًا من أصحابه وحصره بدمشق ثلثة أشهر وعشرين يومًا يقاتله أشدّ قتال والحرب بينهما سجال تقرمط أكثر مَن حول دمشق من الغوطة وعاضدوه فوافت عساكر المصريّين وانضمّ إليه طغج فواقعوه بالموضع المعروف بكناكر وكوكبا[59] على [بُعد] يوم من دمشق غرّة رجب من هذه السنة [31 أيّار / مايو 903] فقُتل القرمطي في المعركة وانهزم المصريون بعقب ذلك فبايع القرامطة أخًا له يُكنّى أبا الحسن وعاودوا حصار دمشق (...) ورحل [أبو الحسن] إلى حمص يوم الأحد لثلث عشرة ليلة خلت من رجب من هذه السنة [12 حزيران / يونيو] فأقام بها ووجّه [قوّة] إلى مدينة بعلبك (...) فأباد أهلها (...) فنهض المكتفي حينئذٍ عن مدينة السلام [بغداد] في عساكره وقدّم أبا الأغرّ (...) فنزل بظاهر مدينة حلب ووجّه القرمطي [أبو الحسن] سريّة كبسته فأتت على أكثر مَن كان معه [قتلتهم] وذلك لعشر بقين من شهر رمضان [20 رمضان، 13 أيلول / سبتمبر] من هذه السنة واجتاحت ما بين حمص وحلب وأنطاكية (...) وأنهض المكتفي الجيوش (...) بنواحي البرّ ممّا يلي شَيزر (...) وأسر جمع كثير [من القرامطة] ووقع[60] بين من بقي منهم تحزّب ففارقهم القرمطيّ مختفيًا وعمل بالمصير إلى ناحية الكوفة فظفر به وللمدينة (...) ومعه أربعة نفر أو خمسة فقبض عليه وحُمل إلى المكتفي (...) ثمّ قُتل القرمطيّ وأصحابه بالدكّة الّتي بُنيت لهم (...) في مدينة السلام لسبع بقين من شهر ربيع الأوّل من هذه السنة [14 شباط / فبراير 904].»[61]

58- نصّ المسعودي غير واضح هنا.
59- تقع القريتان في سفوح جبل الشيخ، إلى الشرق والغرب منه.
60- نصّ المسعودي غير واضح هنا.
61- المسعودي، **التنبيه والإشراف**، تحقيق دي خويه، (ليدن، 1893)، ص. 371-3.

أدّى فشَل خلفاء خُمارَوَيه في الدفاع عن بلاد الشام ضدّ القرامطة إلى سقوطهم. ففي عام 905، بعث الخليفة المكتفي بقوّة لاحتلال بلاد الشام ووضْع حدّ لما تبقّى من الحكم الطولوني في مصر. ولفترة وجيزة، بدا وكأنّ الحكم العبّاسي سيبسط نفوذه من جديد على بلاد الشام. إلّا أنّ القرامطة عاودوا هجومهم في العام 906، وسرعان ما انكسر آخر جهد عبّاسي لإعادة النظام إلى بلاد الشام، مخلّفًا وراءه الفوضى التامّة.

الفصل الثالث
نجم القبلية الصاعد
906 – 977

آذن انتصار القبلية، بحلول أوائل القرن العاشر، بحقبة جديدة في تاريخ بلاد الشام. وأصبح الماضي الإغريقي والروماني وازدهار المدن الّذي رافقه نسيًا منسيًّا. وحتّى عهد الأمويّين الفضّي أمسى ضئيلًا، متلاشيًا في الذاكرة. وقد أخفقت جهود العبّاسيّين في الحفاظ على الحدّ الأدنى من النظام في البلاد. وحمص ودمشق وبعض المدن الّتي استمرّت في الرخاء في القرنَين السابع والثامن تقلّصت وتدنّت إلى مستوى بلدات إقليمية كئيبة وأسواق تفي بحاجات الجوار المحدود والمفقّر. كانت الزراعة في الأرياف حولها قد انحطّت لكون العديد من الممتلكات الزراعية القديمة، على الأخصّ تلك الواقعة في المناطق المحاذية للصحراء، قد تُركت للبدو واستحالت إلى مراعٍ. وقد عزا المؤرّخ المسعودي (الّذي عاش في القرن العاشر)، في وصفه لما حلّ بوادي العاصي الخصيب في عهده، تدهور الأحوال إلى غزوات البدو من ناحية، وإلى «حَيف السلطان» (أي إهمال السلطات) من ناحية أُخرى[1]. وكان الأحرى به، لأجل العدالة، أن يعزو الخراب إلى تمرّد عشائر بلاد الشام، أي الفلّاحين القبليّين، الّذين كان تصدّيهم المستمرّ لجهود السلطة في الحفاظ على النظام عنصرًا أساسيًّا في

1- المسعودي، التنبيه والإشراف، (بغداد، 1938)، ص. 131-2.

تعريض الأرض للنهب على يد الغزاة البدو. فالتمرّدات الّتي قامت بها عشائر بلاد الشام ضدّ العبّاسيّين، بقطع النظر عمّا إذا كانت لدعم قضية «السفياني» أو لمساندة أهل البيت العلوي، ساهمت إلى درجة كبيرة في دمار أرياف بلاد الشام. ومع انتشار الخراب، زاد امتعاض قبائل الفلّاحين في بلاد الشام من الحكم العبّاسي. ففي الكثير من الحالات، يبدو أنّهم انضمّوا إلى البدو في مقاومة جهود العبّاسيين في فرض القانون والنظام في المناطق الريفية. وعندما بدأ القرامطة بغزو بلاد الشام سنة 902، انضمّت عناصر من العشائر ومن البدو أيضًا إلى صفوفهم وشاركوهم في أعمال التدمير.

* * *

إنّ تاريخ بلاد الشام، خلال الحقبة الّتي بدأت باجتياح القرامطة، مشوّش إلى درجة كبيرة، وليس بالإمكان حلّ ملابساته إلّا إذا تذكّرنا طبيعة العلاقة بين هذه الاجتياحات وبين القبلية المتفشّية في بلاد الشام. فالطابع التآمري لحركة القرامطة وتفسيرها السرّيّ والتناقضيّ للإسلام كان إغراءً سهلًا لعشائر بلاد الشام والبدو المشاغبين، كما استمال العرب القبليّين في مناطق أخرى:

«وتسليمهم ظاهر الشريعة، وقولهم في تأويل معانيها، وأمرهم المدعو عند أخذ العهد عليه بستر ما يكشفونه له من تأويل كتاب الله، ومنهم من يقول للمدعو

عند ذلك استر ما أكشفه لك من تأويل كتاب الله وتأويل التأويل وتبليغه إلى مراتب ينتهون به إليها يسمّونها البلاغ، وغير ذلك من دعواتهم ووجوه سياساتهم وأسرارهم في ذلك ورموزهم.»[2]

بالنسبة للمسلمين السنّة، وحتّى للمعتدلين الإثني عشريّين، بدت باطنية عقائد القرامطة كخروج تامّ عن الإسلام:

«وكان فيما حكوا عن هؤلاء القرامطة من مذهبهم أن جاءوا بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان (...) داعية إلى المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهديّ، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفيّة، وهو جبريل. وذكر أنّ المسيح تصوّر له في جسم إنسان، وقال له: إنّك الدّاعية، وإنّك الحجّة، وإنّك الناقة، وإنّك الدّابّة، وإنّك روح القدس، وإنّك يحيى بن زكرياء [المعروف أيضًا كيوحنّا المعمدان]. وعرّفه [المسيح] أنّ الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، (...) والقبلة إلى بيت المقدس، والحجّ إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة يوم الاثنين لا يُعمل فيه شيء.»[3]

وإن بدت انحرافات عن الشريعة كهذه، وكانت كثيرة، مستوجِبةً للشجب بالنسبة إلى السنّة الشديدي التمسّك بالشريعة في العالم الإسلامي، خاصّةً في المدن، فإنّ التحدّي للنظام القائم الّذي مثّلته هذه البدع جعلها كثيرة الإغراء للعشائر والبدو الفوضويّين

2- **المصدر نفسه**، ص. 342.
3- الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، (القاهرة، 1969)، X، ص. 25-6. عن أحمد بن محمّد ابن الحنفيّة، راجع الفصل السابق، الحاشية رقم 38.

حيثما وصلتهم. فقبل أن يبدأ القرامطة باجتياح بلاد الشام، كان هناك عُملاء لهم يروّجون عقائدهم وبدعهم هناك[4]. وفي العام 902-903، بينما هبّ فلّاحو القبائل في بلاد الشام لمساندة الغزاة القرامطة، قاومهم أهل المدن، على الأقلّ في دمشق وبعلبك، وبنجاح في الفترة الأولى، ثمّ بفشل ذريع فيما بعد[5]. وأوقع الغزو الثاني للقرامطة عام 906، كالغزو الأوّل، الضرر الأكبر بالمدن.

«ثم خرج قرمطي آخر، يكنّى أبا غانم في جمع من كلب أيضًا بنواحي الشأم في سنة 293 [905-906].

وقوي أمره وكثر أتباعه، وصار إلى نواحي أذْرِعات وبُصرى من حوران[6] (...) وعاث وقتل وسبى وصار إلى مدينة طبرية من بلاد الأردن، فدخلها بالسيف، وقتل أميرها جعفر بن ناعم، وكثيرًا من الجند والعوامّ.

فجرّد السلطان للقائه الحسين بن حمدان التغلبي[7]، فلقيه بالموضع المعروف بـ [وادي] خَنْدَف من أعمال دمشق.

فجرت بينهما وقعة تكافآ فيها، ثمّ كانت للحسين عليهم، فانكشف القرمطي منهزمًا في البرّية، وذلك في شعبان من هذه السنة [أيّار / مايو – حزيران / يونيو 906]، (...) وسار القرمطي إلى هَيْت[8]، فقتل من أهلها وضربها بالنار، وارتحل عنها متوجّهًا إلى ناحية البرّ.

4- **المصدر نفسه**.
5- راجع أعلاه، ص. 78.
6- تقع أذْرِعات (درعا حديثًا) على الضفّة الجنوبية من اليرموك؛ بُصرى، إلى الشرق، تقع على سفوح جبل العرب.
7- عمّ لناصر الدولة وسيف الدولة، مؤسّسي إمارتَي موصل وحلب الحمدانيّتَين. راجع أدناه، ص. 87؛ و Zambaur, E. de, **Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam,** (Hanover, 1927), p. 134، ومخطّط السلالة ص. 93.
8- بلدة على الفرات.

بهرام الجنّابي
- 1- أبو سعيد الحسن، حوالى 899-914
  - 2- أبو طاهر سليمان 914-944
    - 3- سابور 944- حوالى 961
- أحمد
  - 4- الحسن (حوالى 961 - ؟)
    - 5- أبو يعقوب يوسف (؟ - 977) تتبع قيادة جماعية

سلالة الجنّابي*، قوّاد الأحساء القرامطة، حوالى 899-977

*تقع مدينة جنّابة، التي أعطت السلالة اسمها، على الشاطئ الخليجي لبلاد فارس.

وأنفذ المكتفي عدّة قوّاد لطلبه (...) ، فاختلفت كلمة من كان معه من الكلبيين وخافوا الفناء لإحاطة العسكر بهم.

فقتله بعضهم غيلة ودُفن ليلًا، وتفرّق من كان معه، وصار بعض زعماء كلب ويكنى أبا الذئب برأس القرمطي وكفّيه، إلى [بغداد]، وأظهر الرأس بها يوم الأربعاء لخمسٍ خلَون من شوّال من هذه السنة [30 تمّوز / يوليو 906].» [9]

من الواضح أنّ العبّاسيّين كانوا، في بداية القرن العاشر، ما يزالون قادرين على الحؤول دون اجتياح القرامطة الكامل لبلاد الشام؛ إلّا أنّه لم يكن بالإمكان منع نفوذ القرامطة كلّيًا عن البلاد. فقد كانت للقرامطة في ذلك الوقت قاعدة راسخة في الأحساء، في شرقيّ شبه الجزيرة العربية. من هناك، تحت قيادة أبي سعيد الجنّابي (توفّي عام

9- المسعودي، **المصدر نفسه**، ص. 324-5.

923)، ثمّ تحت حكم ابنه أبي طاهر (تُوفّي عام 944)، تمكّنوا من شنّ غزوات منظّمة ضدّ منطقة الكوفة، في جنوبيّ العراق، كما تمكّنوا من مدّ سيطرتهم، لفترة من الزمن، على كامل شبه الجزيرة العربية تقريبًا. وفي سنة 930، تحت حكم أبي طاهر، احتلّوا مكّة ونهبوها، وحملوا الحجر الأسود من مسجد الكعبة ونقلوه إلى عاصمتهم. وخلال فترة مكوثهم في الأحساء، احتفظ القرامطة بعلائق وثيقة بالقبائل العربية المختلفة في بلاد الشام، وبذلك تمكّنوا من ممارسة نفوذ قويّ على التطورات فيها.

* * *

لم يكن القرامطة سوى فرع جانبي من الحركة الإسماعيلية، هذا إن كانوا إسماعيليّين على الإطلاق. وإذ تسرّعوا وأعلنوا عن حلول «حكم العدالة المطلقة» وأنشأوا «جمهوريّتهم» (كما يصفها البعض) في الأحساء، كان يُدير إسماعيليّي الاتّجاه العامّ قادةٌ من المدن، مرهفو الحضارة، وكانوا أكثر احتراسًا. وكانت تقواهم لـ «الإمام الغائب» القاطن في مدينة السلمية في بلاد الشام، على حدود الصحراء إلى الشرق من حماه. ولكنّ مركز الدعاية الأكثر نشاطًا لـ «الإمام الغائب» هذا كان في مرتفعات اليمن، أبعد من أن تطاله سطوة العبّاسيين. وفي الوقت الّذي بدأ فيه القرامطة باجتياح بلاد الشام، كان مبشّرون إسماعيليون من اليمن قد أسّسوا قاعدة

جديدة لعملياتهم بين قبائل البربر في تونس، في أفريقيا الشمالية. وفي الواقع، بينما كان المغيرون القرامطة ينهبون بلاد الشام، هرب «الإمام الغائب»، الّذي كان يومها عُبَيد الله، من السلمية إلى تونس. هناك، عام 909، «كشف» عن وجوده، وادّعى أنّه المهدي المنتظَر، وأعلن عن تأسيس الخلافة الفاطمية[10].

مهما كان مدى الدعاية الفاطمية المبكّرة في بلاد الشام، فقد ظلّت، حتّى الربع الأخير من القرن، مكسوفة، من جهة بسبب دوام دعاية القرامطة، ومن جهة أخرى بسبب انتشار عامّ للشيعيتَين الإثنَي عشرية والنُّصَيرية. في هذه الأثناء، ترافق التراجع في السيطرة العبّاسية الفعلية على بلاد الشام مع ضعف متوازٍ في الإسلام التابع للسنّة. حتّى في مدن مثل دمشق، الّتي ظلّت معاقل للإسلام السنّي، بدأت عبادات شعبية للباطنية الصوفية بإحراز تقدّم والحلول محلّ إسلام الفقهاء التقليدي الصارم، على الأقلّ لدى الجماهير.

على أثر تدمير الدولة الطولونية، على يد الخليفة العبّاسي المكتفي، كانت إدارة الأمور في بلاد الشام تُعهد أحيانًا إلى حُكّام خاصّين يُعيّنون من بغداد ليحكموا في حلب أو دمشق، كما كانت تُترك أحيانًا في أيدي حُكّام يُعيّنون على مصر. في العام 910، أرسل

10- فاطمة، الّتي دُعيت الخلافة الإسماعيلية باسمها، هي ابنة الرسول وزوجة عليّ، وبالتالي هي سلف أئمّة الإسماعيليين. وبإطلاق لقب «فاطميّين» بدلًا من «علويّين» على أنفسهم، أكّد الخلفاء الإسماعيليون على شرعية ادّعائهم التحدّر من النبيّ بدلًا من الخليفة عليّ، ربّما لتدعيم شرعيّتهم كقوّاد للمسلمين بين غير الشيعة. إلّا أنّ المؤرّخين السنّة لا يعترفون بهم كـ «فاطميّين» بل كـ «عُبيديّين»، على اسم عُبيد الله، أوّل خليفة في هذه السلالة.

أحد الحكّام العبّاسيّين لمصر وبلاد الشام محمد بن طُغج – أحد أبناء طُغج بن جفّ الّذي دافع عن دمشق ضدّ القرامطة سنة 902-903[11] – ليكون نائب حاكم في شرقيّ الأردن وبلاد الشراة. وفي العام 919، أبلى محمّد بن طغج بلاء حسنًا في قمع تمرّد بدوي هدّد بتعطيل الحجّ إلى مكّة. وفي عام 928، تلقّى أوّل تعيين له من بغداد كحاكم للرملة، في فلسطين؛ بعد ذلك بسنتَين، رُقّي إلى حاكمية دمشق. أخيرًا، عام 935، عُيّن حاكمًا لمصر وبلاد الشام. في ذلك الحين، كان الفاطميون يهدّدون مصر من الغرب، وكانت هناك حاجة إلى رجل قويّ فيها، خاصّةً أنّ غارات القرامطة، في شبه الجزيرة العربية وفي جنوبيّ العراق، كانت تشغل الخلافة العبّاسية في بغداد باستمرار. وتولّى محمد بن طغج الدفاع عن مصر وحفظ النظام في بلاد الشام باسم الدولة العبّاسية، واتّخذ لنفسه لقب الشرف الفارسي «إخشيد». ومثل ابن طولون قبله، أصبح مؤسّس سلالة سيطرت على مصر وكلّ بلاد الشام أو أجزاء منها لأكثر من ثلاثة عقود[12].

في الوقت الّذي ترسّخ فيه حكم الإخشيد في مصر، كان خلف المكتفي في بغداد قد وقعوا تحت سيطرة قوّاد جيوشهم الأتراك بشكل تامّ تقريبًا. كانت المؤامرات والنزاعات بين هؤلاء القوّاد هي

11- أنظر أعلاه، ص. 76.

12- راجع محمّد كرد علي، **خطط الشام**، (بيروت، 1969)، ص. 183-7؛ و E. de Zambaur، **المصدر نفسه**، ص. 28، 29، 32، و93. «سُمّي الإخشيد لأنّ هذا كان لقب حاكم الفرغانة، (في بلاد فارس) وأبوه جاء أصلًا من الفرغانة. ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب** (دمشق 1951)، I، ص. 105.

جَفّ

طُغج

كافور (خصيّ أسود، خادم الإخشيد وقائد جيشه)، الحاكم الفعلي 946-968

1- محمّد الإخشيد 935-946

2- أنوجور 946-960

3- عليّ 960-966

4- أحمد 966-969

(يرمز الخطّ المتقطّع في هذا المخطّط إلى علاقة سيّد – عبد)

سلالة الإخشيد (محمّد بن طُغج) في مصر 935-969

الّتي تتيح لبعض الخلفاء، من وقت إلى آخر، ممارسة نفوذ محدود. ومن 929 إلى 933، كان الحاكم الفعلي لبغداد المملوك موؤنِس الخادم. وبحلول العام 935، كان ضابط تركي آخر، محمّد بن رائق، قد ركّز نفسه في السلطة تحت اللقب الجديد، «أمير الأمراء»[13]. في العام 938، طُرد ابن رائق من هذا المركز بمؤامرة عسكرية وحَلّ محلّه منافسه بَجْكَم. وفي العام 941، عاد إلى السلطة، ليُعزل ثانية سنة 942 بمؤامرة عسكرية أُخرى لاقى فيها حتفه. لم يكن قائد المؤامرة الثانية ضدّ ابن رائق تركيًّا، بل عربيًّا من قبيلة تغلب يدعى حسن بن حمدان – ابن أخي الحسين بن حمدان الّذي كان المكتفي قد أرسله ليصدّ اجتياح القرامطة الثاني لبلاد الشام عام 906[14]. كان عرب بني تغلب مسيحيّين لم يعتنقوا الإسلام إلّا في القرن التاسع. كمسلمين، كانوا شيعة إثني عشريّين، وكان مقرّهم شماليّ بلاد ما بين النهرين في منطقة الموصل. وبدأ الخليفة المكتفي ومن جاء بعده باستخدام زعماء

13- عن لقب «الأمير» راجع أعلاه، ص. 67.

14- راجع أعلاه، ص. 82.

قبائل بني تغلب من دار حمدان كضبّاط في الجيش، وذلك لموازنة نفوذ المماليك الأتراك على ما يبدو. وفي العام 942، عُيِّن حسن بن حمدان ليخلف ابن رائق كأمير الأمراء، مع لقب الشرف «ناصر الدولة [العبّاسية]». وأُعطي أخوه أيضًا لقب شرف، «سيف الدولة». وعندما عُيِّن في السنة التالية مملوك تركي اسمه توزون محلّ ناصر الدولة حسن بن حمدان كأمير الأمراء، عُوِّضَ على هذا الأخير بحاكمية منطقة الموصل – مسقط رأسه – مع الاتّفاق على أنّ باستطاعته مدّ حكمه على بلاد الشام إن أراد ذلك، مقابل دفع جزية لبغداد.

في بلاد الشام، لم يكن حكم الإخشيد ناجحًا إلّا في المناطق الجنوبية. في حلب، لم يتمكّن نائب حاكمه من صدّ اجتياح ضخم للمناطق الشمالية، قامت به موجة جديدة من عرب بني كلاب من نجد، في شبه الجزيرة العربية الوسطى. من الممكن أن يكون هذا الغزو الجديد لشماليّ بلاد الشام قد حرّض عليه أو دعمه القرامطة في الأحساء؛ على أيّ حال، لقد أبطل الغزو سيطرة الإخشيد على شماليّ بلاد الشام. وفي عام 939، عيّن الخليفة الراضي (934-940) أمير الأمراء السابق، ابن رائق، حاكمًا على حلب، لإبقائه بعيدًا عن بغداد على ما يبدو. تقدّم ابن رائق جنوبًا، انطلاقًا من حلب، وقهر الإخشيد، واستولى على دمشق. ولم يتبقَّ للإخشيد في هذا الوقت إلّا فلسطين. إلّا أنّه في العام 941، عاد ابن رائق إلى بغداد. وعلى أثر ذلك، أرسل الإخشيد قائد جيشه، الخصيّ الأسود كافور، ليستعيد السيطرة على بلاد الشام، فاحتلّها حتّى حلب شمالاً. وأُعيدت بعد ذلك حلب وحمص إلى ابن رائق نتيجة اتّفاق خاصّ[15].

* * *

15- ابن العديم، **المصدر نفسه**، ص. 98-102.

كان الوضع في شماليّ بلاد الشام مشوّشًا ما بين 941 و944. وُضعت حلب أوّلًا تحت سيطرة حكّام أتراك معيّنين من بغداد؛ ثمّ، سنة 944، أرسل ناصر الدولة ابن حمدان ابن عمّه غير الكفوء حسين بن سعيد بن حمدان ليستولي على حلب وحمص. وما كادت قوّات الحمدانيّين تحتلّ المدينتَين حتّى هجم عليها الإخشيد واستعاد شماليّ بلاد الشام. فوُضعت حلب عندها تحت حكم زعيم عربي من بني كلاب حكم باسم الإخشيد. لكنّ زعماء آخرين من بني كلاب، طامحين إلى حاكمية حلب، بعثوا برسائل إلى الحمدانيّين في الموصل يدعونهم فيها إلى التقدّم واحتلال المدينة، واعدين إيّاهم بالمساعدة. عندها أرسل ناصر الدولة أخاه سيف الدولة عليًّا ليحتلّ حلب ويقيم حكمه فيها:

«ودخل سيف الدولة حلب، يوم الاثنين لثمانٍ خلَون من شهر ربيع الأوّل، من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة [30 تشرين الأوّل / أكتوبر 945].

وكان القاضي بها أَحمد بن محمد بن ماثل، فعزله وولّى أبا حصين علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرَّقّي؛ وكان ظالمًا، فكان إذا مات إِنسان أَخذ تركته لسيف الدولة. (...)

ثمّ إنّ الإخشيد سيّر عسكرًا إلى حلب مع كافور. (...) والأمير سيف الدولة (...) لقيهم بالرَّستن[16]. فحمل سيف الدولة على كافور، فانهزم [هذا الأخير] وازدحم أصحابه في جسر الرستن، فوقع في النهر [نهر العاصي] منهم جماعة.

ورفع سيف الدولة السيف، فأمر غلمانه أن لا يقتلوا أحدًا منهم. (...)

16- راجع أعلاه، ص. 14.

ومضى كافور هاربًا إلى حمص، وسار منها إلى دمشق؛ (...) وأطلق سيفُ الدولة الأسارى جميعهم؛ فمضوا وشكروا فعله.»[17]

بعد وصول سيف الدولة إلى بلاد الشام، تعاقبت ثلاث سنوات من الحروب بين الحمدانيّين والإخشيديّين، وكان سيف الدولة يحاول جاهدًا مدّ سيطرته جنوبًا على دمشق وفلسطين، في حين كان الإخشيد ومن جاء بعده يبذلون جهودًا موازية لطرده من حلب:

«ورحل سيف الدولة بعد هزيمتهم [الإخشيديّين] إلى دمشق، ودخلها في شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين [نيسان / أبريل – أيّار / مايو 945]، وأقام بها. وكاتبه الإخشيد يلتمس منه الموادعة، والاقتصار على ما في يده؛ فلم يفعل.

وخرج سيف الدولة على الأعراب؛ فلمّا عاد منعه أهل دمشق من دخولها. فبلغ الإخشيد ذلك فسار من الرملة؛ وتوجّه يطلب سيف الدولة؛ فلمّا وصل طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب بغير حرب، لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الإخشيد. فاتّبعه الإخشيد إلى نزل معرّة النعمان[18] (...) فجمع سيف الدولة، ولقيه بأرض قنّسرين، في شوّال من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة [أيّار / مايو – حزيران / يونيو 945].

وكان الإخشيد قد جعل مطارده وبوقاته في المقدّمة، وانتقى من عسكره نحو عشرة آلاف (...) وهرب سيف الدولة (...) إلى (...) الرقّة [على نهر الفرات]. وقيل إنّه أراد دخول حلب فمنعه أهلها.

ودخل الإخشيد حلب، وأفسد أصحابه في جميع النواحي، وقُطعت الأشجارُ

17- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 112-3.
18- مدينة جنوبيّ حلب.

الّتي كانت في ظاهر حلب وكانت عظيمة جدًّا. وقيل: إنّها كانت من أكثر المدن شجرًا. وأشعار الصنوبري تدلّ على ذلك.

ونزل عسكر الإخشيد على الناس بحلب؛ وبالغوا في أذى الناس لميلهم إلى سيف الدولة[19].

وعاد الإخشيد إلى دمشق بعد أن تردّدت الرسل بينه وبين سيف الدولة. واستقرّ الأمر على أن أفرج الإخشيد له عن حلب وحمص وأنطاكية. وقرّر عن دمشق مالًا يحمله إليه في كلّ سنة.

وتزوّج سيف الدولة بابنة أخي الإخشيد عبيد الله بن طغج؛ وانتظم هذا الأمر على يد الحسن بن طاهر العلوي وسفارته، في شهر ربيع الأوّل، سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة [تشرين الأوّل / أكتوبر 945]. (...) وعاد سيف الدولة إلى حلب.»[20]

تُوفّي الإخشيد في تمّوز / يوليو – آب / أوغسطس 946 في دمشق، وخلفه قائد جيشه، الخصيّ الأسود كافور، كحاكم فعليّ في مصر وبلاد الشام الوسطى والجنوبية. اغتنم سيف الدولة فرصة وفاة الإخشيد للتقدّم جنوبًا واحتلال دمشق وطبريّا من جديد. لكنّه ووجه بمقاومة في دمشق:

«وكان سيف الدولة في بعض الأيّام يساير الشريف[21] العقيقي بدمشق، في الغوطة بظاهر البلد، فقال سيف الدولة للعقيقي: «ما تصلح هذه الغوطة تكون إلّا لرجل واحد». فقال له الشريف العقيقي: «هي لأقوام كثير». فقال له سيف الدولة:

19- يظهر أنّ أهل حلب منعوا سيف الدولة من الدخول إليها من باب الحذر، وليس بسبب معارضتهم له.
20- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 114-5.
21- لقب فخري يُطلق على سلالة النبيّ وأصحابه المقرّبين.

«لئن أخذتها القوانين ليتبرّأن أهلها منها». فأسرّها الشريف في نفسه، وأعلم أهل دمشق بذلك.

وجعل سيف الدولة يطالب أهل دمشق بودائع الإخشيد وأسبابه؛ فكاتبوا كافورًا فخرج في العساكر المصرية، ومعه أنوجور ابن الإخشيد.»[22]

لم يكن سيف الدولة جاهزًا للتصدّي لغزوٍ جديد من مصر. بعد مواجهة غير ناجحة مع قوّات كافور في اللّجون، قرب طبريّا، فقرّر ترك دمشق والتراجع إلى حمص. هناك، «جمع جمعًا لم يجتمع له قطّ مثله، من بني عُقَيل، وبني نُمَير، وبني كلب، وبني كلاب»[23]، وعاد ليواجه قوّات كافور في مرج عذراء، إلى الشمال من دمشق. لكنّ هذه القوّات القبلية الّتي عبّأها سيف الدولة لم تكن متكافئة مع قوّات كافور المنضبطة. هُزم سيف الدولة في المعركة، ففرّ إلى حلب، ومن ثمّ إلى الرّقّة على نهر الفرات. ودخل كافور حلب ونصّب حاكمًا من قِبَله هناك ثمّ عاد إلى دمشق. وأخيرًا أُبرم صلح بين الفريقَين: اتُّفق على أنّه بإمكان سيف الدولة العودة إلى حلب وحمص، ولكن عليه أن يتخلّى عن أيّة مطالبة بدمشق. بحلول نهاية 947 كان قد عاد فعليًا إلى شماليّ بلاد الشام، وأقام بلاطه في ضواحي الحلْبة، خارج حلب.

* * *

22- ابن العديم، المصدر نفسه، I، ص. 116-7.
23- المصدر نفسه، I، ص. 118.

سلالة الحمدانيين في الموصل (929-981) وفي حلب (944-1015)

حمدان
- سعيد
  - أبو فراس (الحارث) (مطالب بالحكم، توفي عام 968)
  - حسين
- أبو الهيجاء عبد الله
  - فرع حلب
    - 1- سيف الدولة علي 944-967
    - 2- سعد الدولة شريف 967-991 (وغيره وبحكم المملوكان)
    - أبو الهيجاء (مطالب بالحكم)
    - 3- سعيد الدولة سعيد 991-1001 ...... لؤلؤ (حارس سعيد الدولة) (المملوك) مارس السلطة الفعلية بعد 1001، الحاكم الأوحد 1004-1009
    - منصور 1009-1015، خلفه الفاطميون
    - 4- أبو الحسن علي 1001-1004
    - 5- أبو المعالي شريف 1004
  - فرع الموصل
    - 1- ناصر الدولة الحسن 929-969
    - 2- عُدّة الدولة أبو تغلب الغضنفر 969-979
    - الفترة البويهية 979-981
    - 3- أبو طاهر إبراهيم 981-990
    - 3- أبو عبد الله الحسين 981-؟
    - حكم مشترك قطع وتبعه احتلال البويهيين للموصل
    - أبو علي الحسن
    - ناصر الدولة الحسين (قائد فاطمي، استولى على السلطة في مصر) (1070-1073)
- الحسين (قائد عباسي)

(يرمز الخط المتقطع في هذا المخطط إلى علاقة سيّد – عبد)

إنّ سماح الإخشيديّين بعودة سيف الدولة إلى شماليّ بلاد الشام سنة 945، ومن جديد سنة 947، له مغزاه. كانت بلاد الشام بالنسبة إلى الإخشيديّين مقاطعة اضطراب. في حين كان من الضروري إحكام سيطرتهم على دمشق وفلسطين لضمان أمنهم في مصر، إلّا أنّ السيطرة على المناطق الشمالية على المدى الطويل لم تكن تستحقّ الجهد والتكاليف الّتي تتطلّبها، فكان يلائمهم ترك هذه المناطق لسيف الدولة بعد إثبات تفوّقهم العسكري بشكلٍ قاطع. واستتباب نوع من النظام شماليّ بلاد الشام، تحت سيطرة حاكم قوي تعلّم أن يعرف حدوده، وفّر على الإخشيديّين إبقاء جيوش ضخمة خارج مصر. وأصبح بإمكانهم الآن التركيز على الدفاع عن حدودهم الغربية، الّتي كان يهدّدها الفاطميون من تونس تهديدًا خطيرًا. فحامياتهم في بلاد الشام الوسطى والجنوبية كانت تكفي لفرض الحدّ الأدنى من الأمن هناك.

وبينما استمرّ الإخشيديون في فلسطين ودمشق، أصبح سيف الدولة في حلب مؤسّس أوّل إمارة عربية ناجحة في بلاد الشام منذ أيّام الأمويّين. ووصفه المسعودي، الّذي كتب في ذلك الوقت، بأنّه «حاكم جند حمص وجند قنّسرين وديار مُضَر وديار بكر والثغور الشامية والجُزُرية»[24]. وكانت المناطق المذكورة تشمل بلاد ما بين النهرَين العليا وشماليّ بلاد الشام، بالإضافة إلى قيليقيا؛ وكانت تمتدّ من جبال طوروس في الشمال إلى مرتفعات تدمر في الجنوب، ومن

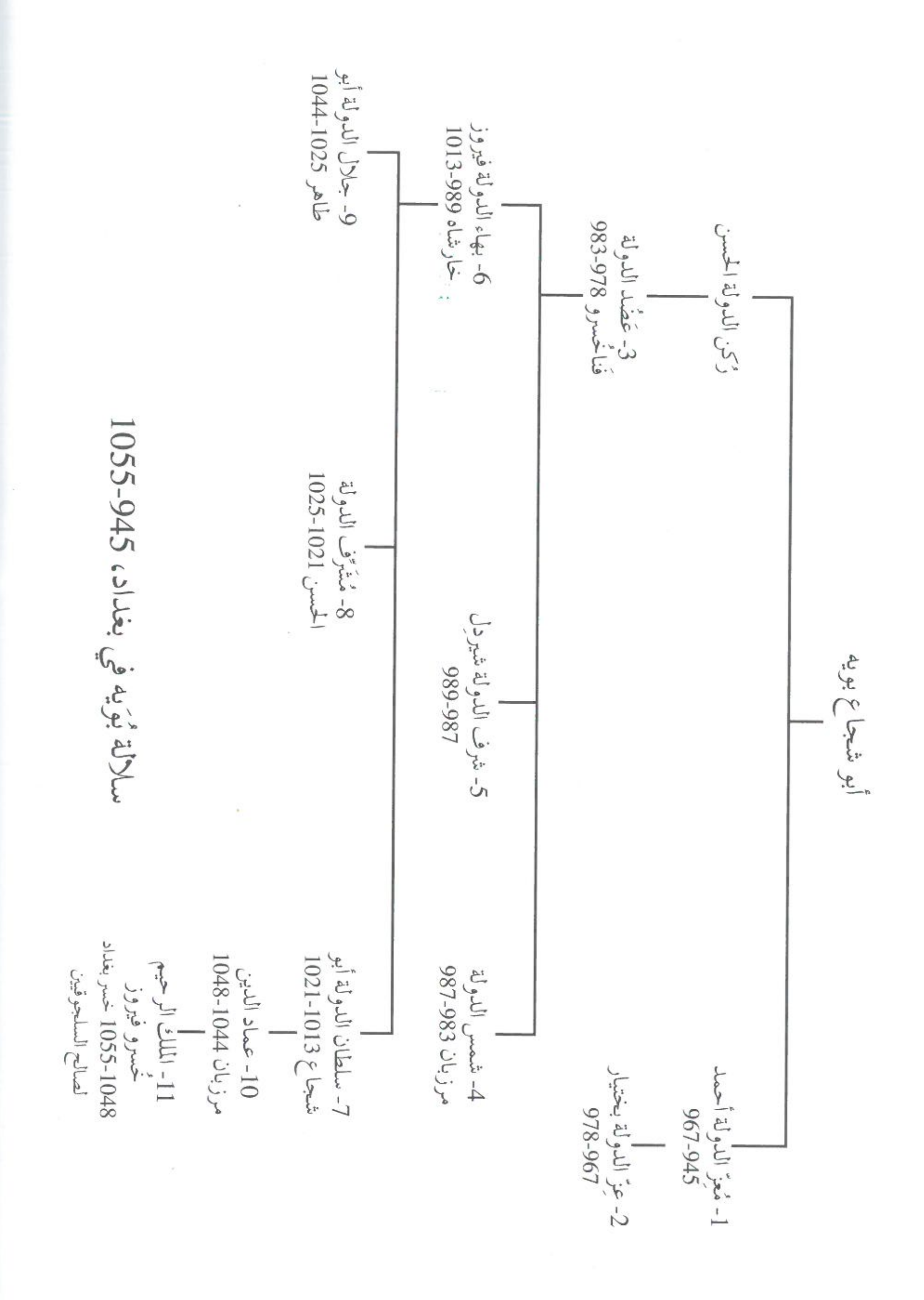
24- المسعودي، **المصدر نفسه**، ص. 194. ديار مُضر، ديار بكر والجزيرة تضمّ منطقة بلاد ما بين النهرَين العليا، بين الفرات، ورافده الشرقي الخابور، وأطراف دجلة الشمالية.

نهر الخابور، أحد روافد الفرات، في الشرق إلى البحر المتوسّط في الغرب. في هذه المناطق، فرض سيف الدولة حكمه بالتفاهم مع القبائل المحلّية – ومعظمهم من بني كلاب في شمالي بلاد الشام وبني عُقَيل في بلاد ما بين النهرَين العليا – ومع العديدين من الشيوخ المحلّيّين، الّذين كانوا يسيطرون على المدن القصيّة. وبين هؤلاء كان شيوخ سلالة الفُصَيْص المقيمون في مدينة اللاذقية، في جند حمص. وعندما عُقدت تكتّلات قبَلية لمقاومة سيف الدولة، جمع قوّة وهاجمهم وأخضعهم. وفي إحدى قصائده، احتفل الشاعر المتنبّي (915-965)، الّذي مكث في بلاط سيف الدولة من 948 إلى 957، بنصر أحرزته القوّات الحمدانية على تحالف مهول من القبائل العربية بين السلمية والرقّة[25]. وفي البيت الثالث من هذه القصيدة المنشدة يوجز المتنبّي ميزات حكم سيف الدولة:

«وأخْذٌ للحواضر والبوادي بضبْطٍ لم تُعَوّدْهُ نِزارُ.»

كان حكم سيف الدولة، بصورة رسمية، يستند إلى براءة تعيين من الخليفة العبّاسي في بغداد. في هذا الصدد لم يكن يختلف عن حكم الضبّاط الأتراك أو الزعماء الفرس الّذين كانوا يُقيمون إمارات سلالية في ذلك العهد، في أقاليم أخرى من الممتلكات العبّاسية السابقة، من بلاد ما وراء النهر [آمودريا] شرقًا إلى مصر غربًا.

25- المتنبّي، **ديوان**، تحرير عبد الرحمن البرقوقي (القاهرة، 1938)، II، ص. 243-60.



وكانت إمارته تختلف عن سائر الإمارات بشكل أساسي لكونها عربية، وواعية لذلك. كانت الإمارة الحمدانية في حلب تمثّل، إلى حدّ ما، انبعاثًا سياسيًّا للعروبة ضمن إطار الخلافة العبّاسية المتقهقرة. كانت حركة القرامطة أيضًا تعكس هذا الانبعاث السياسي العربي؛ ولكن بينما كان القرامطة يسعون إلى تدمير النظام العبّاسي القائم، ظلّ سيف الدولة محترمًا هذا النظام. ومع أنّه كان شيعيًّا اثني عشريًّا ملتزمًا، فقد قبل بسلطة الخلفاء العبّاسيّين السنّيّين دون جدال، وحافظ على الشريعة السنّية في إمارته، مُعيّنًا مشرّعين وقضاةً سنّيّين لرئاسة القضاء في حلب[26]. وقاوم فوضى القرامطة بالقدر الّذي قاوم فيه ادّعاءات الخلافة الفاطمية – المنافس الصاعد للخلافة العبّاسية – على السيطرة الشاملة على الإسلام. وكان الإثنا عشريون، مثل السنّة، يعتبرون الفاطميّين مغتصِبين، ويعتبرون ادّعاءاتهم التحدّر من الخليفة عليّ ومن النبيّ قصصًا خيالية. إلّا أنّه، بينما كان السنّة يعتبرون الخلافة العبّاسية شرعية، كان الإثنا عشريّون يرضون بها «لعدم وجود غيرها». فبغياب إمامهم الثاني عشر في أواخر القرن التاسع، لم يكن لهم مرشّح علويّ جاهز للخلافة؛ وعليه، لم يكن لهم من عذر لعدم منح الخليفة العبّاسي اعترافًا «فاترًا» بانتظار عودة الإمام الثاني عشر، المهدي المنتظر.

في الواقع، عند قيام الإمارة الحمدانية في حلب، كانت الخلافة العبّاسية في بغداد قد خضعت لسطوة سلالة شيعية اثني

26- راجع ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص 131-2.

عشرية أخرى – البويهيّين الفرس. بين 932 و936، كان الأولاد الثلاثة لزعيم فارسي من منطقة الدّيلم (جنوبيّ بحر قزوين) كنيته أبو شجاع بوَيه، وبالتعاون الوثيق معًا، أقاموا لأنفسهم ثلاث إمارات تسيطر على كلّ امتداد أجزاء بلاد فارس الغربية المتاخمة للعراق. وسنة 946، دخل بغداد أحدُ الإخوة الثلاثة، مُعِزّ الدولة أحمد، وهو من كرمان، وضمّ معظم العراق إلى إمارته، ونصّب نفسه «أمير الأمراء» مكان آخر قائد تركي للجيش. وظلّت الخلافة العبّاسية تحت حماية البوَيهيّين للسنوات المئة والتسع التالية. وكما فعل الحمدانيون، كان البويهيون يحترمون سنّة الخلافة؛ ولم يكن باستطاعتهم التصرّف بطريقة أُخرى، إذ إنّ طبقات الموظّفين في المملكة كانوا في أكثريتهم الطاغية من السنّيّين[27]. إلّا أنّ البويهيّين كانوا يختلفون عن الحمدانيّين العرب بأنّهم فرس. ومع أنّهم كانوا يسيطرون على العاصمة العبّاسية، كان الحمدانيون يتمتّعون بولاء أكبر بين رعايا الخليفة العرب.

بالفعل، كان الحكم العربي الّذي أقامه سيف الدولة في شماليّ بلاد الشام يتمتّع بشعبية لم يسبق لها مثيل منذ أيّام الأمويّين. وكان بلاطه في حلب يجتذب الشعراء والعلماء والأدباء من كلّ صوب، وأصبح مركز نهضة ثقافية عربية. فتحت الحكم العبّاسي، كان العرب قد أُنزلوا إلى رتبة ثانوية منذ مدّة طويلة، بسبب النفوذ السياسي المتنامي للمماليك الأتراك، ولطبقة الموظّفين، الفرس في

27- Sir Hamilton Gibb, "The caliphate and the Arab states", in **A History of the Crusades**, edited by Kenneth M. Stetton, I, pp. 86-7.

معظمهم. وبروز الحمدانيّين في الموصل أعاد للعرب شعورهم بأهمّيتهم، وكان ذلك أوضح في حلب، حيث برز بلاط سيف الدولة، الّذي كان يضاهي بلاطَي البويهيّين والعبّاسيّين في تألّقه، كرمزٍ للعزّ العربي المنبعث. إلّا أنّ فخامة حكم سيف الدولة كانت باهظة الثمن. فقد كان على الأمير (كما كان يُسمّى من العموم)، ليؤمّن نفقات بلاطه وجيشه، أن يلجأ إلى الانتزاع والمصادرة، ما صعب على رعاياه تحمّله. كما أنّ معاصريه كانوا يعرفون نقائصه الشخصية، بالرغم من شعبيّته الّتي لا شكّ فيها:

> «كان معجبًا برأيه، محبًّا للفخر والبذخ، مفرطًا في السخاء والكرم، شديد الاحتمال لمناظريه، والعجب بآرائه، سعيدًا مظفّرًا في حروبه، جائرًا على رعيّته، اشتدّ بكاء الناس عليه ومنه.»[28]

شجاعة الأمير هذه في الحرب كان يقابلها هَوَسه بصحّته. «ذكر المؤرّخون أنّه كان يقف على مائدة سيف الدولة أربعة وعشرون طبيبًا لينصحوا له بتناول ما ينفع مزاجه.»[29]

* * *

وعندما تولّى سيف الدولة القيام بإحدى المهامّ الرئيسية للخلافة

28- ذكرها محمّد كرد علي، **المصدر نفسه**، I، ص. 193-4.
29- **المصدر نفسه**، I، ص. 195.

العبّاسية السقيمة، ألا وهي محاربة الكفّار، فعل ذلك جزئيًّا لتعزيز صورته كقائد مسلم، وكذلك لإشغال القبائل العربية في أراضيه بطريقة مفيدة. فمنذ العام 867، دخلت الإمبراطورية البيزنطية فترة من الانتعاش الملحوظ. تحت حكم أباطرة سلالة المقدونيّين و«المغتصِبين المتألّقين»[30] الّذين أشركوهم في السلطة أحيانًا، تمكّن البيزنطيّون، في أواسط القرن العاشر، من ترميم تحصيناتهم وتقوية حامياتهم على طول حدود الأناضول، وقاموا حتّى بغزوات موقّتة إلى داخل الأراضي الإسلامية. واجه سيف الدولة هذا التحدّي البيزنطي حالما ركّز وضعه في حلب. وفي سلسلة من الحملات بدأها عام 948، قطع جبال طوروس وقاد مجنّديه العرب إلى أعماق الأناضول، هازمًا البيزنطيّين في مواجهات متتالية. وكانت مبادرته العسكرية هذه مصدر إلهام لرعاياه، وتغنّى بمآثره المتنبّي وغيره من الشعراء المعاصرين الّذين رأوا في الأمير مثال البطل العربي. فللمرّة الأولى منذ أكثر من مئة سنة، كان العرب رأس حربة الإسلام بدلًا من المماليك الأتراك – وهو أمر عوّض على العرب، جزئيًّا على الأقلّ، السيطرة الفارسية الجديدة في بغداد.

إلّا أنّ غارات سيف الدولة ضدّ البيزنطيّين لم تُسفر عن أيّة فتوحات دائمة؛ بل إنّها استجرّت ردّة فعل بيزنطية شرسة لم يكن الحمدانيون ندًّا لها. وفي العام 958، عرفت قوّات سيف الدولة هزائمها الأولى على يد البيزنطيّين؛ وبحلول العام 960، كان خطّ

30- رومانوس لكابينوس (919-944)، نقفورس فوكاس (الدمستق) (963-969)، يانس ابن الشمشقيق (969-976).

التحصينات الحمداني قد خُرِق في أمكنة متعدّدة من قيليقيا إلى دجلة. في العام 962، تقدّم جيش بيزنطي يرأسه قائدان مميّزان، نقفورس فوكاس وابن أخته يانس ابن الشمشقيق، جنوبًا حتّى حلب وتمكّنوا من احتلال عاصمة الحمدانيّين موقّتًا ونهبها.

«ولم يشعر سيف الدولة بخبرهم، حتّى قربوا منه. (...) واتّصل خبره بسيف الدولة فعلم أنّه لا يطيقه مع بُعد جمهور العسكر عنه، فخرج إلى ظاهر حلب وَجمَعَ الحلبيّين وقال لهم: «عساكر الروم تصل اليوم، وعسكري قد خالفها؛ والصواب أن تغلقوا أبواب المدينة، وتحفظوها؛ وأمضي أنا ألتقي عسكري، وأعود إليكم (...)».

فأبى عامّة الحلبيّين وغوغاؤهم، وقالوا: «لا تحرمنا أيّها الأمير، الجهاد؛ وقد كان فينا من يعجز عن المسير إلى بلد الروم للغزو، وقد قربت علينا المسافة». فلما رأى امتناعهم عليه، قال لهم: «اثبتوا فإنّي معكم».

(...) ووردت عساكر الروم إلى الهزّازة، فالتقوا فانهزم الحلبيون، وقُتل وأُسِر منهم جماعة كثيرة. (...) فانهزم [سيف الدولة] مشرقًا حتّى بعد عن حلب. ثمّ انحرف إلى قنّسرين فبات بها.

وأقام الروم على ظاهر البلدة أربعة أيّام محاصرين لها، فخرج شيوخُ حلب إلى نقفور يسألونه أن يهب لهم البلد، فقال لهم: «تُسلّمون إليّ ابنَ حمدان»[31]. فحلفوا أنّ ابن حمدان ما هو في البلد. فلمّا علم أنّ سيف الدولة غائب عنها طمع فيها وحاصرها.

(...) وقيل: إنّ أهل حلب قاتلوا من وراء السور، (...) فمضى رجالة الشرط وعوامّ الناس إلى منازل الناس، وخانات التجّار، لينهبوها. فاشتغل شيوخ البلد عن حفظ السور، ولحقوا منازلهم. فرأى الروم السور خاليًا فتجاسروا، ونصبوا السلالم

31- أي سيف الدولة.

(...) ودخلوا المدينة (...) في السّحر.

وأخذ الدمستق منها خلقًا من النساء والأطفال؛ وقتل معظم الرجال، ولم يسلم منه إلّا من اعتصم بالقلعة من العلويين، والهاشميين[32]، والكُتّاب، وأرباب الأموال. ولم يكن على القلعة يومئذ سورٌ عامرٌ فإنّها كانت قد تهدّمت، وبقي رسومها. فجعل المسلمون الأُكُف والبراذع بين أيديهم.

(...) وأقام نقفور بحلب ثمانية أيّام ينهب، ويقتل، ويسبي باطنًا وظاهرًا. وقيل: إنّه أخرب القصر الّذي أنشأه سيف الدولة بالحلبة، وتناهى في حسنه، وعمل له أسوارًا، وأجرى نهر قويق فيه (...) حتّى يدخل في القصر من جانب، ويخرج من آخر، (...) وبنى حوله اصطبلًا ومساكن لحاشيته.

(...) ثمّ إنّ نقفور (...) خرج من [حلب] سائرًا إلى القسطنطينية.»[33]

وظلّ سيف الدولة لبقيّة فترة حكمه يبذل باستمرار جهودًا يائسة لصدّ غزوات بيزنطية أخرى إلى داخل أراضيه. في هذه الأثناء، كانت المشاكل تأتيه من جهات أخرى. ففي العام 965، قام عربي من عُقَيل اسمه مروان – وهو قرمطي كان في السابق قد عقد صلحًا مع سيف الدولة، وكان قد عُهد إليه بقيادة عسكرية في المنطقة الساحلية – واغتنم فرصة غياب الأمير في إحدى الحملات ليثور. احتلّ حمص ومدنًا أُخرى وتقدّم إلى حلب، واستولى عليها بحجّة أنّه يحفظها لسيف الدولة. ولكنّ وفاته بعد ذلك بزمن يسير من جرّاء جرح قديم وضع حدًّا مفاجئًا لثورته. في هذه الأثناء،

32- تعبير يُطلق عادةً على أعضاء السلالة العبّاسية لتمييزهم عن العلويّين، أي المنتمين إلى سلالة عليّ.

33- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 133-9.

قام المدعوّ الحسن بن الأهْوازي، الّذي كان مسؤولًا عن قيادة ثغر طرسوس في قيليقيا من قِبل سيف الدولة، بثورة هناك. وعندما احتلّ البيزنطيون طرسوس عام 965، تبنّى قضيّتهم وهبّ إلى احتلال أنطاكية من قبلهم بالتحالف مع رجل آخر من طرسوس اسمه رشيق النسيمي. ولم تُقمَع ثورة ابن الأهوازي والنسيمي حتّى السنة التالية، عندما استُرجعت أنطاكية. إلّا أنّه، في ذلك الوقت، كان سيف الدولة قد أُصيب بسكتة شلّت جانبه الأيسر. وكانت وفاته بعد ذلك بزمن يسير، في 10 صفر 356 (25 كانون الثاني / يناير 967)[34].

* * *

أصبحت بلاد الشام فريسة سهلة لبيزنطية بعد وفاة سيف الدولة والانحطاط السريع للسلطة الحمدانية في حلب تحت حكم خلفائه. «وصارت وقعاته للروم والنصارى كالنزهة والأعياد. وحكم في البلاد حكم ملوك الروم»[35]. فسيف الدولة لم يخلّف وراءه دولة منظّمة قادرة على الصمود أمام الضغط البيزنطي الجديد. عند وفاته، خلَفه في حلب ابنه سعد الدولة شريف. إلّا أنّ خليفته في حمص كان ابن عمّه وصهره، الشاعر المحارب أبا فراس الحارث[36]. وكان أبو فراس قد أبلى البلاء الحسن من الناحية العسكرية أيّام سيف

34- **المصدر نفسه**، I، ص. 147-51.

35- **المصدر نفسه**، I، ص 144.

36- **المصدر نفسه**، I، ص 156-7.

الدولة؛ وكشاعر ملهَم، (ما زال شعره يُنشد في العالم العربي حتّى اليوم) كان أحد مفاخر بلاط قريبه سيف الدولة[37]. من ناحية أخرى، يبدو أنّه كان بطبيعته طمّاعًا إلى حدّ ما، وميّالًا بشكل واضح إلى حياكة المؤامرات، كما كان متكبّرًا ومتهوّرًا، يحسد الآخرين على إنجازاتهم. وفي البلاط، كان يستاء من الحظوة الّتي كانت لمنافسه الأدبي الرئيسي، الشاعر المتنبّي، لدى سيف الدولة، وكان يحاول جهده تشويه صورته.

لو اختار أبو فراس مؤازرة سعد الدولة في خلافته لإمارة حلب، فلربّما استمرّ حكم حمداني قوي على شمالّي بلاد الشام لجيل آخر. إلّا أنّ أبا فراس اختار الطموح الشخصي. وعندما ركّز نفسه كحاكم مستقلّ في حمص، زحف عليه سعد الدولة بجيش من بني كلاب وسواهم من العرب وتمكّن من إزاحته من المدينة. وفرّ إلى الصحراء، فلحق به المملوك التركي قَرْغُوَيه – حاجب سيف الدولة سابقًا، والّذي أصبح المساعد الرئيسي لسعد الدولة. فانهزم أبو فراس في المعركة وقُتل. وبوفاته، زال من الساحة الأمير الحمداني الوحيد ذو بعض الشأن السياسي أو العسكري في شمالّي بلاد الشام.

وبعد فترة غير طويلة من وفاة أبي فراس، استولى المملوك قَرْغُوَيه على السلطة في حلب، يعاونه مملوكه بكجور[38]. عندها انكفأ سعد الدولة إلى ميّافارِقين في بلاد ما بين النهرَين العليا؛ وخلّف وراءه أحد

37- فيما يتعلّق بسيرته عامّة، راجع «Abu Firas» في **Encyclopaedia of Islam, 2**.
38- عندما كان مملوك يُعتَق شرعيًّا (كما كان يحدث عادةً عند تعيين مملوك في وظيفة عامّة)، كان باستطاعته أن يشتري مماليك خاصّين به، مع أنّه كان يُنتظر منه أن يحتفظ بالولاء لسيّده السابق.

مماليكه، زُهيرًا، حاكمًا على معرّة النعمان، جنوبًا من حلب. خاض زهير حربًا من قِبل سعد الدولة ضدّ المماليك المغتصِبين السلطة في حلب. فلمّا شعر هؤلاء أنّهم مهدّدون، طلبوا النجدة من البيزنطيين.

وكان نقفورس فوكاس، الّذي أصبح إمبراطور بيزنطية في هذا الوقت، قد اغتنم فرصة الفوضى الّتي سادت إثر وفاة سيف الدولة ليُقيم موطئ قدم له في شمالي بلاد الشام. وفي العام 968، قاد جيوشه إلى الداخل لنهب معرّة النعمان، ومعرّة مِصرين، وكَفَرطاب، وشَيزر، وحماه، وحمص، ثمّ استدار ناحية الساحل لنهب طرابلس وجَبَلة (الواقعة إلى الجنوب من اللاذقية مباشرة)، وعدد كبير من القرى. وكان شيخ اللاذقية، علي الفُصَيص، قد توصّل إلى تفاهم معه وعُيِّن قائدًا للمدينة من قِبَله. وكان من المتوقّع أن يُهاجم نقفورس فوكاس مدينة أنطاكية بعد ذلك، ثمّ أن يتوجّه إلى حلب:

«ملك الروم لمّا نزل ببوقا [قرب أنطاكية]، ومعه السبي والغنائم، (...) توافق هو وأهلها، وكانوا نصارى، في أن ينتقلوا إلى أنطاكية، ويُظهروا أنّهم إنّما انتقلوا خوفًا من الروم، حتّى إذا حصلوا بها، وصار الروم إلى أنطاكية، وافقوهم على فتحها.»[39]

وفي هذا الوقت أرسل قَرْغُوَيه إلى حلب يطلب النجدة من البيزنطيين:

39- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 162.

«فسار نحوه [البيزنطيون] ثمّ [عدلوا] إلى أنطاكية (...) [وكان] نصارى أنطاكية [قد] كاتبوا الطربازي [أحد قادة البيزنطيّين] حين خرج بأنّ أنطاكية خالية، وليس بها سلطان. (...) فجاء الروم إليها مع الطربازي ويانس بن شمشقيق، في أربعين ألفًا. فأحاطوا بأنطاكية؛ وأهل بوقا على أعلى السور في جانب منه، فنزلوا وأخلوا السور، فصعده الروم وملكوا البلد، وذلك لثلاث عشرة ليلة خلَت من ذي الحجّة من سنة ثمان وخمسين [28 تشرين الأوّل / أكتوبر 969].»[40]

بعد الاستيلاء على أنطاكية، كان البيزنطيّون على استعداد للزحف لنجدة قرغُويه وبكجور اللذَين كان يحاصرهما سعد الدولة وحلفاؤه في حلب في هذا الوقت. ولدى اقترابهم، فرّ سعد الدولة إلى معرّة النعمان. إلّا أنّ البيزنطيّين قرّروا ألّا يتركوا حلب دون الاستيلاء عليها، فدخلتها قوّاتهم وحاصرت القلعة، واضطرّ قُرغويه إلى قبول شروطهم للسلام قبل أن يوافقوا على الانسحاب:

«فهادنهم قرغُويه على حمل الجزية، عن كلّ صغير وكبير من سكّان المواضع الّتي وقعت الهُدنة عليها، دينار، (...) وأن يحمل إليهم، في كلّ سنة عن البلاد الّتي وقعت الهُدنة عليها سبعمائة ألف درهم.

(...) وشرطوا أنّ الأمير على المسلمين قرغُويه؛ والأمر بعده لبكُجور؛ وبَعْدَهُما ينصب ملك الروم أميرًا يختاره من سكّان حلب. وليس للمسلمين أن ينصبوا أحدًا، ولا يؤخذ من نصرانيّ جزية في هذه الأعمال، إلّا إذا كان له بها مسكن أو ضيعة.

وإن ورد عسكر إسلاميّ يريد غزو الروم منعه قرغُوَيه، وقال له: «امضِ من غير بلادنا، ولا تدخل بلد الهُدنة».

40- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 161-2.

وإن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلد الإسلام، تلقّاه بكجور إلى المكان الّذي يومر بتلقّيه إليه؛ وأن يشيّعه في أعمال الهدنة.

(...) وإن غزا الروم غير ملّة الإسلام، سار إليه الأمير بعسكره وغَزَوا معه كما يأمر.

وأيّ مسلم دخل في دين النصرانيّة فلا سبيل للمسلمين عليه؛ ومن دخل من النّصارى في ملّة الإسلام فلا سبيل للرّوم عليه.

(...) ولا يخرّب المسلمون حصنًا؛ ولا يحدثوا حصنًا؛ فإن خرب شيء أعادُوه. (...)

وللرّوم أن يعمّروا الكنائس الخربة في هذه الأعمال؛ ويُسافر البطارقة والأساقفة إليها، ويكرمهم المسلمون.

(...) ومتى جاءت قافلة من الروم، تقصد حلب، يقيها الأمير ويوصلها إلى حلب. وإن قُطع الطريق عليها بعد ذلك، فعلى الأمير أن يعطيهم ما ذهب.»[41]

هذه المعاهدة بين قَرْغُوَيه والبيزنطيين جعلت من إمارة الحمدانيين في حلب محمية بيزنطية في تلك الفترة. إلّا أنّها لم تبقَ سارية المفعول لمدّة طويلة. فالأمير سعد الدولة، الّذي تمكّن من تثبيت سلطته في معرّة النعمان، رفض أن يعترف بها. وفي العام 977، وبعد العديد من الحروب والمؤامرات، عاد إلى حلب وبقي في الحكم وخلفاؤه من بعده حتّى العام 1015. لكنّ حكم سعد الدولة في شماليّ بلاد الشام لم يكن لامعًا على الإطلاق، ولا كان خلفاؤه أفضل منه حالًا. فاستيلاء البيزنطيّين على أنطاكية عام 969

41- **المصدر نفسه**، I، ص. 163-8.

كان قد فتح الطريق إلى بلاد الشام. فدخل البيزنطيون، تحت إمرة الإمبراطور يانس ابن الشمشقيق (969-976) الّذي خلف عمّه نقفورس فوكاس كإمبراطور فعلي، إلى بلاد الشام بجيوش قوية، واحتلّوا مدنًا عديدة، بما فيها دمشق، وكادوا أن يصلوا إلى القدس. ولكنّهم في هذا الوقت لم يحتفظوا بشيء من فتوحاتهم أبعد من أنطاكية؛ ولكنّ بلاد الشام بقيت تحت رحمتهم طيلة وجودهم في أنطاكية.

* * *

كانت السنوات العشرون من حكم سيف الدولة فترة قصيرة من المجد في تاريخ بلاد الشام الحمداني، تبعها الضعف والفوضى. خلال حياة الأمير الناشطة، استمرّت إمارته بالرغم من القبَلية المتفشّية فيها والهزائم الّتي أنزلها به البيزنطيون في سنواته الأخيرة. فضلًا عن ذلك، برزت عاصمة الأمير، حلب، كالمدينة الرئيسة في شماليّ بلاد الشام. ومع أنّ حلب لم تكن كبيرة مثل حمص، إلّا أنّها لفتت الانتباه بازدهارها في ذلك الوقت:

«في أهلها ظرف ولهم يسار وعقول مبنيّ بالحجارة عامر في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان والجامع في البلد شربهم من نهر قويق يدخل إلى البلد إلى دار سيف الدولة في شبّاك حديد والقصبة ليست كبيرة إلّا أنّ بها

مستقرّ السلطان (...) وقنّسرين مدينة قد خفّ أهلها (...) فإن قال قائل لما جُعلت قصبة الكورة [جند قنّسرين] حلب و ها هنا مدينة على اسمها قيل له قد قلنا إنّ مثل القصبات كالقوّاد والمدن كالجند ولا يجوز أن نجعل حلب على جلالتها (...) وأنطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها جنادًا لمدينة خربة صغيرة (...).» [42]

إلّا أنّ سيف الدولة لم ينجح في وضع حدّ لخراب الأرياف المجاورة. فبينما كان مسيطرًا على شماليّ بلاد الشام بفضل قوّة شخصيّته وفخامة بلاطه خاصّة، فشل في إنشاء إدارة مركزية لها القدرة على حماية الأجزاء القاصية من إمارته. في حلب، كان يسيّر شؤون حكومته وزراء جشعون، وكان يدير أمور القضاء في المحاكم قضاة همّهم إرضاء الحاكم أكثر من تطبيق القانون. وخارج حلب، تُركت بعض البلدات والمناطق في أيدي شيوخ محلّيّين تصرّفوا على هواهم، بينما أُقطع غيرها لبعض أقرباء الأمير الطموحين، أو لزعماء قبائل، أو لذَوي الحظوة، أو لمماليك أتراك. وقد كتب الجغرافيّ المقدَّسي، بعد وفاة سيف الدولة بزمن قليل، واصفًا قنَّسرين بأنّها مدينة خربة[43]. وحمص، كما قال، كانت أكبر مدن بلاد الشام، ولكنّ الأرياف المضطربة حولها متداعية إلى الخراب. فلكي يظلّ سيف الدولة قويًّا، كان عليه أن يمالق قبائل الصحراء العربية الطمّاعة، وهي سياسة لم تكن لتؤدّي إلى ازدهار الزراعة. وبعد وفاته، أدّت غارات البيزنطيّين المتكرّرة إلى خراب أكبر للأرياف.

* * *

42- المُقدَّسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، (لَيدن، 1906)، ص. 155-6.
43- **المصدر نفسه**، ص. 156.

وفي حين كان سيف الدولة حاكمًا في شماليّ بلاد الشام، بقيت بلاد الشام الوسطى والجنوبية في أيدي الخصيّ الأسود كافور، حاكم مصر باسم السلالة الإخشيدية. والإخشيديون، خلافًا للبويهيّين في بغداد والحمدانيّين في حلب، كانوا من السنّة. وبصفتهم أسياد مصر والأجزاء الجنوبية من بلاد الشام والحجاز، كانوا مسؤولين عن الدفاع عن السيادة العبّاسية في هذه الأرجاء ضدّ الفاطميّين في الغرب والقرامطة في الشرق. وكان كافور على مستوى المسؤولية، فأبقيَ الفاطميون خارج مصر خلال مدّة حكمه، كما دُفعت جزية للقرامطة في الأحساء بانتظام ليتمنّعوا عن إثارة القلاقل في بلاد الشام. وقد ترتبط إعادة الحجر الأسود إلى مسجد الكعبة في مكّة عام 951[45] بالسلام الّذي أُقيم بين كافور والقرامطة. على أيّ حال، لم يكن لكافور مشاكل مع القرامطة في بلاد الشام. إلّا أنّه في العام 963، ثارت القبائل العربية في بلاد الشراة بقيادة زعيم اسمه محمّد السُلَمي، الّذي لم يكن شيعيًّا بل من الخوارج. هذا الظهور المفاجئ في بلاد الشام الجنوبية لبدعة كادت أن تُنسى في قلب أراضي الإسلام يحتاج إلى تفسير.

ظاهرة الخوارج، الّتي قمعها الأمويون أوّلًا في العراق وبلاد فارس، ثم العبّاسيون بفاعلية أكبر، كانت قد امّحت من هذه المناطق في العقود الأخيرة من القرن التاسع. إلّا أنّها وجدت أرضًا خصبة في مناطق بعيدة عن مركز الخلافة في بغداد – من ناحية بين قبائل البربر

45- ثابت بن سِنان وابن العديم، **تاريخ أخبار القرامطة**، (بيروت، 1971)، ص. 104.

في شمالي إفريقيا، ومن ناحية أخرى بين قبائل أهالي الجبال العُمانية وغيرها من المناطق المنعزلة من جنوبي شبه الجزيرة العربية. وفي حوالى منتصف القرن العاشر، كان خوارج شمالي إفريقيا قد تقهقروا على يد الفاطميّين، كما تقهقر خوارج عُمان على يد القرامطة. في هذه الظروف، حاولت هذه الفرقة، المعادية للفاطميّين والقرامطة الشيعة بقدر عداوتها للعبّاسيّين السنّة، أن تغتنم فرصة الفوضى القبَلية السائدة في بلاد الشراة لتُقيم موطئ قدم جديدًا لها في بلاد الشام. وفي بلاد الشراة، كما أسلفنا، كان عرب لَخْم وجُذام، القديمو العهد، منهمكين بنزاع مع بني طيّ الحديثي القُدوم، والمناصرين للقرامطة. فالظاهر أنّ «الخوارجي» محمّد السُّلَمي سعى إلى إيجاد مناصرين له بين عناصر قبيلتَي لخم وجذام المهدّدين.

ولم يكن بوسع كافور، الّذي اشتدّ قلقه للخطر الفاطمي من الغرب، أن يدع ثورة الخوارج في بلاد الشام الجنوبية تستمرّ طويلًا. مُفضِّلًا المؤامرة على الحرب، خطّط لدفع أحد الزعماء المحلّيّين إلى خيانة محمّد السُلَمي. فقُبض على الثائر وأُرسل إلى مصر، حيث أودع السجن حتّى تفرّق أتباعه في بلاد الشراة[46]. وهكذا قُمعت ثورة الخوارج في بلاد الشام قبل أن يُتاح للبدعة أن تتجذّر في البلاد.

طبعًا، لم تكن مملكة كافور بمنأى عن التطورات الحاصلة في ذلك الوقت في شماليّ بلاد الشام. فالتعدّيات البيزنطية هناك، خلال الحقبة الأخيرة من حكم سيف الدولة، وتعاون العديد

46- محمّد كرد علي، **المصدر نفسه**، I، ص. 186.

من المسيحيّين المحلّيّين مع الغزاة، لم تمرّ دون ترك أصداء في عالم الإخشيديّين. والظاهر أنّ النجاحات العسكرية البيزنطية شجّعت بعض مسيحيّي بلاد الشام – بالتأكيد الملكيّين التابعين للطقس البيزنطي. من ناحية أخرى، لا بدّ أنّها جعلت المسلمين يشعرون بالكثير من عدم الاستقرار. ففي إمارة الحمدانيّين، بالكدّ كان باستطاعة المسلمين الردّ على استفزازات السكّان المسيحيّين بالمثل، نظرًا لقرب البيزنطيّين منهم. أمّا في دولة الإخشيديّين، من ناحية أخرى، فكان ردّ كهذا ممكنًا. في العام 965، عندما رفض بطريرك القدس للملكيّين مقابلة الحاكم الإخشيدي المحلّي، قام جمهور من المسلمين، يقوده الحاكم بذاته، بمهاجمة كنيسة القيامة وكنيسة أخرى هامّة في المدينة، وأحرقوهما، وقتلوا البطريرك خلال ذلك. ويُروى أنّ يهود القدس انضمّوا إلى المسلمين في نهب الكنيستَين[47]. هذا الحدث، الأوّل من نوعه كما يبدو، عكس التوتّر المتصاعد بين المسلمين والمسيحيّين في بلاد الشام في ذلك الوقت. والعدوان المستمرّ للبيزنطيّين ضدّ ممتلكات الحمدانيّين في الشمال لم يترك المجال لهذا التوتّر كي يهمد.

* * *

سجّلت وفاة كافور، في 22 نيسان / أبريل 968، نهاية السيادة

47- يحيى بن سعيد الأنطاكي، **تاريخ** (*Corpus scriptorum christianorum orientalium, Scriptores arabici, VII*)، (لوفان، 1954)، ص. 124-5.

الشكلية للعبّاسيين جنوبيّ مرتفعات تدمر. وأشار اختفاؤه من الساحة إلى بداية تهافت عامّ على السلطة، تدخّلت فيه قوى سياسية من كلّ صوب. ولو كانت الإمارة الحمدانية في حلب في تلك الفترة قوية بما فيه الكفاية، لاستطاعت اغتنام الفرصة لضمّ كلّ بلاد الشام إلى ممتلكاتها بدون صعوبة كبيرة. إلّا أنّ الممتلكات الحمدانية نفسها كانت في الواقع تتعرّض لهجوم وتدمير من جيوش نقفورس فوكاس، بينما كان خلفاء سيف الدولة من الحمدانيّين والمماليك يتقاتلون فيما بينهم.

وبالنسبة للفاطميّين في شماليّ إفريقيا، فإنّ وفاة كافور فتحت لهم الطريق لاجتياح مصر، الّتي احتلّتها بسهولة جيوش الخليفة المُعِزّ (953-975) بقيادة قائده البربري جوهر. وفي سنة 973، وصل المعِزّ ذاته إلى مصر ليُقيم عاصمته في مدينة القاهرة الحديثة البناء. في هذه الأثناء، تحوّلت بلاد الشام الوسطى والجنوبية بسرعة إلى ساحة حرب بين القرامطة، الّذين جدّدوا غزواتهم لها من الشرق، وبين الفاطميّين، الّذين حاولوا اختراقها من الجنوب. فهبّ البويهيون من بغداد، الّذين راعتهم فكرة احتلال الفاطميّين لبلاد الشام، إلى مساندة القرامطة ضدّهم:

«وغلب الحسن بن أحمد [القائد القرمطي] على الشام في ذي الحجّة سنة سبع وخمسين وثلاثمائة [تشرين الأوّل / أكتوبر – تشرين الثاني / نوفمبر 968] وولّى على دمشق وشاحًا السُّلَمي، ثمّ رجع إلى الأَحساء في صفر سنة ثمان وخمسين [كانون

الأوّل / ديسمبر 968 – كانون الثاني / يناير 969] وفي سنة تسع وخمسين [969 - 970] خطب لهم بمكّة. وسار [القرامطة] إلى دمشق في سنة ستّين وثلاثمائة [970 - 971] وقتلوا جعفر بن فلاح [حاكم دمشق الفاطمي] (...)، وكان سبب حركته هذه أن ظالم بن مرهوب العُقَيلي[48] لمّا انهزم من جعفر بن فلاح عن بلاد حوران والبثنية لحق بالأحساء وحثّ القرامطة، فإنّ المال الذي كان يُحمل إليهم من مصر انقطع [أيضًا] (...) فبعثوا العرفاء لجمع العرب وسار الحسن بن أحمد إلى الكوفة فوافاه من استجاب له من العربان، وأُنفذ إلى بغداد يطلب المال فجهز إليه خزانة سلاح وأربعمائة ألف درهم أُحيل بها على أبي تغلب (...) بن حمدان [من الموصل] وهو على الرحبة[49] (...) وتوجّه [الحسن] إلى دمشق وقد صحبه كثير من عسكر أبي تغلب ومن انهزم [طرده الفاطميّون من بلاد الشام] من الإخشيدية، فخرج إليه أبو الفضل جعفر بن فلاح وقاتله، فقتل جعفر، ونزل الحسن يوم الخميس سادس ذي القعدة [29 آب / أغسطس] على المزّة خارج دمشق وجبى من المدينة مالًا كثيرًا، وسار إلى الرملة من دمشق يوم الثلاثاء لإحدى عشرة [ليلة] خلت من ذي القعدة [3 أيلول / سبتمبر] وقد استخلف عليها ظالم بن مرهوب، واجتمع عليه عرب الشام وكثير من الأتباع والأجناد، ونازل يافا (...) ثمّ رحل عنها [وتركها مُحاصَرة] ونزل خارج القاهرة بعين شمس لعشر بقين من صفر سنة إحدى وستّين [11 كانون الأوّل / ديسمبر 971] (...) وقد استعدّ جوهر القائد لحربه، فالتحم القتال في يوم الجمعة أوّل ربيع الأوّل [22 كانون الأوّل / ديسمبر] على باب القاهرة (...) يوم الأحد (...) انهزم الحسن (...) فسار إلى الأحساء، ثمّ عاد من الأحساء ونزل الرملة في سابع رمضان [1 تشرين الأوّل / أكتوبر 972] وطرح مراكب في البحر وملأها بالمقاتلة وأكثر من جمع العربان معه للسير إلى القاهرة (...) [الخليفة الفاطمي] المُعِزّ نزل بالقاهرة في رمضان سنة

48- على ما يبدو شيخ قبيلة مهمّ من عُقَيل، من الصحراء الحدودية لبلاد الشام الوسطى والجنوبية.
49- مركز عسكري في إمارة الموصل الحمدانية، على نهر الفرات.

اثنتين وستّين [حزيران / يونيو – تمّوز / يوليو 973]، فكتب إلى الحسن بن أحمد كتابًا عظيمًا فكتب جوابه، بعد البسملة: وصل إلينا كتابك الّذي كثر تفصيله وقلّ تحصيله ونحن سائرون على أثره والسلام.»[50]

في تلك الفترة، بدت دولة الإخشيديّين المنهارة على وشك أن تُقسم بين الفاطميّين في مصر والقرامطة في بلاد الشام. إلّا أنّه في الواقع، لم يكن القرامطة في وضع يمكّنهم من الصمود أمام الفاطميّين إلى ما لا نهاية له. صحيح أنّه كانت لديهم قاعدة متينة في شرقي شبه الجزيرة العربية، ولكنّ قوّتهم في بلاد الشام كانت تستند إلى دعم عرب طيّ وعُقَيل الّذين كانوا قد برهنوا عن غَدرهم. وفي سنة 971، اغتنم عرب طيّ وعُقيل فرصة اندحار الحسن بن أحمد خارج القاهرة لينهبوا قوافله أثناء انسحابها عبر صحارى مصر والشام إلى شبه الجزيرة العربية. وبعكس القرامطة الفوضويّين، كان الفاطميون يرأسون دولة حسنة التنظيم تقوم قوّتها الضاربة على جيش كبير ثابت من الجنود البربر المتمرّسين؛ وكانت بتصرفّهم موارد إفريقيا الشمالية ومصر الواسعة وخزينة ملأى يمكنهم استخدامها لاستمالة زعماء العرب الّذين كان القرامطة في بلاد الشام يعتمدون على دعمهم. أهمّ هؤلاء الزعماء العرب ظالم بن مرهوب، من عُقيل، الّذي كان يحكم دمشق من قِبَل القرامطة، وزعيمان من طيّ من آل جرّاح – دَغْفَل وحسّان – كانا يساعدان القرامطة في السيطرة على فلسطين. وللحفاظ على ولاء زعماء عرب كهؤلاء، كان القائد

50- ثابت بن سِنان وابن العديم، **المصدر نفسه**، ص. 104-6.

1- عُبيد الله المهدي*
934-909
2- القائم
946-934
3- المنصور
952-946
في قَيْرَوان (تونس)

4- المُعزّ
975-952
5- العزيز
996-975
6- الحاكم
1021-996
7- الظاهر
1036-1021
8- المُستنصر
1094-1036
في القاهرة بعد 973

نزار (الإمام الحقّ بالنسبة إلى الإسماعيليّين النزاريّين)
9- المستعلي
1101-1094

الخلافة الفاطمية حتّى 1097

* راجع سلالة عليّ ص.70.

جرّاح
دَغْفَل
حسّان
مُفرِّج (حاكم الرملة، 977-983، تُوفّي عام 1013)
حسّان (تُوفّي بعد 1041)
ثابت
محمود
عليّ (تُوفّي بعد 1069)
علّان
وَهْب
جعفر
حازم
ربيعة
بدر
أبو عمران الفضل تُوفّي بعد 1107، سلالة ربيعة، زعماء طيّ لاحقًا

سلالة جرّاح
زعماء عرب طيّ في فلسطين
(بإذن من الدكتور مصطفى حياري)

القرمطي الحسن بن أحمد قد أغدق عليهم الثروات المنهوبة من بلاد الشام، والأموال الّتي ابتزّها من البويهيّين. والآن جاء دور الفاطميّين لاستمالتهم عن طريق استغلال فسادهم.

وفي أواخر ربيع عام 974، وصل الحسن بن أحمد مع حلفائه العرب والإخشيديّين إلى مصر الجديدة (هليوبوليس) للمرّة الثانية، لمحاصرة القاهرة:

«وكان حسّان بن جرّاح الطائي بعسكره مع القرمطي وكان قوّته وشدّته به. ونظر المُعزّ في أمره (...) شاور أهل الرأي من خاصّته وجنده في أمره فقالوا: ليس فيه حيلة غير فلّ عسكره وليس يُقدَر على فلّه إلّا بابن جرّاح. فبذلوا له مائة ألف دينار على أن يَفُلَّ لهم عسكره فأجابهم إلى ذلك. ثمّ نظروا في كثرة المال فاستعظموه فضربوا دنانير من صفر وطلوها بالذهب وجعلوها في أكياس وجعلوا في رأس كلّ كيس منها يسيرًا من دنانير الذهب الخلاص وحملوها إلى ثقة ابن جرّاح وقد كانوا توثّقوا منه وعاهدوه على الوفاء وترك الغدر إذا وصل المال إليه. فلمّا عرف وصول المال إليه عمل في فلّ عسكر القرمطي وتقدّم إلى أكثر أصحابه أن يتبعوه إذا تواقف العسكران ونشبت الحرب. فلمّا اشتدّ القتال ولّى ابن جرّاح منهزمًا وتبعه أصحابه فكان في جمع كثيف فلمّا نظر إليه القرمطي قد انهزم في عسكره بعد الاستظهار والقوّة تحيّر في أمره ولزمه الثبات والمحاربة بعسكره وأجهد نفسه في القتال حتّى يتخلّص ولم يكن له بهم طاقة (...) [أخيرًا] انهزم فاتّبع [جيش المُعزّ] أثره وطلبوا معسكره فظفروا بمن فيه وأسروا منه تقدير ألف وخمسماية رجل وانتهبوا سواده وما فيه وضربوا أعناق مَن أسروه وذلك في شهر رمضان سنة 363 [أيّار / مايو – حزيران / يونيو 974].» [51]

51- ابن القلانِسي، **ذيل تاريخ دمشق** (بيروت، 1908)، ص. 3.

وعاد الحسن بن أحمد إلى الأحساء، بعد أن خذله حلفاؤه من بني طيّ وكذلك ظالم بن مرهوب العُقيلي كما يبدو، وهناك انهمك على مدى عامين تقريبًا في حرب ضدّ البويهيين. وكان هؤلاء قد اغتنموا فرصة اندحار قوّات القرامطة في مصر وأرسلوا حملة في محاولة لإخضاع القرامطة في شرقيّ شبه الجزيرة العربية. وفي دمشق، ترك الحسن بن أحمد قوّة من القرامطة بقيادة المدعوّ أبي المُنجّى، مع ابنه، ابن أبي المنجّى - كحاكم للمدينة.

* * *

استطاع الفاطميون تثبيت أوّل موطئ قدم لهم في بلاد الشام إثر الاجتياح القرمطي الفاشل الثاني لمصر. فبعد عودة الحسن بن أحمد إلى الأحساء بوقت قصير، أرسل الخليفة المُعزّ قوّة من البربر بقيادة المدعوّ أبي محمود لاحتلال بلاد الشام الوسطى والجنوبية. وعُيّن الزعيم العُقَيليّ ظالم بن مرهوب حاكمًا فاطميًا على دمشق، وأصبح أحد قادة جيش المُعزّ، ريّان الخادم، حاكمًا على طرابلس. وعُيّن حكّام فاطميون آخرون على مدن أخرى. إلّا أنّ الحكم الفاطميّ الجديد على الأجزاء المحتلّة من بلاد الشام لم يحظَ بأيّة شعبيّة، على الأخصّ في دمشق، حيث كان التشيّع الظاهر للفاطميّين بغيضًا جدًّا للسنّيّين المحبّذين للأمويّين[52]، والّذين كانوا الغالبية الكبرى من

52- المصدر نفسه، ص. 16.

السكّان المسلمين. بالإضافة إلى ذلك، كان تصرّف الجنود البربر الّذين قدموا دمشق مع ظالم بن مرهوب مُهينًا إلى أقصى حدّ. وبما أنّ ما كانوا يتلقّونه من أجور من الحكومة الفاطمية لم يكن كافيًا، راحوا ينهبون المدينة والقرى المحيطة بها في الغوطة، مرتكبين تجاوزات أثارت عداوة ضارية ضدّهم بين الدمشقيّين.

وفيما استمرّ احتلال جيوش البربر لدمشق، كانت المدينة في حالة فوضى تامّة. فبقيادة المدعو المارود، كانت مجموعة من رجال العصابات، يطلَق عليهم اسم «الأحداث»، مسلّحين بالمقاليع والهراوات والحِراب والفؤوس والحجارة، يشتبكون يوميًّا تقريبًا مع البربر البغيضين. كان بعض الأحداث من سكّان دمشق، وبعضهم الآخر فارّين من قرى الغوطة المسلوبة، جاؤوا إلى المدينة لينضمّوا إلى أتباع المارود. وإذ كان الأحداث يهاجمون البربر، كان هؤلاء يردّون بإحراق مناطق من المدينة ونهبها، بينما وقف قائدهم أبو محمود عاجزًا عن التدخّل. وحاول وجهاء دمشق، الواقعون وسط تنازع الأحداث والبربر، إيجاد تسوية مع أبي محمود، ولكن دون جدوى. ولم يمضِ وقت طويل حتّى استُدعي أبو محمود إلى الرملة وحلّ محلّه ريّان الخادم، حاكم طرابلس، حاكمًا على دمشق. لكنّ هذا التغيير في القيادة لم يحسّن الأمور كثيرًا. في هذه الأثناء، في أواخر العام 974، وصل مغامر عسكري تركي اسمه أفتكين[53] إلى دمشق، قادمًا من بغداد على رأس قوّة كبيرة. وكان أفتكين هذا في

53- قد يعني هذا الاسم «الأمير البطل».

الأصل في خدمة البويهيّين العسكرية، واختلف معهم في نهاية الأمر وجاء الآن إلى بلاد الشام سعيًا وراء المغنم:

«والأحداث بها [دمشق] (...) في تملّكها والغلبة عليها والتحكّم فيها فنزل [أفتكين] في ظاهرها وخرج إليه شيوخها وأشرافها وخدموه وأظهروا السرور به وسألوه الإقامة عندهم والنظر في أحوالهم وكفّ الأحداث الّذين بينهم ودفع الأذيّة المتوجّهة عليهم منهم فأجابهم إلى ذلك (...) ودخل البلد وأحسن السيرة وقمع أهل الفساد وأذلّ عصب ذوي العبث والعناد (...). وكانت العرب [القبائل] قد استولت على سواد البلد وما يتّصل به فقصدهم وأوقع بهم وقتل كثيرًا منهم وظهر لهم من شجاعته وشهامته وقوّة نفس من في جهته وجملته ما دعاهم إلى الإذعان بطاعته والنزول على حُكمه والعمل بإشارته وأمر بتقرير إمضاء الإقطاعات القديمة وارتجاع ما سوى ذلك وأحسن التدبير والسياسة في ترتيب العمّال في الأعمال وأنعم النظر في أبواب المال ووجوه الاستغلال فاستقام له الأمر وثبتت قدَمه في الولاية وسكن أهل دمشق إلى نظره.»[54]

وحدث خلال الفترة الفاصلة الوجيزة، ولكن السعيدة، لحكم أفتكين في دمشق أن اجتاح الإمبراطور البيزنطي يانس ابن الشمشقيق بلاد الشام الشمالية وأكمل باتّجاه الجنوب ليحتلّ بعلبك. ولتجنيب دمشق الخراب الّذي سيسبّبه احتلال البيزنطيّين للمدينة، دعا أفتكين ابن الشمشقيقَ ليدخل المدينة بسلام ويقبَل جزية رمزية. سُرّ الإمبراطور البيزنطي بقبول الدعوة، ورحّب به أفتكين خارج

54- **المصدر نفسه**، ص. 11-2.

دمشق، ونزولًا عند طلبه، أظهر له براعته الشخصية في الفروسية. وغادر يانس ابن الشمشقيق دمشق بسلام وتوجّه نحو الساحل الّذي كان ما يزال تحت السيطرة الفاطمية. فقدّم إليه أهل صيدا الطاعة، لذلك ترك مدينتهم دون أن يمسّها. أمّا في بيروت، وجبيل، وطرابلس، فلاقى مقاومة شعبية قوية، فاحتُلّت المدن الثلاث بالقوّة ونُهبت. ثمّ عاد الإمبراطور إلى بيزنطية عن طريق أنطاكية[55]. لم يكن لحمْلته الشامية هذه، كما أشرنا، الأثر الدائم لفتح. بالنسبة إلى أفتكين وأهل دمشق، فقد أتاحت استراحة مرحَّبًا بها لأنّها أجّلت عودة الفاطميّين الفعّالة إلى بلاد الشام[56] — استراحة تزامنت مع وفاة الخليفة المُعزّ في القاهرة وحلول ابنه العزيز (975-996) مكانه.

ما إن غادر البيزنطيّون بلاد الشام حتّى عاد القرامطة – بقيادة الحسن بن أحمد – إلى دمشق سنة 976-977، كحلفاء لأفتكين هذه المرّة. وكان خطر الفاطميّين قد جمع تحالفًا عجيبًا في بلاد الشام، بين «الأمويّين» السنّة في دمشق، بإمرة قائدهم التركي الجديد، وبين أهل البِدَع الفوضويين من الصحراء العربية. واغتنم أفتكين فرصة وصول القرامطة لينتزع صيدا وطبريّا من الفاطميّين، بينما تقدّم القرامطة أنفسهم إلى الرملة ويافا[57]. وبناء على نصيحة وزيره اليهودي يعقوب بن كِلّس، أرسل الخليفة العزيز قائده المحنّك جوهر مع كامل الجيش الفاطمي لمحاربة القرامطة وحلفائهم من

55- **المصدر نفسه**، ص. 12-4.
56- **المصدر نفسه**، ص. 12.
57- **المصدر نفسه**، ص. 15؛ ثابت بن سِنان وابن العديم، **المصدر نفسه**، ص. 65-6.

بلاد الشام. فدُحر الفاطميون في معركة خارج دمشق، وأُجبروا على التراجع من طبريّا والرملة إلى عسقلان. وهنا وصل الخليفة العزيز ليلتحق شخصيًّا بجيشه. عند ذاك رجع الفاطميون إلى الرملة، وخلال القتال الضاري الّذي نشب، سُرّ الخليفة بمشاهدة براعة أفتكين واستبساله في المعركة:

«فقال العزيز لجوهر: أرِني الفتكين. فأشار إليه وقيل إنّه كان في ذلك اليوم على فرس أدهم (...) وهو يطعن تارةً بالرمح ويضرب أُخرى بالسيف والناس يتحامونه ويتّقونه فأعجَب العزيز ما رأى منه ومن هيئته وفروسيته وعلى رأسه المظلّة ووقف وأنفذ إليه ركابيًّا يختصّ بخدمته يُقال له نُمَيرة وقال له: قل: يا الفتكين أنا العزيز وقد أزعجْتني عن سرير ملكي وأخرجْتني لمباشرة الحرب بنفسي وأنا مُسامحك بجميع ذلك وصافِح لك عنه فاترك ما أنت عليه ولُذ بالعفو (...) وأجعلك اسفهسلّار [قائد] عسكري وأهب لك الشام بأسره وأتركه في يدك. فمضى نميرة الركابي إليه وأعاد الرسالة عليه فخرج بحيث يراه الناس وترجّل وقبّل الأرض مرارًا ومرّغ خدّيه عليها معفّرًا وقال له: قل لأمير المؤمنين لو تقدّم هذا القول منك لسارعْتُ إليه وأطعتُ أمرك فأمّا الآن فليس إلّا ما تَرى.»[58]

وأسفرت المعركة في ظاهر الرملة عن نصر باهر للعزيز. فقبض بعض عرب بني طيّ على أفتكين المهزوم وسلّموه إلى الخليفة الفاطمي، الّذي استقبله بإكرام وضمّه إلى خِدمته. أمّا القرامطة، الّذين أُخرجوا من الرملة، فانسحبوا شمالًا إلى طبريّا، مصمّمين

58- ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**، ص. 18.

على مقاتلة الفاطميّين في جولة أخرى. إلّا أنّ العزيز لم يكن يريد أن يجازف بمواجهة ثانية. فعدل عن الحرب ولجأ إلى المفاوضة، وأقنع القرامطة بالانسحاب من بلاد الشام متعهّدًا بالمقابل بأن يقدّم إليهم جزية سنوية مقدارها 30,000 دينار. وهكذا انتهت المنافسة بين الفاطميين والقرامطة على بلاد الشام. وفي أواخر القرن، كانت دولة القرامطة في شرقيّ شبه الجزيرة العربية قد تفكّكت وزالت من الوجود. وبنجاح الخلافة الفاطمية، أصبح الشكل الفوضوي للشيعية الإمامية، الّذي كان يمثّله القرامطة، قضية يائسة، وما لبث أن أصبح منسيًّا حتّى في مناطق منشئه.

إلّا أنّه، كسائر القضايا اليائسة، ظلّ مثالُ القرامطة عن الثورة المستديمة مسألة حيّة، بشكل أو بآخر، في جبال بلاد الشام وتلالها الوعرة. فقد ظلّ يجد هناك أتباعًا له بين أهل العشائر المتشبّثين، الّذين كانوا دائمًا يشعرون بالغبن والإجحاف، وكانوا أبدًا على استعداد للثورة ضدّ أيّ نظام قائم. وبالنسبة لهؤلاء، بين عشائر بلاد الشام، الّذين كانوا يحبّذون الإسماعيلية وغيرها من المذاهب الشيعية «المهدوية»، كانت الإسماعيلية الرسمية المُمَثّلة بالخلفاء الفاطميّين مكروهة مثل السنّية، الّتي كانوا يرون فيها بحقّ دينًا آخر للدولة.

وبسبب معارضة السكّان السنّيّين من ناحية، ومعارضة المسيحيّين والشيعة الإثنَي عشريين والنُّصَيريين، وبقايا القرامطة الفاعلين من ناحية أخرى، وجد الفاطميون، كما الأمويون والعباسيون من قبْلهم، بلاد الشام صعبة الحُكم.

الفصل الرابع
المغامرة الفاطمية
1071 – 977

بحلول أواخر القرن العاشر، استعادت بلاد الشام مرّة أُخرى مكانتها كمركز رئيسيّ للأحداث في العالم الإسلامي. في الشمال، كانت بيزنطية الظافرة تسيطر على المواقع الأمامية الّتي كانت سابقًا في أيادي المسلمين في قيليقيا، بين سلسلتَي جبال طوروس واللكام، وتحتفظ بموطئ قدم قويّ في بلاد الشام نفسها، في أنطاكية. من هناك، بسط البيزنطيون، تحت حكم الإمبراطور يانس ابن الشمشقيق، سيطرتهم على إمارة الحمدانيّين في حلب (كما لو كانت محمية)؛ ومع أنّ وفاة ابن الشمشقيق المفاجئة سنة 976 تبعها انحطاط هذه «الحماية»، ظلّت ممتلكات الحمدانيّين في بلاد الشام الشمالية بقعة تركّز عليها التوسّع البيزنطي. أمّا في الجنوب، فكان لفاطميّي مصر مركز أمامي ساحلي في عسقلان، ومن هناك حاولوا مدّ سيطرتهم أبعد داخل فلسطين. كما كانوا يتحكّمون بمدن الساحل الفينيقي من عكّا إلى طرابلس. كانت محاولتهم الأولى لتوطيد مكانتهم في دمشق قد فشلت؛ إلّا أنّهم لم يتخلّوا عن مطلبهم بالسيطرة على المدينة. في هذه الأثناء، وفي الشرق، كان البويهيون في العراق في ذروة بأسهم بقيادة أمير الأمراء، عَضُد الدولة (978-983). وقد كانوا ينازعون الفاطميّين السيطرة على بلاد الشام، باسم الخلفاء

العبّاسيّين، ويهدّدون حتّى بطرد الفاطميّين من مصر. فبرزت بلاد الشام فجأة كهدف لمطامع ثلاث دول عظمى، وانتقلت من الوضع الهامشي الّذي كانت قد انحطّت إليه منذ سقوط الأمويين لتصبح ساحة الحرب الرئيسية لتنافس القوى العظمى.

أتاح تعارض مصالح الإمبراطوريّات المتنافسة، بيزنطية والقاهرة وبغداد، الفرصة لقوى متعدّدة داخل بلاد الشام أن تفرض نفسها بدعم من فريق أو آخر من المتنافسين. والأكثر بروزًا بين قوى بلاد الشام المحلّية هذه كانت التحالفات القبَلية الكبرى الثلاثة، كلب، وكلاب، وطيّ. ومن بين هذه المجموعات القبَلية الثلاث، كانت كلب قد لعبت دورًا هامًّا في شؤون بلاد الشام بشكل مستمرّ منذ عهد الفتح العربي. والآن أصبحت كلب في معظمها متواجدة في أواسط بلاد الشام، بينما كان بنو كلاب في الشمال وطيّ وفي الجنوب وكان كلاهما حديث القدوم نسبيًّا. وعلى الأرجح لأنّ رجال قبائل بني كلب كانوا في بلاد الشام منذ أجيال متعدّدة، كان معظمهم فلّاحين مقيمين فقدوا قدرتهم البدوية الأصلية على التنقّل. وكانت علائقهم القبَلية قد انقطعت عن كلّ ما هو خارج بلاد الشام منذ مدّة طويلة، فتركهم الانسحاب النهائي للقرامطة، حلفائهم السابقين، في عزلة سياسية.

وبعكس بني كلب القديمي العهد في بلاد الشام، كان بنو كلاب وطيّ، الحديثي القدوم، ما زالوا يُظهرون صفات بدوية جلية. في الواقع، كانت ميزتهم العسكرية الرئيسية سرعتهم البدوية في

التحرّك، الّتي كانت تجعل بني كلب، المقيمين غير الظاعنين، يبدون كسالى بالمقارنة. بالإضافة إلى ذلك، وبعكس بني كلب المنعزلين، كانت لبني كلاب وطيّ علائق قبلية متينة خارج بلاد الشام. كان كلاب شماليّ بلاد الشام على اتّصال مع كلاب منطقة الجزيرة (بين المجرى الرئيسي للفرات ورافده الخابور) في شمال بلاد ما بين النهرَين. وكذلك كان بنو طيّ في بلاد الشام الجنوبية على اتّصال مع طيّ الجبَلَين (جبل شَمَّر حديثًا)، في شماليّ شبه الجزيرة العربية. وبفضل العون الّذي كان باستطاعة فرعَي بلاد الشام من بني كلاب وطيّ الحصول عليه بسهولة من رفاقهم القبَليّين في أمكنة أخرى، كانوا يتصرّفون باستقلال أكبر مقارنةً مع بني كلب، وكانوا ميّالين للتمرّد أكثر منهم.

فقد كانت هناك قبائل أخرى في صحراء بلاد الشام تعقد تحالفات سريعة الزوال مع هذا التجمّع الرئيس أو ذاك، وتلعب أدوارًا مستقلّة أحيانًا. كذلك كان هناك العشائر المشاغبة أو فلّاحو المناطق الجبَلية القبليّون، بين مدن الداخل والساحل - وهي المناطق الّتي كانت تدعى «الأطراف». كانت عشائر الأطراف هذه وافرة العدد، وولاؤها القبَليّ الأوسع كان ملتبسًا. بعضهم كانوا ينسبون أنفسهم - مثل بني كلاب - إلى عرب قيس (الشمال)، بينما كان آخرون ينسبون أنفسهم إلى عرب اليمن (الجنوب) - مثل بني كلب وطيّ. إلّا أنّ ادّعاءاتهم بأنّهم قيسيون أو يمنيون كانت تتوقّف، على ما يبدو، على ما يلائمهم سياسيًّا، إذ إنّ نقل الولاء من فئة إلى أخرى

لديهم لم يكن نادرًا. من ناحية الدين، كان بعض عشائر الأطراف مسيحيّين، ولكنّ غالبيتهم، مثل جميع قبائل العرب المعروفة في القرن العاشر، كانوا من المسلمين. إلّا أنّ معظم القبليين المسلمين خارج فلسطين كانوا يحبّذون التشيّع بأشكاله الأكثر تطرّفًا عادة، ويبدو أنّ أفكار القرامطة بشكل خاصّ كان لها رواج بينهم.

كان لأهالي المدن في بلاد الشام، مسلمين ومسيحيّين ويهودًا على السواء، كما للقبائل وعشائر الأطراف، تأثير فعلي على التطوّرات السياسية المحلّية. بين أهل المدن المسلمين، كانت الطبقتان الأكثر بروزًا من الناحية السياسية هما على طرفَي المقياس الاجتماعي. عند الطرف الأوّل كان نبلاء المدن الأغنياء وأصحاب النفوذ: «الشيوخ»، أي الأعيان المعروفون، و«الأشراف»، المدّعون التحدّر من النبيّ أو من أحد الصحابة الرئيسيّين. عند الطرف الآخر، كانت «العامّة» أو «الأوباش»، الّذين كانوا - في دمشق مثلاً - قد نُظِّموا عسكريًّا كميليشيات «أحداث» مدرّبة ومحنّكة تحت قيادة ذات كفاءة[1].

وبالرغم من أنّ مدوِّني الحوليّات المسلمين كانوا يجنحون إلى إغفال الأهمّية السياسية لـ «أهل الذمّة» كما كان اليهود والمسيحيون يُدعون، إلّا أنّ إشارات عَرَضية عن تدخّلات مسيحيين ويهود في الشؤون العامّة لمدن بلاد الشام تدلّ على أنّ الدور الّذي كانت تلعبه تلك الجماعات غير المسلمة كان على جانب من الشأن. ففي حلب

1- راجع أعلاه، ص. 119.

على الأخصّ، كان المسيحيون واليهود ذوي نفوذ سياسي كبير، وكانوا في بعض الحالات يتدخّلون عسكريًّا في نزاعات محلّية على السلطة. وكانوا، مثل المسلمين، منقسمين إلى طبقات تتراوح بين الوجهاء نزولًا إلى الأوباش، بحيث إنّ نفوذهم كان يؤثّر على كلّ المستويات الاجتماعية.

* * *

عكست الأهمّية السياسية الّتي كانت المدن قد اكتسبتها بحلول القرن العاشر تحسّنًا في الوضع الاقتصادي في بلاد الشام في ذلك الوقت. فمنذ أواخر القرن التاسع، كانت الاضطرابات السياسية في جنوبيّ العراق وشرقيّ شبه الجزيرة العربية قد بدأت تطرد التجارة خارج الخليج الفارسي. ففي هذه الأثناء، برزت إمارات مستقلّة ومستقرّة نسبيًّا في جنوبيّ غربيّ شبه الجزيرة العربية، وظهرت حكومة منظّمة في مصر تحت حكم الطولونيّين والإخشيديّين، ممّا ساهم باجتذاب التجارة مرّة أخرى إلى البحر الأحمر[2]. بنتيجة ذلك، عادت مصر إلى البروز كالمركز التجاري الرئيسي بين المحيط الهندي والبحر المتوسّط. وبحلول أوائل القرن العاشر، أدّى الانتعاش الملموس للنشاط التجاري بين مصر وبيزنطية إلى عودة

2- بالنسبة إلى التجارة الشرقية وطرق التجارة في ذلك الزمن، راجع المقاطع الّتي تعنى بهذا الموضوع في كتاب Robert S. Lopez and Irving W. Raymond, **Medieval trade in the Mediterranean world...**, New York, 1955.

ملحوظة للازدهار في بلاد الشام. هنا، كانت المدن الساحلية في وضع أفضل للإفادة من الازدهار الجديد، لأنّ سلاسل الجبال كانت تحميها من الاضطرابات القبَلية الّتي ابتُلي بها الداخل. ولتلافي الداخل المضطرب، كانت التجارة المتجدّدة بين مصر وبيزنطية تتبع، بقدر الإمكان، الطريق الساحلية، أو تلجأ إلى الإبحار. في كلتا الحالتَين، كانت مدن السهل الساحلي الفلسطيني ومدن الساحل الفينيقي محطّات ملائمة على الطريق. على الطرف الشمالي من ساحل بلاد الشام، ازدهرت اللاذقية في القرن العاشر تحت حكم شيوخ آل فُصَيص، كإمارة تجارية صغيرة، أو «مدينة تجّار»[3]، كما كانت تُسمّى. وتدلّ ظروف استسلامها إلى الإمبراطور نقفورس فوكاس عام 968 على علائق قديمة العهد مع بيزنطية، ربّما انبثقت عن مصالح تجارية متبادلة:

«فانصرف [نقفورس فوكاس] (...) إلى اللّاذقيّة؛ فانحدر إليه أبو الحسين عليّ بن إبراهيم بن يوسف الفصيص. (...) وانتَسَب له فعرف نقفور سَلَفَهُ، وجعله سردغُوس [strategos]. وسلّم أهل اللّاذقية.»[4]

وفي بيروت، ما يدلّ على انتعاش التجارة في العقود الأولى من القرن العاشر هو ما بيّنه أحد المشرّعين المحلّيّين، الحسن بن مكحول، الّذي شجب عام 932 الميول الاحتكارية والممارسات التجارية

3- ابن خلّكان، **وَفيّات الأعيان** (بيروت، 1972)، VII، ص. 191.
4- ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب** (دمشق، 1951)، I، ص. 158-9.

المنحرفة الّتي كانت قد استشرت في المدينة:

«بن مكحول البيروتي حدّث (...) وأسند الحافظ من طريقه (...) أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نهى تلقّي السلع حتّى تهبط بها الأسواق[5] (...) ونهى عن النَّجَش قال في النهاية النَّجَش إن يمدح السلعة ليُنفقها ويروّجها أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها.»[6]

بعد 969، تلقّت الأهمّية المتجدّدة لمدن سواحل بلاد الشام دفعًا جديدًا عندما بدأ الفاطميون بتطويرها كقواعد بحرية. طرابلس، على الأخصّ، خرجت من الظلمة السياسية لتصبح مضاهية لمدن الداخل الكبرى. بين جميع مرافئ بلاد الشام، كانت طرابلس الثغر الوحيد الممكن الوصول إليه بالسهولة ذاتها، سواء أكان ذلك من الأجزاء الشمالية أو الجنوبية للبلاد. فمن طرابلس، كانت طريق حلب تمرّ عبر حمص، والطريق إلى دمشق تمرّ في بعلبك. وكان بالإمكان بلوغ طرابلس بسهولة من مصر بحرًا، ومن فلسطين عن طريق الساحل. لا شكّ أنّ ذلك كان السبب في اختيار الفاطميّين لها كقاعدة رئيسة لعمليّاتهم السياسية والعسكرية في بلاد الشام.

وكتب العالِم الجغرافي المُقدَّسي، في أواخر القرن العاشر، وأورد

5- «ملاقاة الرّكب» تعني الحصول على السلع قبل أن تصل إلى الأسواق، لوضع الأسعار كيفيًّا.

6- ابن عساكر، **التاريخ الكبير** (دمشق، 1330-1332 هـ.)، IV، ص. 245. معنى النّجَش على ما يبدو هو البيع والشراء في السوق نفسه، الّذي كان يُعتبر ممارسة تجارية مشينة، حتّى أنّه كان يُعتبر جريمة أحيانًا في القرون الوسطى في أوروبا.

أوصافًا حيّة لازدهار المدن الّذي كانت التجارة الجديدة قد جلبته لمسقط رأسه فلسطين:

«الرملة (...) بهية حسنة البناء (...) بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاضلة وقرى نفيسة والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة (...) [وهي] ذات فنادق رشيقة وحمّامات أنيقة وأطعمة نظيفة وإدامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وأمور جامعة (...) بيت المقدس ليس في مدائن الكور أكبر منها وقصبات كثيرة [خارج بلاد الشام] أصغر منها (...) بنيانهم حجر لا ترى أحسَن منه (...) إلّا أنّ لها عيوبًا (...) لا ترى أقذر من حمّاماتها (...) غزّة كبيرة على جادّة مصر وطرف البادية وقرب البحر (...) عسقلان على البحر جليلة (...) بهية فاضلة طيّبة حصينة قزّها فائق وخيرها دافق والعيش بها رافق أسواق حسنة ومحارس نفيسة إلّا أنّ ميناها رديء (...) ويافا على البحر صغيرة إلّا أنّها خزانة فلسطين وفرضة الرملة (...) وميناها جيّد (...) وقيسارية ليس على بحر الروم بلد أجلّ ولا أكثر خيرات منها (...) نابلس في الجبال كثيرة الزيتون يسمّونها دمشق الصغرى وهي في وادٍ قد ضغطها جبلان سوقها من الباب إلى الباب وآخر إلى نصف البلد (...) مبلّطة نظيفة لها نهر جارٍ بناؤها حجارة ولهم دواميس عجيبة (...).»[7]

ما عدا إشارة وجيزة إلى مشاغل صور[8]، لم يذكر المُقدَّسي إلّا القليل عن مدن الساحل الفينيقي. وفي وصفه لمدن بلاد الشام الداخلية، أشار إلى رخاء حلب، ولكنّه لم يذكر أيّ ازدهار خاصّ في حمص، مع أنّه ذكرها كأكبر مدينة في بلاد الشام. أمّا عن دمشق،

7- المُقدَّسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (لَيدن، 1906)، ص. 164-7، 174.

8- **المصدر نفسه**، ص. 164.

فقد أعطى صورة محزنة نوعًا ما:

«دمشق هي مصر [عاصمة] الشام ودار الملك أيّام بني أميّة وثمّ قصورهم وآثارهم بنيانهم خشب وطين وعليها حصن أُحدث وأنا به من طين أكثر أسواقها مغطّاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن (...) وهي طيّبة جدًّا غير أنّ في هوائها يبوسة وأهلها غاغة وثمارها تفهة ولحومها عاسية ومنازلها ضيّقة وأزقّتها غامّة وأخبازها ردية والمعايش بها ضيّقة.»[9]

* * *

نظرًا إلى المشقّات الكثيرة الّتي عانت منها دمشق خلال القرن العاشر، ليس من المستغرب أن يكون المقدّسي قد وجدها راكدة اقتصاديًّا. إلّا أنّ الدمشقيّين كانوا ما زالوا شعبًا أبيًّا، واعين أنّ مدينتهم كانت في الماضي عاصمة العالم الإسلامي ومقرّ الخلافة. وبالرغم من انتشار الخروج على السُّنّة في كلّ أرجاء بلاد الشام إلّا أنّ مسلمي دمشق ثابروا على البقاء متمسّكين بالسنّة، مزدَرين بإسماعيلية الفاطميّين كما كانوا قد ازدروا بالإسراف الفوضوي الّذي مثّله القرامطة في وقت سابق. بالنسبة إليهم، حتّى «المخالَفة» المعتدلة للإثني عشريّين كانت بغيضة.

بالإضافة إلى ذلك، كان الدمشقيون شديدي القدرة على الاحتمال. فخلال القرن العاشر، كانت المعارضة لجيوش متتالية

9- **المصدر نفسه**، ص. 156-7.

من المحتلّين وضرورات الدفاع ضدّ الغزوات القبَلية واجتياحات القرامطة قد وفّرت لهم تدريبًا وافيًا في فنون المقاومة. وفي الشطر الأخير من القرن، برز «أحداث» دمشق كقوّة مهولة كان على كلّ مقتحم أن يحسب لها حسابًا. ومع أنّ هؤلاء الأحداث كانوا يؤلّفون عصابات مختلفة، لكلّ واحدة قائدها، فقد كانوا يوحّدون الصفوف في وجه الأعداء. وكان وجهاء المدينة يؤثّرون عليهم إلى حدّ ما أحيانًا، ولكن في معظم الأوقات كانوا يتصرّفون على هواهم.

بين 975 و977، تمكّن أفتكين[10] من تهدئة الأحداث موقّتًا وجلْبهم تحت سيطرة الدولة. في هذا الوقت تولّى قيادتهم قسّام الترّاب:

«وكان قسّام هذا أصله من قرية بجبل سنير يقال لها تلفيتا من قوم يقال لهم الحارثون بطن من العرب. نشأ بدمشق وكان يعمل في [حمل] التراب [فلُقِّبَ بالترّاب][11]. ثم إنّه صحب رجلًا يقال له ابن الجسطار من مُقدّمي الأحداث (...) فصار من حِزبهِ وتزايد أمره. (...) الفتكين المعزّي المذكور كان قد استخدمه وقدّمه واعتمد عليه وسكن في كثير من أمره إليه فصار له بذلك صيت يُخشى به ويرجى له.»[12]

عندما اندحر أفتكين على يد الفاطميّين ونُقل إلى القاهرة سنة

10- راجع أعلاه، ص. 119.
11- فعل ترَّبَ يعني حمل التراب من مكان إلى آخر، لحاجات الحدائق أو للبناء – وفي هذه الحالة الأخيرة، بالأخصّ لتغطية ألواح السطوح الخشبية، وما زال ذلك رائجًا في بعض أنحاء بلاد الشام.
12- ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق** (بيروت، 1908)، ص. 26-7، 21؛ عُدِّل الترتيب الأصلي للمقاطع المقتبسة لتسهيل الفهم.

977[13]، تسلّم قسّام زمام الحكم في دمشق. وسُمح لقوّة فاطمية رمزية بدخول المدينة، ولكنّ قسّامًا وأتباعه من الأحداث تمكّنوا من الحفاظ على هذه القوّة تحت سيطرتهم. واضطُرَّ الفاطميون، الّذين كان البويهيون يهدّدونهم من بغداد، إلى القبول بسيطرة شكلية صرف على دمشق لهذا الوقت؛ ولو قاموا بأصغر محاولة لفرض حكم فعلي بشكل أمتن على المدينة، لكانوا استفزّوا قسّامًا لاستدعاء البويهيّين.

* * *

ولم يكن نظام قسّام في دمشق السلطة المحلّية المستقلّة الوحيدة الّتي وجد الفاطميون أنفسهم مضطرّين إلى تحمّلها في بلاد الشام، مقاطعتهم الجديدة، على الأقلّ في هذه الفترة. كان أيضًا هناك آل جرّاح، زعماء قبائل عرب طيّ، الّذين كانوا قد رسّخوا مكانتهم في فلسطين منذ وصولهم إليها مع القرامطة عام 968[14]. وفي العام 971 وأيضًا العام 977، كان آل جرّاح قد ساندوا الفاطميين ضدّ القرامطة لقاء مبالغ كبيرة من المال. وفي المناسبة الثانية، بعد اندحار القرامطة وحليفهم أفتكين في المعركة، كان القائد الفتيّ مفرّج بن دغفل، من آل جرّاح، هو الّذي أسر أفتكين وسلّمه إلى الفاطميّين[15]. تقديرًا

13- راجع أعلاه، ص. 122.
14- راجع أعلاه، ص. 74، 111، 117. قصّة آل جرّاح رواها مصطفى حيّاري في **الإمارة الطائية في بلاد الشام في القرنَين الثاني عشر والثالث عشر**. (أطروحة لشهادة ماجستر لم تنشر، في الجامعة الأميريكية في بيروت، 1969) ص. 54-73.
15- راجع أعلاه، ص. 122؛ كذلك ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 19.

لخدماته، عُيّن مفرّج حاكمًا على الرملة، وهو مركز استمرّ يحتلّه إلى العام 983. وهكذا أصبح زعيم بني طيّ ممثّلًا للسلطة الفاطمية في فلسطين لفترة من الزمن.

لا ريب أنّ مفرّج اكتسب هيبة كبيرة من تعيينه رسميًّا لحاكمية الرملة؛ إلّا أنّ قوّته الذاتية المستقلّة كانت مستمَدّة من مصدر آخر. بصفته الزعيم المقدّم لبني طيّ، فقد كان يدين له بالولاء فلّاحو العشائر والبدو المنتشرون في بقعة شاسعة تمتدّ من فلسطين الساحلية إلى حدود الجبلَين العربية. وعدا مساحة هذه البقعة، فقد كانت تتقاطع فيها الطرقات البرّية بين مصر وبلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية. وطالما بقي البويهيون أقوياء في العراق، لم يكن لدى الفاطميّين من خيار إلّا إبقاء مفرّج راضيًا مهما كان الثمن. فأقلّ تنفير قد يستفزّه ويدفعه إلى الانحياز إلى البويهيّين، الأمر الذي كان ليوصلهم إلى أبواب مصر بالذات ويفتح لهم الطريق مباشرة إلى غربيّ شبه الجزيرة العربية وشواطئ البحر الأحمر. من هنا، بينما ظلّ عضُد الدولة القويّ أميرَ الأمراء في بغداد، استمرّ الخلفاء الفاطميّون في القاهرة بدعم مفرّج في فلسطين، مع أنّهم كانوا يعرفون أنّه غدّار ومن المحتمل أن يستعصي.

وخلال الفترة الّتي كان مفرّج فيها حاكمًا على الرملة، انتزع عضُد الدولة الموصل من حاكمها الحمداني أبي تغلب، قريب سعد الدولة حاكم حلب[16]. عندما طُرد أبو تغلب من الموصل، وصل إلى

16- راجع مخطّط السلالة أعلاه، ص. 93.

بلاد الشام على رأس قوّة كبيرة من عرب عُقيل، وعرض أن يحتلّ دمشق والرملة ويحكمها باسم الخليفة الفاطمي. إلّا أنّ الفاطميين لم يكونوا في الواقع مستعدّين للمجازفة. وبينما كانوا يبدون ظاهريًّا استحسانهم لعرض أبي تغلب، تركوه ينهزم ويُطرد من دمشق على يد قسّام. وعندما وصل إلى فلسطين، قامت قوّة فاطمية بمساعدة مفرّج على دحره في معركة أثناء تقدّمه من طبريّا إلى الرملة. وأُسر أبو تُغلب وأُعدم على يد مفرّج وتفرّق أتباعه من بني عُقيل:

«وخلت الديار لابن جرّاح وأتت بنو طيء على الناس وشملهم البلاء منهم.»[17]

* * *

ولم يتمكّن الفاطميون من تركيز اهتمامهم على إخضاع بلاد الشام مرّة أُخرى حتّى عام 983، على أثر وفاة عضُد الدولة في بغداد. عندها انتهز جيش فاطمي فرصة انشغال البويهيّين بمشكلة معقّدة في الخلافة ووصل إلى فلسطين بحجّة حماية عرب قيس المحلّيّين من ظلم بني طيّ. وبمساعدة عرب قيس، دُحر مفرّج بن جرّاح وفرّ منهزمًا. وبعدها احتلّ الفاطميون دمشق، وهُزم قائد الأحداث قسّام وأُلقي القبض عليه بسهولة، بعد أن تخلّى عنه العديد من أتباعه[18].

17- **المصدر نفسه**، ص. 23. إنّ التواريخ الّتي يعطيها ابن القلانسي بالنسبة إلى هذا الحدث ملتبسة.

18- أطلِق سراح القسّام بعد أسره بفترة وجيزة، ولكنّ الظاهر أنّه لم يعد يُسمع عنه شيء.

وأصبح الحكّام على الرملة ودمشق يُعيَّنون الآن من القاهرة. إلّا أنّ الوضع في بلاد الشام الوسطى والجنوبية ظلّ مُضطربًا. في دمشق كانت سلسلة سريعة التعاقُب من الحكّام الفاطميّين، الواحد تلوَ الآخر، يتحالفون مع الأحداث ووجهاء المدينة ويثورون؛ وفي كلّ مرّة كان يُرسَل جيش من القاهرة، أو من القاعدة الفاطمية في طرابلس، لإزاحة الحاكم الثائر بالقوّة. في هذه الأثناء، وفي فلسطين، ظلّ عرب طيّ بقيادة مفرّج بن جرّاح أقوياء، صعاب المراس، واستمرّوا في تهديد السيطرة الفاطمية على الرملة. وفي سنة 991، عندما كان الوزير الفاطمي العظيم يعقوب بن كِلِّس على فراش الموت، أعطى الخليفةَ العزيز النصيحة التالية:

«سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية [في حلب] بالدعوة وسكّة ولا تُبقِ على المفرّج بن دغفل بن الجرّاح متى عرَضَت لك فيه فرصة.»[19]

والواقع أن العزيز لم يتمكّن قطّ من مفرّج. فالزعيم الطائي المراوغ عاش بعد الخليفة بأعوام عديدة وتُوفّي سنة 1013. واستمرّ خلفاؤه من بعده في تشكيل «شوكة في خاصرة» الفاطميّين حتّى نهاية حكمهم في بلاد الشام[20]. حتّى عندما كان الفاطميون في ذروة قوّتهم، كان يجب دفع الأموال لقوّاد آل جرّاح الطائيّين لكي يظلّوا ساكنين. وعندما كانت تتوقّف المدفوعات، كانت تبدأ القلاقل في فلسطين.

* * *

19- **المصدر نفسه**، ص. 32؛ مذكور أيضًا في مصادر أُخرى.

20- H. A. R. Gibb, **The Damascus Chronicle of the Crusades...**, p. 17.

بلاد الشام على رأس قوّة كبيرة من عرب عُقيل، وعرض أن يحتلّ دمشق والرملة ويحكمها باسم الخليفة الفاطمي. إلّا أنّ الفاطميين لم يكونوا في الواقع مستعدّين للمجازفة. وبينما كانوا يبدون ظاهريًّا استحسانهم لعرض أبي تغلب، تركوه ينهزم ويُطرد من دمشق على يد قسّام. وعندما وصل إلى فلسطين، قامت قوّة فاطمية بمساعدة مفرّج على دحره في معركة أثناء تقدّمه من طبريّا إلى الرملة. وأُسر أبو تُغلب وأُعدم على يد مفرّج وتفرّق أتباعه من بني عُقيل:

«وخلت الديار لابن جرّاح وأتت بنو طيء على الناس وشملهم البلاء منهم.»[17]

* * *

ولم يتمكّن الفاطميون من تركيز اهتمامهم على إخضاع بلاد الشام مرّة أُخرى حتّى عام 983، على أثر وفاة عضُد الدولة في بغداد. عندها انتهز جيش فاطمي فرصة انشغال البويهيّين بمشكلة معقّدة في الخلافة ووصل إلى فلسطين بحجّة حماية عرب قيس المحلّيّين من ظلم بني طيّ. وبمساعدة عرب قيس، دُحر مفرّج بن جرّاح وفرّ منهزمًا. وبعدها احتلّ الفاطميون دمشق، وهُزم قائد الأحداث قسّام وأُلقي القبض عليه بسهولة، بعد أن تخلّى عنه العديد من أتباعه[18].

17- **المصدر نفسه**، ص. 23. إنّ التواريخ الّتي يعطيها ابن القلانسي بالنسبة إلى هذا الحدث ملتبسة.

18- أطلِق سراح القسّام بعد أسره بفترة وجيزة، ولكنّ الظاهر أنّه لم يعد يُسمع عنه شيء.

وأصبح الحكّام على الرملة ودمشق يُعيَّنون الآن من القاهرة. إلّا أنّ الوضع في بلاد الشام الوسطى والجنوبية ظلّ مُضطربًا. في دمشق كانت سلسلة سريعة التعاقُب من الحكّام الفاطميّين، الواحد تلوَ الآخر، يتحالفون مع الأحداث ووجهاء المدينة ويثورون؛ وفي كلّ مرّة كان يُرسَل جيش من القاهرة، أو من القاعدة الفاطمية في طرابلس، لإزاحة الحاكم الثائر بالقوّة. في هذه الأثناء، وفي فلسطين، ظلّ عرب طيّ بقيادة مفرّج بن جرّاح أقوياء، صعاب المراس، واستمرّوا في تهديد السيطرة الفاطمية على الرملة. وفي سنة 991، عندما كان الوزير الفاطمي العظيم يعقوب بن كِلِّس على فراش الموت، أعطى الخليفةَ العزيز النصيحة التالية:

«سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية [في حلب] بالدعوة وسكّة ولا تُبقِ على المفرّج بن دغفل بن الجرّاح متى عرَضَت لك فيه فرصة.»[19]

والواقع أن العزيز لم يتمكّن قطّ من مفرّج. فالزعيم الطائي المراوغ عاش بعد الخليفة بأعوام عديدة وتُوفّي سنة 1013. واستمرّ خلفاؤه من بعده في تشكيل «شوكة في خاصرة» الفاطميّين حتّى نهاية حكمهم في بلاد الشام[20]. حتّى عندما كان الفاطميون في ذروة قوّتهم، كان يجب دفع الأموال لقوّاد آل جرّاح الطائيّين لكي يظلّوا ساكنين. وعندما كانت تتوقّف المدفوعات، كانت تبدأ القلاقل في فلسطين.

* * *

19- **المصدر نفسه**، ص. 32؛ مذكور أيضًا في مصادر أُخرى.

20- H. A. R. Gibb, **The Damascus Chronicle of the Crusades...**, p. 17.

دخل الفاطميون، بعد وفاة الخليفة العزيز عام 996، وبخلافة ابنه الحدث «الحاكم» (996-1021)، فترة قصيرة من الاضطراب السياسي في القاهرة، ممّا أضعف وضعهم في بلاد الشام. واغتنم أحداث دمشق هذه الفرصة ليقوموا بتمرّد ضدّ الحاكم الفاطمي، وهو قائد في الجيش اسمه سليمان بن فلاح، وطردوه خارج المدينة عام 997:

«كان هذا القائد المذكور مشهورًا بالكفاية (...) لكنّه كان مستهترًا بشرب الراح واستماع الغناء والتوفُّر على اللذّة (...) وهو مُنهمك في لهوه لم يشعر إلّا بزحف العامّة والمشارقة إلى قصره وهجومهم عليهِ فخرج هاربًا على ظهر فرسه فنُهبت خزائنه وأمواله وعُدَده وأوقعوا من كان في البلد معهُ من كُتامة وقتلوا منهم عِدَّةً وافرةً وعادت الفتنة ثائرةً واقتسم الرؤساء الأحداث حال البلد.»[21]

في هذه الأثناء، اندلعت ثورة أخرى في صور حيث قَتل السكّان المحليّون الموظّفين الفاطميّين الّذين كانوا يتولّون أمر المدينة وبايعوا أحد البحّارة العامّيين، ويُدعى «علّاقة»، أميرًا عليهم. وفي الوقت ذاته، استولى مفرّج بن جرّاح على الرملة ونهب مدن الساحل الفلسطيني. ولم يتحمّل الفاطميون في مصر هذه الأوضاع في بلاد الشام لمدّة طويلة، وسارع المملوك برجوان – الّذي تمكّن في النهاية من السيطرة على الحكومة الفاطمية كوصيّ على الخليفة الحدث «الحاكم» – إلى العمل، فأرسل على الفور جيشًا من القاهرة لإعادة الأمن إلى الرملة ودمشق، كما أرسل أسطولًا فاطميًا بحريًا لقمع

21- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 49-50.

الثورة في صور:

«وأنفذ [برجوان] في البحر تقدير عشرين مركبًا من الحربيّة المشحونة بالرجال إلى ثغر صور وكتب إلى علي بن حيدرة والي طرابلس بالمسير إليهِ في أصطولهِ وإلى ابن شيخ والي صيدا بمثل ذلك وإلى جماعةٍ من الجهات بحيث اجتمع الخلق الكثير على باب صور ووقعت الحرب (...) واستجار العلّاقة بملك الروم (...) وأنفذ إليه عِدّة مراكب (...) فاقتتلوا في البحر قتالًا شديدًا فظفر المسلمون بالروم وملكوا مركبًا من مراكبهم (...) وانهزمت بقية المراكب فضعُفت نفوس أهل صور (...) وفُتح البلد وأُسر العلّاقة وجماعة من أصحابهِ (...) وحُمل العلّاقة وأصحابه إلى مصر فسُلخَ حيًّا وصُلب بظاهر المنظر [خارج القاهرة] بعد أن حُشي جلده تبنًا، وقُتل أصحابه.»[22]

بعد قمع الثورة في صور وإعادة عرب طيّ في فلسطين إلى الطاعة، صرف الفاطميون همّهم إلى تسديد ضربة نهائية إلى الأحداث في دمشق. وكان قد عُيِّن حاكمًا هناك، في نهاية العام 999، القائد البربري جيش بن الصمصامة، حاكمًا. وكان هذا ابن أخي أبي محمود، أوّل قائد بربري احتلّ دمشق[23]، وكان يعرف دمشق جيّدًا، فقد سبق له أن خدم فيها عدّة مرّات كحاكم أو كقائد حامية[24]، واكتسب بذلك إلمامًا حميمًا بالسياسات المحلّية. وكان قد عَرف بالاختبار مدى وثوق التعاون الّذي يمكن أن يتمّ بين مختلف قطاعات المجتمع الدمشقي: أي المهارة الّتي يمكن بها للوجهاء تمويه ولائهم

22- **المصدر نفسه**، ص. 50-51.
23- راجع أعلاه، ص. 118.
24- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 9، 10، 25، 26، 48.

ومساندتهم للحكّام الفاطميّين ولقوّاد الحاميات، بينما يدعمون الأحداث سرًّا ويحمّسونهم على افتعال المشاكل. فإذا كان المطلوب إخضاع دمشق للسيطرة، فيتوجّب سحق الوجهاء كما الأحداث.

«فالتمس [جيش] من أهل دمشق (...) إخلاء بيت لهيا [في الغوطة][25] (...) فنزل فيها وشرع في التوفّر على استعمال العدل ورفع الكُلف وإحسان السيرة والمنع من الظلم وأشخص رؤساء الأحداث وقدّمهم واستحجب جماعة منهم وجعل يعمل لهم السِّمَط في كلّ يوم يُحضرهم للأكل عنده ويبالغ في تأنيسهم واستمالتهم بكلّ حال. فلمّا مضت على ذلك برهة من الزمان، أحضر قوّاده ووجوه أصحابه وتقدّم إليهم بالكون على أهبة واستعداد لما يريد استخدامهم (...). وقسم البلد وكتب إلى كلّ قائد يذكر الوضع الّذي يدخل فيه ويضع السيف في مفسديه ثمّ رتّب في حمّام داره مائتَي راجل من المغاربة بالسيوف وتقدّم إلى المعروف بالناهري العلوي وكان من خواصّه وثقاته بأن يراعي حضور رؤساء الأحداث الطعام، فإذا أكلوا وقاموا إلى المجلس[26] الّذي جرت عادتهم بغسل أيديهم فيه أغلق عليهم بابه وأمر من رتّب في الحمّام بوضع السيف في أصحابهم. وكان كلّ رجل منهم يدخل ومعه جماعة من الأحداث معهم السلاح وحضر القوم على رسمهم فبادر جيش (...) وجلس معهم للأكل فلمّا فرغوا نهض فدخل في حجرته ونهضوا إلى المجلس وأغلق الفرّاشون بابه وكانت عدّتهم اثنَي عشر رجلًا يقدمهم المعروف بالدُّهَيقين وخرج مَن بالحمّام فوضعوا السيف في أصحابهم فقتلوهم بأسرهم وكانوا تقدير مائتَي رجل. وركب القوّاد ودخلوا البلد وقتلوا فيه قتلًا ذريعًا (...) وجرّد [جيش] إلى الغوطة والمرج[27]

25- بالنسبة إلى غوطة دمشق، راجع أعلاه، ص. 15، 22.
26- تقليديًّا، كانت البيوت الكبيرة مؤلّفة من دار مفتوحة السقف، ومحاطة من الجهات الأربع بغرف موزّعة على طابقَين. وكان المجلس يقع على إحدى الجهات، قرب باب الدار الرئيسي. أمّا الحمّام، فكان على إحدى الجهات الثلاث الأخرى. وكان مدخل الجناح الخاصّ في البيت يقع مقابل المدخل الرئيسي، من الجهة الثانية للدار.
27- لا بدّ أنّ الإشارة هنا تعني مرج راهط، وهي منطقة أبعد من الغوطة، شماليّ شرقيّ دمشق.

قائدًا يُعرف بنصرون وأمره بوضع السيف في من بها من الأحداث فيُقال إنّه قتل ألف رجل منهم لأنّهم كانوا كثيرين. ودخل [جيش نفسه] دمشق فطافها فاستغاث الناس وسالوا العفو والإبقاء فكفّ عنهم (...) وعاد إلى القصر في وقته فاستدعى الأشراف استدعاءً حَسُنَ معه ظنّهم فيه فلمّا حضروا أخرج رؤساء الأحداث فضرب رقابهم بين أيديهم وأمر بصلب كلّ واحد منهم في محلّته حتّى إذا فرغ من ذلك قبض عليهم وحملهم إلى مصر وأخذ أموالهم ونعمهم ووظّف على أهل البلد خمسمائة ألف دينار.»[28]

* * *

قبل مذبحة الأحداث في دمشق بفترة وجيزة، أو بعدها بقليل، دبّر الخليفة «الحاكم» في مصر اغتيال الوصيّ عليه المملوك برْجَوان، وتسلّم زمام الحكم شخصيًّا. وبعكس والده العزيز، الأنيق والسلس، أثبت «الحاكم» على أنّه ذو تصميم ضارٍ وبطش. لا ريب أنّه كان غريب الأطوار في سلوكه الشخصي[29]، ولكنّ تمييزه السياسي كان صائبًا وقراراته سريعة، ومشاوراته متكتّمة وسياساته فعّالة. خلال السنين المبكّرة من حكمه، ترسّخت السيطرة الفاطمية في بلاد الشام الوسطى والجنوبية. وحال تتابُع من الحكّام الأقوياء في دمشق دون عودة ظهور مقاومة محلّية؛ كذلك أُبقيَ عرب طيّ في فلسطين منضبطين معظم الوقت، تحت حكم مفرّج ابن جرّاح وبعده تحت

28- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 53-4.
29- راجع Bernard Lewis, **Islam from the Prophet Muhammad to the capture of Constantinople** (New York, 1974), I, pp. 46-59.

حكم ابنه حسن. وفي مناسبة واحدة عام 1012، دبّر حسّان بن جرّاح ثورة ناجحة ضدّ الخليفة «الحاكم». فقد دبّر مجيء شريف مكّة[30] العلوي أبي الفتوح الحسن بن جعفر إلى الرملة وأقامَهُ فيها كخليفة منافس، وكنّاه بالرشيد، وهي كنية خليفة. إلّا أنّ «الحاكم» تمكّن بعد وقت قصير من إرضاء حسان بن جرّاح بمبلغ كبير من المال، وبعد ذلك بفترة وجيزة تخلّى الشريف أبو الفتوح عن ادّعائه بالخلافة وعاد إلى مكّة[31].

وحالما ضمن السيطرة على بلاد الشام الوسطى والجنوبية وجّه «الحاكم» اهتمامه نحو حلب. وكانت السيادة الفاطمية قد نالت هناك مقدارًا من الاعتراف بها منذ 974[32]. في العام 977، عندما انتزع سعد الدولة الحمداني مدينة حلب من المملوكَين الثائرَين قَرْغُوَيْه وبكجور[33]، سُحِب الاعتراف الرسمي بالسنّية في المدينة لصالح الشيعية[34]. إلّا أنّ القطيعة مع بغداد لم تكن كاملة. ففي العام 976، تلقّى سعد الدولة عباءة الشرف والاعتراف الرسمي بحكمه على حلب من البويهي عضُد الدولة الّذي كان قد خلف للتوّ منصب أمير الأمراء في عاصمة العبّاسيّين[35]. إلّا أنّ عضُد الدولة تُوفّي عام

30- شريف مكّة كان أحد المتحدّرين من النبيّ من صلب الحسن، ابن الخليفة عليّ، وكان تقليديًّا حارس المدينة. ولم يكن أحد ينازع ادّعاءات شرفاء مكة بالتحدّر من النبيّ، بعكس ادّعاءات الخلفاء الفاطميّين.
31- ابن خلّكان، **المصدر نفسه**، I، ص. 175.
32- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 169-70.
33- راجع أعلاه، ص. 104.
34- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 172.
35- **المصدر نفسه**، I، ص. 172-3.

983. وفي العام 986، قَبِل سعد الدولة بالترحاب عباءة الشرف الّتي أرسلها إليه من القاهرة الخليفة الفاطمي العزيز. في هذه الأثناء، اجتاح البيزنطيون بلاد الشام الشمالية عام 981 ومرّة أُخرى عام 983. وفي المناسبتَين حوصرت حلب ولم يتمكّن سعد الدولة من تأمين انسحاب القوّات البيزنطية إلّا بالوعد بدفع الجزية[36].

بينما كان سعد الدولة حيًّا، كان الفاطميون مكتفين باعترافه الشكلي بسيادتهم. ولما تُوفّي عام 991 وخلفه ابنه الفتيّ سعيد الدولة، أصبح موقفهم أكثر عدوانيةً. فالحكم الحمداني في بلاد الشام الشمالية كان قد فقد كلّ مصداقيّته. وكانت الجزية الّتي فرضها البيزنطيون على مناطق نفوذ الحمدانيين قد ثقلت وطأتها على السكّان، فبدأ هؤلاء يتوقون إلى إقامة حكم فاطمي قوي في حلب يستطيع أن يواجه بيزنطية. وحاول المملوك لؤلؤ، الّذي تولّى السلطة في حلب كوصيّ على سعيد الدولة الفتيّ، أن يهدّئ بعض الشيء المعارضة المتصاعدة للحكم الحمداني عن طريق تخفيف الضرائب وتصحيح الظلامات[37]. لكنّ تدابير كهذه لم تعد كافية لتُنجي السلالة. ففي العام 992، احتلّ جيش فاطمي قادم من دمشق مدينتَي حمص وحماه وتقدّم إلى حلب. فسارعت القوّات البيزنطية في أنطاكية إلى الدفاع عن المدينة، استجابةً لنداء من سعيد الدولة والوصيّ عليه لؤلؤ، ورأى الفاطميون أنّه من الحكمة الانسحاب في الوقت الحاضر. إلّا أنّه في السنة التالية، رجع الفاطميون إلى شماليّ

36- **المصدر نفسه**، I، ص 173-7.
37- **المصدر نفسه**، I، ص. 185.

بلاد الشام واستولوا على شَيْزر وأفامية، ودحروا القوّات البيزنطية من أنطاكية في عدّة مواجهات أبعد شمالًا على طول وادي العاصي، وتقدّموا مجدّدًا لمحاصرة حلب.

هذه المرّة، استغاث سعيد الدولة ولؤلؤ بالإمبراطور البيزنطي بازيل الثاني (976-1025) مباشرة، حاثّين إيّاه على المجيء إلى نجدتهما شخصيًّا. واستجابة لاستغاثاتهما، وصل بازيل الثاني إلى بلاد الشام عام 995. فاضطُرّ الفاطميون إلى رفع الحصار عن حلب، وتابع الإمبراطور البيزنطي طردهم من أفامية وشَيْزر. ولدى محاولة تالية من الفاطميّين للرجوع إلى وادي العاصي عام 999، عاد الإمبراطور بازيل الثاني إلى أفامية وشيزر. فكانت هزيمة الفاطميّين نكراء هذه المرّة، وثبّت الإمبراطور البيزنطي سعيد الدولة ولؤلؤ على رأس حكومة حلب، وأُكره الخليفة «الحاكم» على الصلح. بموجب شروط هذا الصلح، الّذي عُقد عام 1001[38]، وُضعت شَيْزر، وربّما قواعد أمامية أخرى في وادي العاصي، بالإضافة إلى أنطاكية، تحت سلطة البيزنطيّين[39]. وخُذلت جميع مطامح الفاطميّين في بلاد الشام الشمالية في تلك الآونة.

في السنة ذاتها الّتي شهدت عقد الصلح بين «الحاكم» وبازيل الثاني، تُوفّي سعيد الدولة في حلب، مسمومًا، على الأرجح، على يد الوصيّ عليه لؤلؤ. عندها اغتصب هذا الأخير السلطة في حلب،

38- **المصدر نفسه**، I، ص. 190-2. راجع أيضًا Charles Diehl et Georges Marçais **Le monde oriental de 395 à 1081** (Paris, 1944), p. 43.

39- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 196.

ضاربًا عرض الحائط بادّعاءات ابنَي سعيد الدولة للخلافة. وعندما تُوفّي لؤلؤ سنة 1009، خلفه على حكم حلب ابنه المنصور. إلّا أنّ الأمير الحمداني أبا الهيجاء – أخا سعيد الدولة – هبّ فورًا ليقاوم خلافة المنصور، وهرع البيزنطيون في أنطاكية، وكذلك عرب بني كلاب في منطقة حلب، لمناصرته. بالنسبة إلى الفاطميّين، كانت هذه فرصة لا تُفوّت. فدعموا المنصور وأرسلوا قوّة كبيرة إلى الشمال لمحاربة المدّعي الحمداني؛ مقابل ذلك، أقرّ المنصور بسيادة الخليفة الفاطمي، «الحاكم»، على حلب، وهُزم أبو الهيجاء وفرّ إلى بيزنطية. وبفشل محاولته استرداد حلب لعائلته، انتهى تاريخ آل حمدان في بلاد الشام الشمالية.

بعد أن أصبح للفاطميّين مدخل سياسيّ إلى بلاد الشام الشمالية، من خلال تحالفهم مع المنصور، بدأوا فورًا بإثارة القلاقل في المنطقة بغاية تعزيز مصالحهم هناك. والأرجح أنّه بتحريض منهم ثار عرب بني كلاب، بقيادة زعيم ناشئ لهم اسمه صالح بن مرداس، ضدّ المنصور عام 1012 وأخذوا يلحّون في طلب امتيازاتهم القبَلية في منطقة حلب. على كلّ حال، سارع الخليفة «الحاكم» إلى التنكّر للمنصور وبدأ يقدّم دعمًا فعليًّا لصالح بن مِرداس وأتباعه. فاستغاث المنصور، الّذي تخلّى عنه حلفاؤه الفاطميون، بسكّان حلب لمساعدته ضدّ الثوّار القبَليّين الّذين كانوا يهدّدون أمن المدينة، فانضمّ إليه جمع كبير من «الرعاع والمتشرّدين والمسيحيّين واليهود»[40].

40- **المصدر نفسه**، I، ص. 204.

ولكن بالنظر إلى الدعم الكامل الّذي كان الفاطميون يقدّمونه لبني كلاب، لم يكن باليد حيلة. وفي العام 1015، فرّ الضابط المملوك فتح القَلْعي، آمر قلعة حلب من قِبَل المنصور، وانضمّ إلى الفاطميّين. وإذ أصبح المنصور عاجزًا عن الاستمرار في المقاومة، فرّ من المدينة وطلب اللجوء إلى البيزنطيّين، مثل أمير الحمدانيّين أبي الهيجاء من قبله. وعندها استسلمت حلب وسقطت تحت سيطرة الفاطميّين[41].

خلال الأعوام المتبقّية من حكم «الحاكم»، كانت السيطرة الفاطمية على بلاد الشام تامّة، باستثناء الوجود المستمرّ للبيزنطيّين في بعض المقاطعات في الشمال، على الأخصّ حول شَيْزر وأنطاكية. وعُيِّن في هذا الوقت حكّام مضمونو الولاء على كلّ المدن الساحلية والداخلية[42]، وفُرض قدر غير مسبوق من الاستقرار السياسي على المناطق الريفية والقبَلية. وفي العام 1019، أُقنِعتْ المجموعات القبَلية العربية الكبرى الثلاث في بلاد الشام – بني كلب، وبني كلاب وبني طيّ – بأن توافق على تسوية فيما يتعلّق بمطاليبها الإقليمية المتضاربة:

«فاجتمع حسّان [بن مفرّج بن جرّاح] أمير بني طيّ، وصالح بن مِرداس أمير بني كلاب، وسنان بن عُلَيّان [أمير بني كلب]، وتحالفوا، واتّفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة[43] لصالح، ومن الرملة إلى [حدود] مصر لحسّان، و[منطقة] دمشق لسنان.»[44]

41- **المصدر نفسه**، I، ص. 213-4.
42- **المصدر نفسه**.
43- مدينة على ضفّة الفرات.
44- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت، 1966)، IX، ص. 230.

وتشير المراسلة الّتي تمّت بين «الحاكم» والزعماء القبَليين الثلاثة على أثر إقامة الحكم الفاطمي في حلب إلى فعّالية تدخّل الخليفة لإنجاز الاتّفاق بين الثلاثة:

«وكتب إلى صالح بن مرداس يأمره بالاتّفاق معهما، ولقّبه أسد الدولة. (...) ثمّ كتب إلى حسّان بن المفرّج بن الجرّاح الطائيّ وعشيرته، وسنان بن عُليّان الكلبيّ وعشيرته، بالاحتياط على حفظ حلب.»[45]

عن طريق إقامة إدارة منظّمة في المدن وتشجيع التفاهم بين القبائل، ضَمن «الحاكم» سيطرة مُحكمة على بلاد الشام. في هذه الأثناء، كان الدعم للخليفة الفاطمي يُكتسب بين العشائر المسلمة الخارجة عن السنّة في محافظات مختلفة من بلاد الشام. ففي مناطق الجبال الوعرة غربي دمشق وطبريّا، أُنشئت علائق حسنة مع عدد من وُلاة الأطراف[46]، على الأخصّ بفضل جهود المملوك التركي «أنجتكين»[47] الدِّزْبَري، الّذي عُيِّن حاكمًا على بعلبك، ثمّ على قيساريّة، بين 1017 و1021 على ما يبدو[48].

«وطال [أنجتكين (أنوشتكين حسب ابن القلانسي)] عليهم باليقظة والذكاء

45- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 214-5.
46- راجع أعلاه، ص. 126.
47- اسم تركيّ يعني «أمير راشد».
48- بالنسبة إلى سيرة أنجتكين الدِّزْبَري هذا في ما بعد (تُوفّي عام 1042)، راجع أدناه، ص. 158، 162-3.

(...) وجعل يتقرَّب إلى الخاصّ والعامّ بكلّ ما يجد السبيل إليه من التودّد والإكرام (...) فارتضى الحاكم مذهبه في الخدمة وزاد في واجبه وقوّده وسيّره (...) [في مهمّة عسكرية] إلى الشام في سنة 406 [1015-1016] ودخل إلى البلد (...) وصار يتودّد إلى الكبير والصغير (...) ولزم بعلبك واليًا عليها وحسنت حاله فيها وانتشر ذكره بها وصادق ولاة الأطراف وكاتب [أيضًا] عزيز الدولة فاتكًا والي حلب وهاداه (...) أنقل من ولاية بعلبك إلى ولاية قيسارية. وكان من حسن سياسته فيها وجميل عشرته لأهليها وحمايته لها ما ذاع بِهِ ذكره وحسن بِهِ صيته وكثر شكره.»[49]

* * *

من المرجّح أنّه من خلال العلائق الطيّبة الّتي أقامها أنجتكين الدِّزْبَري مع وُلاة الأطراف في منطقتَي دمشق وطبريّا، وربما أيضًا مع بعض وُلاة الأطراف في منطقة حلب، مُهّدت الطريق لانتشار فرقة دينية لها عبادة خاصّة لِـ «الحاكم» بين الفلّاحين القبليّين في هذه المناطق. هذه العبادة لِـ «الحاكم» كانت قد ظهرت أوّلًا في القاهرة، ولكنّها انتشرت بسهولة أكثر في المناطق الريفية لبلاد الشام، على الأرجح بين مجموعات من العشائر كانت قد تقبّلت الاجتهادات من النمط الإسماعيلي للإسلام. بالنسبة إلى الإسماعيليّين، كان «الحاكم»، مثل سائر الخلفاء الفاطميّين، أكثر من مجرّد «خليفة للنبيّ»؛ لقد كان إمامًا معصومًا – قائدًا روحيًّا مهديًّا خلافته محتومة

49- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 71-2.

مسبقًا كجزء من المخطّط الكونيّ الشامل. وبينما المنحى الإسماعيليّ المحافظ عند الفاطميّين لم يتعدّ هذا المفهوم الخاصّ للخليفة كإمام، فإنّ المعتقدات الإسماعيلية الشعبية، الّتي كان يشجبها المحافظون عادة، كانت أكثر تطرّفًا ولم تكن تتردّد في عزوِ قدر من الألوهة للأئمّة. وبما أنّ الخلافة الفاطمية في مصر أُنشئت في محيط إسلاميّ معظمه من السنّة، كانت ادّعاءات كهذه عن الإمامة محرجة سياسيًّا للخلفاء، وغالبيتهم – ومن بينهم «الحاكم» – جهدوا في الحفاظ على مظهر من المعتقد التقليديّ، منسجمين على قدر الإمكان مع الطريقة السنّية. إلّا أنّهم، في نظر أتباعهم الإسماعيليّين، ظلّوا أئمّة مُعَيّنين إلهيًّا. ولغُلاة الإسماعيليّين، فالحضور الحيّ لهؤلاء الأئمّة الشرعيّين في العالم، مع مظاهر الألوهية الّتي يجسّدون، كانت تُلغي الشريعة بطريقة طبيعية أو على الأقلّ تجعلها غير ضرورية.

مع اعتماد القاهرة مقرًّا للخلافة الفاطمية بعد العام 973، تقاطر إليها الإسماعيليون من كلّ أنحاء العالم الإسلامي، يجذبهم إليها وجود الأئمّة هناك من ناحية، والنموّ الاقتصادي السريع للعاصمة الفاطمية الجديدة من ناحية أخرى. وكانت العقائد الأكثر تطرّفًا تجد مرتعًا خصبًا لها بين هؤلاء المهاجرين الإسماعيليّين، تنمو فيه وتتطوّر. خلال خلافة «الحاكم»، أصبح مسجد في ضواحي القاهرة، قرب قصر الخليفة، ملتقى جماعة من المهاجرين الإسماعيليّين كهؤلاء، معظمهم من التجّار أو من صغار موظّفي الحكومة من أصل فارسي أو تركي فارسي، من الّذين كانوا مقتنعين بأنّ الخليفة الموجود في

الحكم هو في الواقع كائن إلهي. إحدى الفِرق بين هذه المجموعة، يقودها أحد موظّفي الخزينة يظهر أنّه يُدعى محمّد بن إسماعيل الدَّرَزي، كانت تؤكّد أنّ «الحاكم»، مثل جميع أسلافه في الإمامة منذ الخليفة عليّ، هو التجلّي الحيّ لله، وهو بمثابة الحقيقة الملازمة للعقل الكونيّ، أو للقوّة الخالقة. وكانت هناك فرقة أخرى، بقيادة صانع لبّاد يُدعى حمزة بن علي، تؤكّد أنّ «الحاكم» لم يكن إمامًا فقط مثل أسلافه، بل التجلّي الحيّ لوحدة الألوهية، المطلق والمُنَزَّه[50].

وبلغ النزاع بين الفرقتَين ذروته سنة 1018 أو 1019 عندما أعلن الدَّرَزي علانيةً ألوهية «الحاكم» كإمام، ممّا أحرج الخليفة الّذي سارع إلى فصل نفسه عن القضية. وفي الشغب الّذي تلا ذلك، قُتل الدَّرَزي مع عدد من أتباعه. فأصبح حمزة هو القائد الأوحد لفرقة عبادة «الحاكم»، وراح يعيد تنظيمها بسرّية تامّة. واتُّهم الدَّرَزي بأنّه دجّال وطُلب من المؤمنين أن يلعنوا اسمه مع أسماء أتباعه البارزين. ولكن، بالنسبة إلى العالم الخارجي، ظلّ أتباع المذهب يُعرفون باسم قائدهم المشوّه السمعة، بالدَّرزية، أو الدَّرْزية، أو الدُّرْزية – الدُّروز.

بقطع النظر عمّا إذا كان «الحاكم» متورّطًا شخصيًّا بتطوّر الدرزية أو لم يكن، فالمذهب الجديد كان له تأثير نافع في تعزيز الولاء للخليفة، ليس في مصر، بل تجلّى فيما بين عشائر بلاد الشام المشاغبين. ومع

50- **Encyclopaedia of Islam**, **2**, "al-Darazi", "Hamza", "al-Duruz" Marshall G. S. Hodgson, "Al-Darazi and Hamza in the origin of the Druze religion" in **Journal of the American Oriental Society**, LXXII (1962), pp. 5-20. Sami Makarem, **The Druze Faith** (Delmar, N. Y., 1974), pp. 14-39.

أنّ عقيدة ألوهية الخليفة طوّرتها في الأصل جماعة من المهاجرين الفرس المغمورين في ضواحي القاهرة، إلّا أنّها وجدت أرضًا خصبة لها للانتشار في أرجاء بلاد الشام، حيث كانت الأفكار القرمطية ما تزال تلاقي قبولًا رحبًا. بالفعل، من المرجّح أنّه بين المجتمعات الّتي سبق لها أن التزمت بالأفكار القرمطية – في منطقة طبريّا، ووادي التيم ولبنان الجنوبيّ والمنحدرات الشرقية لجبل الشيخ، وغوطة دمشق وجبل السمّاق (بين معرّة النعمان والعاصي) – بدأ رُسُل الدَّرَزي، وفيما بعد رُسُل حمزة، بالتبشير بالمذهب الدرزي في السنين الأخيرة لعهد «الحاكم». وإذ تزامن نشاطهم التبشيريّ مع حكم أنجتكين الدزبري في بعلبك وقيساريّة، فقد يكون السبب في الأسطورة بأنّ الدَّرَزي ذاته – الّذي ربّما كان اسمه أيضًا أنجتكين – كان قد أرسله الخليفة «الحاكم» إلى وادي التيم ليبشّر بمذهبه. ومهما كانت الحال، يبدو أنّ النشاط التبشيري لرُسُل حمزة في بلاد الشام، بعد موت الدَّرَزي، فرض مقدارًا من النظام على بقايا القرامطة الفوضويّين، وجعلهم ينضوون تحت السيطرة المباشرة للخلافة الفاطمية في القاهرة. وربّما لن يكون بالإمكان قطّ تقدير مدى تأثير الصُّدَف أو التخطيط في هذا الحدث.

* * *

وبينما كان رسل الدروز يكتسبون معتنقين جددًا لمذهب

«الحاكم» بين الفلّاحين القبَليّين في أطراف بلاد الشام، كان الخليفة ذاته يحرص على ترويج صورته على الصعيد الأكثر انسجامًا مع السنّة كحامي الإسلام وناصر الشريعة. وبدءًا من 1108 أو 1109، وضع «الحاكم» العقيدة السنّية على قدم المساواة مع الشيعية الإسماعيلية في البلاد الّتي تمتدّ عليها سلطته، حتّى أنّه بدأ يُظهر تحيّزًا رسميًّا تجاه السنّية. في القاهرة، اتّخذ تدابير لتنظيم الأخلاق العامّة، بالانسجام الصارم مع الشريعة، ممّا سبّب استياء القلّة الماجنة، ولكنْ أرضى الأكثرية المتديّنة على الأرجح. وفي الوقت نفسه تقريبًا، حظي الخليفة بتأييد أتباعه المسلمين وتهليلهم، عندما أمر بهدم كنيسة القيامة في القدس – وهو فعل تبعه تطبيق صارم لأحكام أهل الذمّة في الشريعة.

أمّا الشعبية الّتي اكتسبها الخليفة بين المسلمين بفضل هذه التدابير، على الأخصّ فيما يتعلّق بالمسيحيّين، فتعكس مدى ارتفاع التوتّر السائد في ذلك الحين بين المسلمين والمسيحيّين في مصر، وأكثر من ذلك في بلاد الشام. وهذا التوتّر، كما أشرنا[51]، بدأ يتطوّر في العقود الأخيرة من القرن العاشر، نتيجة النجاحات العسكرية البيزنطية في شماليّ بلاد الشام والدعم الّذي قدّمه سكّان مسيحيون محلّيون للغزاة. ومن الممكن أيضًا أن يكون نموّ التجارة مع بيزنطية، منذ أوائل القرن العاشر، قد جلب ثراءً عامًّا للمجتمعات المسيحية في المدن – ثراء عزّز أوضاعهم الاجتماعية وجعلهم عرضة للكره أكثر ويشكّلون خطرًا محتملًا على المسلمين. من الأكيد أنّ نموّ التجارة

51- راجع أعلاه، ص. 111-2.

كان أيضًا قد أثرى اليهود في بلاد الشام ومصر. إلّا أنّ المسيحيّين كانوا أكثر عددًا بكثير من اليهود، وعلى الأرجح، كانت الشبهات تقع على الملكيّين بينهم بالتواطؤ مع البيزنطيّين. وكان المسيحيون في بلاد الشام يشكّلون الأكثرية في عدد من المدن، على الأخصّ في القدس واللاذقية. وأبدى العالِم الجغرافي المقدّسي أسفه لكون نسبة كبيرة من سكّان بلاد الشام في هذا الوقت من «أهل الذمّة والبُرص»[52]، كما أنّه اتّهم مسيحيّي القدس بأنّهم غير منضبطين إلى حدّ ما[53].

وخلال خلافة «الحاكم»، أو بعد ذلك بقليل، قال الشاعر أبو العلاء (973-1057) – وهو مسلم ذو ميول لا أدرية، جاء من معرّة النعمان قرب حلب – بنوع من الشكوكية فيما يختصّ بالعلائق المتأزّمة بين المسلمين والمسيحيّين في اللاذقية، مدينة قريبة من المعرّة:

في اللاذقية ضجّة	ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدقّ[54]	وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يقول بدينه	يا ليت شعري ما الصحيح[55]

وكتب ابن القلانِسي، وهو مدوّن حوليّات دمشقيّ من القرن الثاني عشر (تُوفّي عام 1160) الرواية التالية عن تهديم كنيسة القيامة

52- المقدّسي، **المصدر نفسه**، ص 216. يستعمل التعبير الإسلامي «أهل الذمّة» للإشارة إلى المسيحيين واليهود.
53- **المصدر نفسه**، ص 188.
54-كان المسيحيون يستخدمون النواقيس الخشبية بدلًا من الأجراس المعدنية لدعوة المؤمنين إلى القدّاس.
55- ذُكر في ياقوت، **معجم البلدان** (بيروت، 1957)، V، ص. 6.

والاضطهاد الشامل للنصارى بأمر من «الحاكم»:

«وقيل في أخبار الحاكم بأمر الله إنّهُ أمر في سنة 398 [1107-1108] بهدم بيعة القُمامة[56] في بيت المقدس (...) وألزم أهل الذمّة الغيار (...) فسأل الحاكم ختكين العضدي الداعي وهو بين يديه عن أمر النصارى في قصدهم هذه البيعة (...) فقال [ختكين]: هذه بيعة تقرب من المسجد الأقصى تُعظّمها النصارى أفضل تعظيم وتحجّ إليها عند فصحهم من كلّ البلاد وربّما صار إليها ملوك الروم وكبراء البطارقة متنكّرين ويحملون إليها الأموال الجمّة والثياب والستور والفروش ويصوغون لها القناديل والصلبان والأواني من الذهب والفضّة وقد اجتمع فيها من ذاك على قديم الزمان وحديثه (...). فلمّا سمع الحاكم هذا الشرح (...) [كتب] إلى والي الرملة وإلى أحمد بن يعقوب الداعي بقصد بيت المقدس واستصحاب الأشراف والقضاة والشهود ووجوه البلد وينزلا على بيت المقدس وقصد بيعة قمامة وفتحها ونهبها وأخذ كلّ ما فيها ونقضها وتعفية أثرها فإذا نجز الأمر في ذلك يعملانه [أي الوالي والداعي] محضرًا وفيهِ الخطوط وينفذانه إلى حضرته. (...) وشاع هذا الخبر بمصر فسُرَّ المسلمون بهِ ودعوا للحاكم دعاء كبيرًا على ما فعله ورفع أصحاب الأخبار إليهِ ما الناس من هذه الحال عليهِ ففرح بذلك وتقدّم بهدم ما يكون في الأعمال من البيع والكنائس. ثمّ حدث من الأمور والإنكار لمثل هذه الأعمال والإشفاق على الجوامع والمساجد والمشاهد في سائر الجهات والأعمال من هدمها والقصد بمثل العمل لها فوقف الأمر في هذا العزم.»[57]

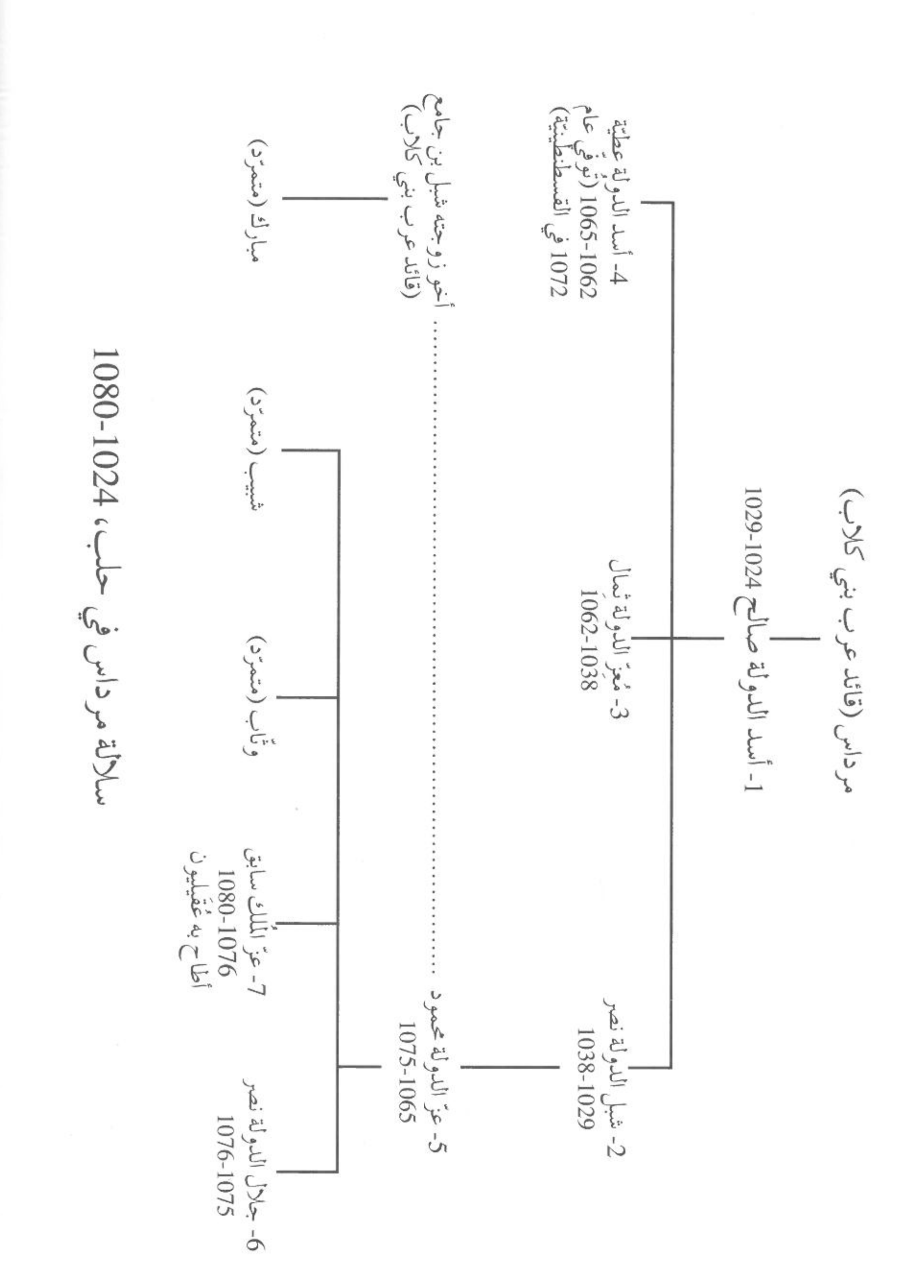
أمّا الخليفة «الحاكم»، الّذي كان يُطيعه الموظّفون المحلّيون في

56- لعب الكتّاب المسلمون على الكلام واستعملوا التعبير الازدرائي «القمامة» للإشارة إلى كنيسة «القيامة».
57- ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**، ص. 66-8.

المدن الساحلية والداخلية، ويُذعن له زعماء القبائل الأكثر بأسًا، ويُطريه المسلمون على جميع مذاهبهم كحامٍ للإسلام ونصير للشريعة، ويخشاه رعاياه المسيحيّون واليهود، ويعبده كالإله المتجلّي فلّاحون قبليون أشدّاء نادرًا ما أبدوا في السابق أيّ ولاء لأيّة حكومة مركزية، فحكم بلاد الشام بين 1015 و1021 بفعّالية ربّما أكبر من أيّ حاكم مسلم قبله. وانتشرت سلطته كخليفة حتّى عرب عُقَيل في شماليّ العراق، الّذين اعترفوا بها وكان زعماؤهم قد استولوا على الموصل عام 990 وأسّسوا لأنفسهم إمارة مستقلّة هناك على أنقاض الإمارة الحمدانية السابقة[58].

إلّا أنّ الخليفة «الحاكم» اختفى في ظروف غامضة عام 1021، ومن المرجّح أنّه اغتيل نتيجة مؤامرة في بلاطه. وخلال حكم ابنه وخليفته «الظاهر» (1021-1036)، بدأت السيطرة الفاطمية على بلاد الشام تضعف. في العام 1023، استولى أسد الدولة صالح بن مرداس على حلب من حاكمها الفاطميّ، وأسّس إمارة مستقلّة لبني كلاب في شماليّ بلاد الشام[59]. وفي فلسطين، ثار حسّان بن جرّاح وعرب طيّ في الوقت ذاته تقريبًا، واستولوا على عسقلان ونهبوها[60]. بين المجموعات العربية القبلية الكبرى الثلاث في بلاد الشام، يبدو أنّ عرب بني كلب، في منطقة دمشق، هم الوحيدون

58- اعترف العُقَيليون في الموصل بالخلافة الفاطمية رسميًّا سنة 1010. راجع ابن الأثير، **المصدر نفسه**، IX، ص. 223.
59- **المصدر نفسه**، IX، ص. 231.
60- **المصدر نفسه**، IX، ص. 230.



سلالة مرداس في حلب، 1024-1080

الّذين ظلّوا على ولائهم للفاطميّين. وبفضل مؤازرتهم[61]، ظلّت بلاد الشام تحت السيطرة خلال السنوات الحرجة الّتي تلت.

* * *

إنّ قيام إمارة بني كلاب للمرداسيّين في حلب، بعد اختفاء «الحاكم» بفترة وجيزة، شكّل ضربة خطيرة للسيطرة الفاطمية في بلاد الشام. فمن قاعدته في حلب، وسّع صالح بن مرداس سيطرته شرقًا حتّى عانة، على الفرات[62]، وجنوبًا حتّى بعلبك. وفي عام 1025، استولى على قلعة حصن عكّار، في الزاوية الأبعد شمالًا في لبنان[63]، وبذلك توصّل إلى السيطرة على الممرّ الهامّ عبر البقيعة وسهول عكّار من حمص إلى الساحل. ومع أنّه لم يتمكّن من طرد الفاطميين من طرابلس أو بيروت، فالظاهر أنّه استطاع أن يبسط السيطرة على صيدا على الأقلّ موقّتًا[64]. وفي فلسطين، كان شيخ طيّ الثائر حسّان بن جرّاح حليفه الطبيعي.

في الوقت الّذي كان فيه تعاظم النفوذ المرداسيّ في الشمال محرجًا دون شكّ لمركز الفاطميّين في بلاد الشام، شكّلت لهم ثورة عرب بني طيّ في فلسطين تهديدًا مباشرًا أكثر خطورة. قبل التصدّي للمرداسيّين بنجاح، كان لا بدّ من إخضاع بني طيّ في فلسطين

61- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 231.
62- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، IX، ص. 231.
63- ابن شدّاد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** (دمشق، 1962)، ص. 113.
64- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 230، 233.

بطريقة أو بأخرى. وأوكل القائد المحنّك أنجتكين الدِّزْبَري بمهمّة التعاطي بشؤون الثوّار القبليّين، وكان أنجتكين قد أصبح الخبير الأكبر للفاطميّين بشؤون بلاد الشام، وحاكمًا للرملة في ذلك الوقت. إلّا أنّه في العام 1024 أو 1025، عندما قام أنجتكين بمحاولته الأولى لسحق ثورة بني طيّ في فلسطين، سارع صالح بن مرداس من حلب لدعم حليفه من بني طيّ حسّان بن جرّاح، واندحر أنجتكين[65]. ولكنّ أنجتكين لم يكن ممّن ييأسون، فعاود مهاجمة بني طيّ عام 1029. مرّة أُخرى جاء صالح بن مرداس لنجدتهم، إلّا أنّ أنجتكين هذه المرّة هزم قوات حسّان بن جرّاح وصالح بن مرداس مجتمعة، بمساعدة عرب بني كلب في موقعة الأقحوانة، قرب بحيرة طبريّا. وقُتل صالح نفسه في المواجهة. في هذه الأثناء، في الشمال، تولّى حاكم طرابلس الفاطمي انتزاع حصن عكّار من المرداسيّين[66] لكي يسدّ الممرّ من أراضيهم في الداخل إلى الساحل.

أمّا في حلب، فخلف صالحًا ابنُه شبل الدولة نصر. ولكي يستردّ الطريق إلى المناطق الساحلية من أراضيه، باشر نصر فورًا باسترجاع قلعة حصن السفح القديمة، على الطرف الجنوبيّ الأقصى لجبل بهراء، وركّز فيها حامية من الجنود الأكراد؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك القلعة الهامّة تعرف باسم حصن الأكراد[67]. إلّا أنّ نصرًا لم

65- **المصدر نفسه**، I، ص. 228.
66- ابن شدّاد، **المصدر نفسه**، ص. 113-4.
67- **المصدر نفسه**، ص. 115. التاريخ المُعطى هو 422 للهجرة (1031 ميلادية). وكانت هذه القلعة بإمرة الفرسان الاستباريّين (Hospitallers) في أيّام الصليبيّين، فصار يُعرف في أوروبا حصن الأكراد (مع تشويه لفظ الكلمة إلى «كرات» أو «كراك») باسم «Crac des Chevaliers». بالنسبة إلى الأكراد في بلاد الشام، راجع أدناه، ص. 176، 183.

يستطع الاحتفاظ باستقلاله طويلًا. فلم يكد يخلف أباه في حلب حتّى بدأ البيزنطيون بغزو مملكته. وبحلول العام 1031 كانت قوّات بيزنطية من أنطاكية قد تغلغلت إلى عمق وادي العاصي ومنطقة جبل بهراء، واستولت على عدد من الحصون هناك. فاضطرّ نصر إلى طلب الصلح، الّذي وافق عليه البيزنطيون لقاء دفع جزية مقدارها 500,000 درهم[68]. ولمقاومة نفوذ المحمية البيزنطية الّتي أقيمت بذلك على إمارته، قام نصر فورًا بالإقرار بسيادة الخليفة الفاطمي «الظاهر»، وبعده بسيادة ابنه «المستنصر» (1036-1094)، مؤمّنًا منهما تثبيتًا رسميًّا لحاكميّته على حلب[69].

والأرجح أنّه في مسعاه لاسترضاء البيزنطيّين على الأطراف الشمالية لإمبراطوريتهم – وربّما أيضًا للإفادة من عداوة نصرانيّي بلاد الشام تجاه الفاطميّين الطموحين – اتّبع صالح بن مرداس، وابنه نصر من بعده، سياسة تحيّز متعمّد تجاه رعاياهما المسيحيّين. فتدلّل مسيحيو بلاد الشام الشمالية تحت حكمهم إلى درجة لم يسبق لها مثيل. وذهب صالح في أيّامه إلى حدّ تعيين وزير مسيحيّ، ليس فقط للإشراف على الإدارة المدنية لإمارته، بل أيضًا على شؤونها العسكرية:

«وكان وزير صالح تاذُرُس بن الحسن النصراني (...) وكان صاحبَ السيف

68- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 239-47؛ كذلك يحيى بن سعيد الأنطاكي، **تاريخ** (Corpus scriptorum christianorum orientalium, Scriptores arabici, VII)، (لوفان، 1954)، ص. 260.
69- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 247-8.

والقلم. وقيل: إنّه كان يترجّل له (...) الولاة والقضاة، فمن دونهم إلّا (...) قاضي حلب، والشيخ أبا الحسن المهذّب بن علي بن المهذّب [أحد وجهاء معرّة النعمان]. (...) وقيل: إنّ أهل «حاس» – قرية بمعرّة النعمان – قتلوا حَماهُ، وكان يقال له الخوري (...) لأذيّته لهم؛ فحين سمع تاذرس بقتل حَميه الخوري، خرج في عسكر حلب؛ وطلب أهل «حاس» في الجبال والضياع؛ وهرب القاتلون إلى أفامية، فلحقهم، فسلّمهم إليه واليها.

فكتب إلى صالح يستأذنه في قتلهم، فأذن له فقتلهم، وصلبهم، فلمّا أنزلوا عن الخشب ليُصلّى عليهم ويُدفَنوا، صلّى عليهم خلقٌ عظيم.

وقال الناس حينئذٍ، يكايدون النصارى: «قد رأينا عليهم طيورًا بيضًا، وما هي إلّا الملائكة»، فبلَغَتْ هذه الكلمة تاذرس (...) فنقَمها على أهل المعرّة[70]، واعتدّها ذنبًا لهم [عليه].

(...) [لدى حادثة شغب ذات مرّة في المعرّة]، لم يزل تاذرس [بصالح] حتّى اعتقل مشايخَ المعرّة وأماثلَها، فاعتقل منهم سبعين رجُلًا، وقطع عليهم ألف دينار.»[71]

على الرغم من معارضة إسلامية عارمة، استمرّ تاذرس بن الحسن النصراني في خدمة صالح كوزير حتّى النهاية. وقد انضمّ إلى سيّده في آخر حملة له لمساندة حسّان بن جرّاح في فلسطين، وقبض عليه الفاطميون وشنقوه في معركة الأقحوانة[72]. وتحت حكم نصر، ابن صالح، تمتّع كاتب نصراني اسمه توما بنفوذ قويّ في البلاط المرداسي، ويبدو أنّه جمع ثروة طائلة؛ ولكنّه تورّط فيما

70- الصيغة المصغّرة الشائعة لمعرّة النعمان.
71- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 232-4.
72- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 232.

بعد في مؤامرات سياسية على مستوى رفيع، وأُعدم بنتيجة ذلك عام 1034[73].

هذه المحاباة الّتي أبداها صالح وابنه نصر للنصارى، وخضوع نصر للبيزنطيّين بعد العام 1031، أفقداهما على الأرجح شعبيتهما لدى أتباعهما المسلمين، الّذين ظلّوا موالين للفاطميّين على ما يبدو. ولكي يدعم مركزه في حلب، حاول نصر أن يجد دعمًا لدى الأحداث والرعاع في المدينة، فسلّحهم واستمالهم لخدمته، كما قد فعل المنصور بن لؤلؤ قبل العام 1015[74]. ولم يكن ذلك إلّا لإفقاده شعبيته بدرجة أكبر بين وجهاء المدينة المسلمين.

في هذه الأثناء، وفي العام 1032، اندلعت ثورة ضدّ نصر وضدّ الوجود العسكري البيزنطي في بلاد الشام الشمالية بين المجتمع الدرزي الحديث الوجود في جبل السمّاق – منطقة من التلال الوعرة بين معرّة النعمان والعاصي. وكان جبل السمّاق، في ذلك الوقت، منطقة يتمتّع فيها البيزنطيون بمقدار من النفوذ:

«وفي أيّام نصر اجتمع بجبل السمّاق قوم يُعرفون بالدرزيّة منسوبون إلى رجل خيّاط أعجميّ؛ وجاهروا بمذهبهم، وخرّبوا ما عندهم من المساجد، ودفعوا نبوّة الأنبياء، وجحدوهم إلّا الإمام الحاضر الّذي يدعو إليه الدَّرَزي، وأحلّوا نكاح المحارم، وتفاقم أمرهم، وتحصّنوا في مغايِر شاهقة على العاصي، وانضوى إليهم خَلق من فلّاحي حلب، وطمعوا بالاستيلاء على البلاد.

73- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 249-50.
74- راجع أعلاه، ص. 145. أحداث حلب، الّذين بدأ حينها ذكرهم في تاريخ المدينة، كانوا منظّمين على ما يبدو على غرار أحداث دمشق.

فخرج إليهم نقيطا قَطَبان أنطاكية، وحاصَرهم في المغاير، ودخّن عليهم، وساعده على ذلك نَصْر بن صالح صاحب حلب؛ ثمّ التمسوا الأمان بعد اثنين وعشرين يومًا، فأخرجوهم بالأمان؛ وقبضوا على دُعاتهم[75] وقتلوهم؛ وذلك في شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة [آذار / مارس – نيسان / أبريل 1032].»[76]

قد تكون ثورة دروز جبل السمّاق ضدّ البيزنطيّين ونصر بن مرداس من تحريض أنجتكين الدِّزْبَري، الّذي كان قد تثبّت حاكمًا فاطميًّا في دمشق، بعد انتصاره على صالح بن مرداس في معركة الأقحوانة[77]. على كلّ حال، لا شكّ أنّ أنجتكين كان مصمّمًا على وضع حدّ لحكم المرداسيّين في حلب. من دمشق، تمكّن من إعادة تركيز علائق طيّبة مع عرب طيّ في فلسطين، كما أنّه استطاع تمتين تحالفه القديم مع عرب بني كلب في منطقة دمشق، وحتّى إقامة اتّصال مع بعض زعماء بني كلاب في الشمال. وفي العام 1038، قامت قوّة مؤلّفة من عرب طيّ وكلب وكلاب، يساندها بعض فصائل البربر، ضدّ نصر بن مرداس بأمر من أنجتكين. فتقدّم نصر لملاقاتهم في السَّلَمِيَّة، ولكنّه هُزم بسهولة. عندها وصل أنجتكين إلى شماليّ بلاد الشام شخصيًّا، واحتلّ حماه ونهبها، وأوقع هزيمة

75- راجع أعلاه، ص. 154.
76- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 248-9. راجع أيضًا يحيى بن سعيد الأنطاكي، **المصدر نفسه**، ص. 265. «الخيّاط الأعجمي» هو الدَّرَزي، ويعني اسمه «الخيّاط». الاتّهامات الأخلاقية بحقّ الدروز في هذا المقطع، التي لا أساس لها من الصحّة، تتكرّر غالبًا في كتابات التاريخ الإسلاميّة، التي هي في معظمها معادية للدرزيّة.
77- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 250.

ساحقة بنصر في تلّ فاس، قرب حمص. قُتل نصر في المعركة، وأكمل أنجتكين ليحتلّ حلب[78]، منهيًا بذلك الفترة الأولى من الحكم المرداسيّ في بلاد الشام الشمالية.

خلال السنوات الثلاث الّتي تلت، حَكم أنجتكين الدِّزْبَري بلاد الشام بكاملها باستثناء بعض المناطق البيزنطية المحصورة في الشمال. وفي حلب، حافظ على العلائق الخاصّة بالمعاهدة الّتي كان نصر قد أقامها مع البيزنطيّين، واستمرّ في دفع الجزية الّتي كانوا قد فرضوها[79]. ولكن، بحلول العام 1042، تُوفّي أنجتكين. فاغتنم الفرصة مُعزّ الدولة ثِمال بن مرداس، الأخ الأصغر لنصر، ليعيد إمارة المرداسيّين في بلاد الشام الشمالية، وتقدّم من قاعدة عائلته في منطقة الفرات ليحتلّ حلب بمساعدة البيزنطيّين. وباءت محاولات الخليفة الفاطمي المستنصر لطرد ثمال من المدينة بالفشل. إلّا أنّ ثمال رأى أنّه من الحكمة استرضاء المستنصر عن طريق الاعتراف بسلطته ودفع جزية له، بينما استمرّ في الوقت ذاته بدفع الجزية إلى البيزنطيّين. وفي العام 1055، تسلّم عباءة الشرف من القاهرة، واعترف به المستنصر كحاكم على حلب[80].

* * *

78- **المصدر نفسه**، I، ص. 250-2؛ وابن الأثير، **المصدر نفسه**، IX، ص. 231.
79- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 250.
80- **المصدر نفسه**، I، ص. 260-70؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**، IX، ص. 231-2.

في هذه الأثناء كانت تحدث تطوّرات في أقطار الإسلام الشرقية، كان لها فيما بعد وقع حاسم على الوضع السياسي في بلاد الشام. في النصف الثاني من القرن العاشر، اعتنق الدين الإسلامي الأتراك الغزّ القاطنون في المنطقة الشرقية من بحر الأرال، بقيادة زعيم اسمه سلجوق. وفي بداية القرن الحادي عشر، كانوا قد انتقلوا إلى بلاد ما وراء النهر، بين سيحون (سيردريا) وجيحون (آمودريا)، على طول الحدود الشمالية الشرقية لبلاد فارس. بين 1025 و1037 قطع السلاجقة الغزّ نهر جيحون وأقاموا في مقاطعة خراسان الفارسية، الّتي كان يحكمها الغزنويون، وهم سلالة أصلهم مماليك أتراك، وقد أصبحوا فرسًا تمامًا. وتلا ذلك صراع بين السلاجقة الغزّ والغزنَويّين، بلغ ذروته عام 1040 في معركة دندانقان حيث سُحق الجيش الغزنوي. وأصبح السلاجقة أسيادَ خراسان الجدد، وتلقّوا من الخليفة العبّاسي في بغداد لقب «مَوالي أمير المؤمنين». خلال السنوات الخمس عشرة الّتي تلت، أخضع طغرل بك، زعيم آل سلجوق، سائر أقطار بلاد فارس، بينما تولّى أعضاء آخرون من العائلة توسيع ممتلكات السلجوقيّين باتّجاه الشمال، وغزوا جورجيا وأرمينيا على حدود الإمبراطورية البيزنطية[81].

لمّا اعتنق السلجوقيون الإسلام، أصبحوا من السنّيين الأتقياء، كما كان معظم رعاياهم في مختلف المناطق الفارسية. وكانوا يُجلّون

81- عن تاريخ المملكة السلجوقية، راجع Claude Cahen, "The Turkish invasion" in **A History of the Crusades**, ed. by K. M. Setton, I, pp. 135-76
عن الغزنويين، راجع C. E. Bosworth, **The Ghaznavids; their empire in Afghanistan and eastern Iran, 994 – 1040**

الخليفة العبّاسي في بغداد ويكنّون له الاحترام الكبير، ويعتبرون استمرار وسيطرة البويهيّين الشيعة عليه بمثابة فضيحة لا تُطاق. بين 1048 و1055، كان أمير الأمراء البويهي في بغداد «الملك الرحيم أبا نصر خُسرو فيروز»، لكنّ السلطة الحقيقية كانت بيد القائد التركي لجيشه أبي الحارث أرسلان البساسيريّ. وأنشأ الخليفة العبّاسي القائم (1031-1075) علائق ودّية مع طغرل بك السلجوقي، الّذي كان يحكم بلاد فارس من عاصمته أصفهان، غير البعيدة عن حدود العراق. وفي العام 1055، دعا الخليفة العبّاسيّ طغرل بك ليحتلّ بغداد ويُنهي حكم البويهيّين هناك. ففرّ البساسيريّ قبل وصول السلجوقيّين، ودخل طغرل المدينة ليلقى حفاوة بالغة من القائم. وكان القائد السلجوقيّ على وشك إعلان نفسه سيّدًا حاميًا للخليفة العبّاسيّ بعد البويهيّين، عندما نشبت ثورة بين قبائله التركية في بلاد فارس أجبرته على العودة إلى دياره. عندها دخل البساسيريّ مجدّدًا إلى بغداد عام 1058، وطرد الخليفة القائم من المدينة، وأعلن السيادة الفاطمية في العاصمة العبّاسية.

إلّا أنّ انتصار البساسيريّ لم يعمّر طويلًا. فبعد أن قمع طغرل بك الثورة في بلاد فارس، عاد إلى بغداد عام 1059 وأعاد تنصيب القائم في عاصمته. فرّ البساسيريّ مرّة أخرى، ولكنّهم لحقوا به هذه المرّة وقتلوه. وأصبح العراق بأكمله تحت الحكم السلجوقيّ. إثر ذلك، أعطى الخليفة العبّاسيّ طغرل بك لقب «السلطان» اعترافًا بجميله – وهو لقب كان مُتداوَلًا منذ فترة طويلة، للإشارة إلى

صاحب السيطرة الفعلية، ولكنّه كان عندها يُعطى رسميًا للمرّة الأولى. وكان لرئيس سلالة السلجوقيّين، كسلطان، أن يمارس السلطة المدنية الكاملة على رأس الإمبراطورية الإسلامية، بالاشتراك مع الخليفة الّذي ظل يحتفظ بتفوّق نظري كأمير المؤمنين. وظلّت بغداد رسميًا عاصمة السلطان والخليفة، ولكن طغرل بك كان يفضّل أن يحتفظ بأصفهان عاصمة منفصلة لسلالته في بلاد فارس، ولم يكن يزور بغداد إلّا في مناسبات خاصّة. وعند وفاته عام 1063، خلفه ابن أخيه ألب أرسلان (1063-1072) كسلطان على الإسلام في أصفهان.

* * *

كان لظهور الإمبراطورية السلجوقية في بلاد فارس والعراق تأثيران فوريان على التطوّرات الداخلية في العالم الإسلامي. أوّلًا، جلب انبعاثًا مفاجئًا للنفوذ السنّي في الأراضي الواقعة شرقيّ الفرات، ممّا وضع الخلافة الفاطمية في القاهرة في موقف دفاعي في الحال. ثانيًا، فتح الطريق أمام هجرات تركية قبَلية إلى أواسط البلدان الإسلامية على نطاق واسع. في الواقع، ما كادت أولى القبائل التركمانية (كما كانت تُدعى القبائل التركية) تصل إلى العراق سنة 1055، على أثر أوّل غزو لطغرل بك للبلاد، حتّى أخذت القبائل العربية «تشعر بالقلق فيما يتعلّق بمراعيها»[82]. وعلى الفور تقريبًا

82- Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 145.

بدأت قبائل بني كلاب في الجزيرة، في المناطق الشمالية للفرات، بالزحف باتّجاه حلب، بينما أخذت القبائل العراقية الأبعد جنوبًا بالتجمّع حول البساسيريّ لمعارضة طغرل بك[83]. وعندما هُزم البساسيريّ وقُتل عام 1059، غادر كثيرون من أتباعه القبَليّين العراق وتبعوا بني كلاب الآتين من الجزيرة إلى شمالي بلاد الشام.

في منطقة حلب، سبّب التضخّم المفاجئ لقبائل بني كلاب بعد 1055 إرباكًا كبيرًا للحاكم المرداسي مُعزّ الدولة ثمال. وبصفته قائد عرب بني كلاب، لم يكن بإمكانه تنفير أهل قبيلته سياسيًّا، وهم الّذين كان يعتمد على دعمهم من أجل بقائه. إلّا أنّه، كحاكم على حلب، لم يكن بإمكانه أن يسلّم بمطالبهم المتزايدة:

«(...) اضطرب عليه بنو كلاب، وامتدّت أعينهم إلى ما في يده، واستقلّوا ما كان يصل منه إليهم، وأكثروا في العنت له، وقالوا: 'لولانا ما صرتَ إلى ما صرتَ إليه، وما أنت بأحقّ منّا بذلك، فينبغي أن تفرضه على جميعنا'»[84].

بحلول العام 1057 أو 1058، أقدم ثمال، الّذي لم يُرد أن يتعاطى مع «الفتن والأذى»[85] من جماعته، أفراد القبائل، على تسليم حلب إلى الفاطميّين مقابل حاكمية ثلاث مدن ساحلية: جبيل، وبيروت وعكّا[86]. إلّا أنّ الفاطميّين لم ينجحوا أكثر ممّا نجح هو في التعاطي مع

83- **المصدر نفسه**.
84- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 273.
85- **المصدر نفسه**.
86- **المصدر نفسه**؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**، IX، ص. 232.

عصيان بني كلاب في شمالي بلاد الشام، وأصبح هذا العصيان أكثر خطورة بعد 1059 بازدياد الهجرات القبلية من العراق. بذهاب ثمال، آلت قيادة بني كلاب في حلب إلى ابن أخيه، محمود بن نصر، الّذي تولّاها بنجاح والّذي قام بعصيان رافضًا الاعتراف بحكم الفاطميين في العاصمة المرداسية. وبحلول العام 1061، كان محمود قد حاصر حلب واحتلّها مرّتين. في المرّة الثانية، وجد الفاطميون أنفسهم عاجزين عن طرده من المدينة، واضطرّوا إلى استدعاء ثمال لينفّذ المهمّة ويعيد تثبيت نفسه في مركزه السابق، ولكن هذه المرّة كحاكم فاطمي. وعندما تُوفّي ثمال في السنة الّتي تلت، خلَفه أخوه أسد الدولة عطيّة كحاكم لحلب. والظاهر أنّ الأخوين ما كانا يتمتّعان بتأييد الفاطميّين فحسب، بل بتأييد أهالي حلب أيضًا، الّذين كانوا في غاية القلق بسبب انتشار الفوضى القبلية في المنطقة. ولجأ عطيّة، لتقوية مركزه في المدينة بعد 1062، إلى استمالة الأحداث المحلّيّين لتأييده عن طريق توسيع سخيّ لامتيازاتهم[87].

في هذه الأثناء، استمرّ محمود بن نصر في قيادة عرب بني كلاب في مناهضة أعمامه. وفي سلسلة من الغزوات، تمكّن من انتزاع كلّ المنطقة جنوبي حلب من أيديهم، بما في ذلك مدن معرّة النعمان وكفرطاب وحماه. ولمّا عَجِز ثمال، وأخوه عطيّة من بعده، عن إخضاع ابن أخيهما، سعيا إلى التعويض عن هيبتهما المتقلّصة عن طريق محاربة البيزنطيّين، الّذين كانت قوّتهم في ذلك الوقت قد بدأت بالانحطاط. وفي الواقع، تمكّن الأخوان من الاستيلاء على

87- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 294.

عدد من الحاميات البيزنطية في بلاد الشام الشمالية[88]. إلّا أنّ هذه الانتصارات الصغرى بالكدّ كانت كافية لتعزيز صورتهما كبطلَين للإسلام، ولم توفّر لهما تعويضًا حقيقيًّا عن خسارتهما السيطرة على أجزاء واسعة من إماراتهما.

* * *

كان محمود بن نصر وعرب بني كلاب يستعدّون للزحف على حلب حوالى آخر العام 1064، عندما استنجد أسد الدولة عطيّة بالتركمان الّذين كانوا قد جاؤوا حديثًا وأخذوا يستوطنون في شماليّ العراق، على امتداد الانبساطات العليا لدجلة. واستجاب أحد زعماء التركمان، هارون بن خان، لهذا النداء ووصل إلى حلب لنجدته ومعه قوّة من حوالى 1000 رجل. ومع أنّ عطيّة كان قد استنجد بهم بالفعل، فأنّه ارتاع لدى وصولهم:

«وكان هذا أوّل دخول الترك إلى الشام (...) ودخل (...) حلب فخاف الحلبيون وعطيّة منه؛ فأغرى عطيّة بهم الأحداث من أهل حلب فنهبوهم ليلًا، في صفر من سنة سبع وخمسين وأربعمائة [كانون الثاني / يناير – شباط / فبراير 1065]، وقتلوا منهم جماعة، ونهبوا خيولهم وسلاحهم وما قدروا عليه من رحلهم.

وركب ابن خان منهزمًا (...) وصاح تحت القلعة: «أليس قد غدرت بي

88- **المصدر نفسه**، I، ص. 286-7.

بأصحابي يا عطية، والله لأنزلك منها على أقبح قضية.»[89]

وبحسب وعده، انضمّ ابن خان في الحال إلى قوّات محمود بن نصر، وتقدّم الرجلان توًّا إلى حلب وحاصراها لمدّة مئة يوم ويومَين حتّى استسلم عطيّة أخيرًا. فدخل محمود إلى حلب ونصّب نفسه حاكمًا هناك تحت اسم عزّ الدولة، وبقي ابن خان معه[90]. ورضي الفاطميون بالاعتراف به. أمّا عطيّة، فقد سُمح له بالاحتفاظ بمدن الحدود الأناضولية في الشمال ومدن منطقة الفرات في الشرق.

والّذي حدث هو أنّ التحالف المستمرّ بين محمود وابن خان أدّى إلى تنفير عرب بني كلاب من قائدهم السابق. وبالفعل، ما كاد محمود يركّز نفسه في حلب حتّى ثار بنو كلاب ضدّه وباشروا بالالتئام حول عمّه عطيّة الّذي كانوا يحاربونه بالأمس. وبمساعدة «الأتراك والدّيلميّين والأكراد والأجّ»[91] الّذين كانوا قد احتشدوا في شمالي بلاد الشام للانضمام إلى ابن خان، استدار محمود ضدّ ثوّار بني كلاب وأخضعهم. ثمّ تقدّم شمالًا لمجابهة البيزنطيّين الّذين كانوا قد جدّدوا غزواتهم إلى أراضي المرداسيّين تحت إمرة الإمبراطور الهمّام رومانوس الرابع ديوجينس (1067-1071).

* * *

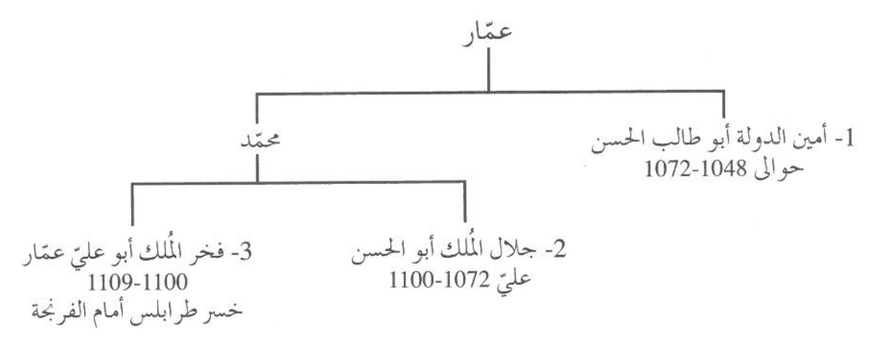
89- **المصدر نفسه**، I، ص. 295. عن ابن خان، راجع أيضًا ابن الأثير، **المصدر نفسه**، IX، ص. 233، 234؛ ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**، ص. 92، 93.

90- ابن العديم، **المصدر نفسه**، I، ص. 296-7؛ II، ص. 9، 10، 13، 18.

91- **المصدر نفسه**، II، ص. 10. كان الدّيلميون «قبائل منطقة الدّيلم»، جنوبيّ بحر قزوين. عن «الأجّ»، وهم أهالي الحدود، راجع أدناه، ص. 184.

فيما يختصّ بالفاطميّين، فإنّ إمساك عزّ الدولة محمود بالسلطة في حلب أدّى إلى وضع حدّ لسيطرتهم الفعلية على شماليّ بلاد الشام. في الوقت ذاته، كانت سطوتهم على بلاد الشام الوسطى والجنوبية تضعف. هنا، على أثر وفاة أنجتكين الدِّزْبَري عام 1042، تعاقب عدد من الحكّام الفاطميّين المعيّنين من القاهرة ليضبطوا المدن الساحلية والداخلية الرئيسية. إلّا أنّه، في العام 1064، حدثت مشكلة في دمشق بين الحاكم الفاطمي – وهو قائد للجيش أرمني اسمه بدر (بدروس؟) الجمالي – وبين الحامية الفاطمية في المدينة، يدعمها الأهالي المحلّيون. والظاهر أنّ قائد الثورة كان من وجهاء دمشق المرموقين من سلالة عليّ يدعى أبو طاهر حيدرة بن أبي الحسين. ولمّا عجز بدر الجمالي عن احتواء الوضع، فرّ من المدينة، وخمدت الثورة عندها. إلّا أنّ بدرًا عاد إلى دمشق عام 1066، وأُعيد تثبيته حاكمًا. بعد ذلك بعامين، قاد أبو طاهر حيدرة ثورة أخرى لحامية دمشق وللأهالي ضدّه. وأثناء الثورة، أُحرق قصر الحاكم خارج المدينة. إلّا أنّ هذه الثورة قُمعت في النهاية، وقُبض على أبي طاهر حيدرة وسُلخ جلده وهو حيّ بأوامر من بدر[92]. بحلول العام 1069، كانت الأحوال في دمشق قد خرجت تمامًا عن السيطرة. في مصر، كانت مجموعة من قوّاد الجيش العرب والأتراك والبربر تحاول انتزاع السلطة من الخليفة المستنصر؛ ودفع ذلك حامية دمشق إلى الثورة مرّة ثالثة، وقام أحد القوّاد المحلّيّين، اسمه مُعلّى

92- عن هاتين الثورتين، راجع ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**، ص. 92-4.



سلالة عمّار في طرابلس، حوالى 1048-1109

بن حيدرة، ونصّب نفسه حاكمًا على المدينة دون تعيين رسميّ من القاهرة، واتّخذ اسم حصن الدولة[93]. خلال الثورة التي أوصلت معلّى هذا إلى الحكم، اصطدم أهالي دمشق ببعض الجنود، واندلع حريق كبير في المدينة أحرق المسجد الأموي[94].

وفي الوقت ذاته تقريبًا الّذي حدثت فيه أوّل ثورة دمشقية ضدّ بدر الجمالي، ثار قاضي صور الشيعي (الإثني عشري على الأرجح)، عين الدولة محمّد بن أبي عَقيل، ضدّ الفاطميّين ونصّب نفسه حاكمًا مستقلًّا:

«(...) إلى أن تغلّب عليها [على صور] قاضيها عين الدولة ابن عقيل. وعصى فيها واستبدّ بها، وخلع طاعة المستنصر. وذلك في سنة خمس وخمسين وأربعمائة [1063]، فسيّر إليه من مصر أميرَ الجيوش بدرَ [الجمالي] المستنصري [عام 462 / 1069-1079]. فحاصر صور وضايقها، فاستنجد عينُ الدولة قُرلو التركي [قائد الترك

93- **المصدر نفسه**، ص. 96؛ وابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 59. راجع أيضًا أدناه، ص. 180، 187.
94- ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**، ص. 96.

المتمركزين في بلاد الشام][95]، فرحّل بدرًا عنها بعد أن أشرف على أخذها، واستمرّت [صور] في يد عين الدولة، إلى أن مات في سنة خمس وستّين [1072-1073]. وتولّى بعده ولدُه نفيس ومعه أخواه.»[96]

حتّى قبل أن يركّز ابن أبي عقيل استقلاله في صور، كان قاضي طرابلس الشيعي (الإثني عشريّ أيضًا، على الأرجح)، أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمّار، قد وضع يده على السلطة هناك في حوالى العام 1048[97]. قد يكون ابن عمار قد نصّب نفسه أوّلًا في طرابلس كممثّل للحكومة الفاطمية، إلّا أنّه كان بالتأكيد قد استقلّ بحلول العام 1070. وبمرور الزمن، أصبحت الإمارة الّتي أسّسها تشمل امتداد الساحل، من جبيل في الجنوب إلى ضواحي اللاذقية في الشمال. وفيما لا يُعرف إلّا القليل عن الصفات الشخصية لابن أبي عقيل وطبيعة حكمه في صور، تُصوّر الدلائل المتوفّرة مُعاصِرَه ابن عمّار في طرابلس كأمير متنوّر:

«وكان ابنُ عمّار هذا من أعقل الناس، وأسدّهم رأيًا، فقيهًا على مذهب الشيعة. وكانت له دار علم بأطرابلس، فيها ما يزيد عن مئة ألف كتاب وقفًا. وهو الّذي صنّف كتاب «ترويح الأرواح، ومفتاح السرور والأفراح» المنعوت [بمازحةً] بـجراب الدولة.»[98]

95- عن الترك في بلاد الشام في تلك الحقبة، راجع أدناه ص. 176، 183-6.
96- ابن شدّاد، **المصدر نفسه**، ص. 165؛ المعلومات الإضافية بين هلالين عن ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**، ص. 98.
97- راجع ابن شدّاد، **المصدر نفسه**، ص. 107، الهامش 3.
98- **المصدر نفسه**، ص. 107. كان **ترويح الأرواح**، الّذي فقد الآن، على الأرجح مجموعة نكات وطرائف. وقد لا يكون مؤلّف الكتاب هو ابن عمّار (**المصدر نفسه**، الهامش 4).

من المرجّح أن تكون لقطيعة صور وطرابلس مع الحكومة الفاطمية، الّتي أصبحت تامّة سنة 1070، أسباب اقتصادية وسياسية. كانت المدينتان مرفأين مزدهرَين في ذلك الوقت[99]. ربّما كان ابن أبي عقيل في صور وابن عمّار في طرابلس، في ثورتهما ضدّ الفاطميين، متمتّعَين بدعم جماعتهما من التجّار في المدينتَين، الّذين كانت مصالحهم التجارية مهدّدة بقلاقل ذلك الوقت. ولكن، بالرغم من أنّه ليس بالإمكان استبعاد الاعتبارات الاقتصادية، إلّا أنّ الظروف السياسية ذلك الوقت جعلت من الممكن قيام الإمارتين الساحليتَين. وبحلول العام 1070، كانت الخلافة الفاطمية في القاهرة في وضع متأزّم. بعد ذلك بوقت قصير، تسلّم زمام السلطة القائد العسكري الأرمني بدر الجمالي، وحكم باسم الخليفة كقائد عسكري مطلق. في بلاد الشام، كان زعماء القبائل التركمانية يركّزون أنفسهم هنا وهناك، ويتورّطون أكثر فأكثر في الشؤون المحلّية، على الأخصّ في حلب وفي صور. وفي بلاد فارس والعراق، كان السلجوقيون في أوج قوّتهم ويهدّدون باجتياح الدولة الفاطمية. في هذه الأثناء، في الشمال، كان البيزنطيون يهاجمون مجدّدًا، ويقومون بغزوات متكرّرة على أماكن المرداسيّين.

وفي الوقت ذاته تقريبًا الّذي كان فيه ابن أبي عقيل وابن عمّار يتحدّيان السلطة الفاطمية جهارًا في صور وطرابلس، وبينما كان معلّى يحكم دمشق بدون تفويض، أنكر عزّ الدولة محمود في حلب سيطرة الفاطميّين رسميًّا، ونادى باسمَي الخليفة العبّاسي والسلطان

Sir Hamilton Gibb, “The caliphate and the Arab states”, p. 94. -99

السلجوقي في 30 تمّوز / يوليو 1070 في المسجد الرئيسي في المدينة:

«فجمع محمود أهل حلب وقال لهم: «قد ذهبتْ دولة المصريّين! وهذه دولة جديدة، ومملكة سديدة ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلّون دماءكم لأجل مذهبكم [الشيعي] والرأي أن نُقيم الخطبة خوفًا من أن يجيئنا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذلٌ».

فأجاب مشايخ البلد إلى ذلك فلبس المؤذّنونَ والخطيب السّواد [العبّاسي][100]، وخطب [خطبة الجمعة] للإمام [الخليفة] القائم، وبعدَه للسلطان ألب أرسلان (...)»[101]

في 19 كانون الثاني / يناير 1071، أقلّ من ستّة أشهر بعد أن نودي باسمه في مساجد حلب، قطع ألب أرسلان نهر الفرات ودخل بلاد الشام. وكان من ضمن بطانته قاضٍ سابق لحلب، أبو جعفر محمّد البخاري:

«فقال له الفقيه أبو جعفر قاضي حلب: «يا مولانا احمد الله تعالى على هذه النعمة؛ وهي أنّ هذا النهر لم يقطعه قطّ تركي إلّا مملوك. وأنت قد قطعته ملكًا». فأحضر [ألب أرسلان] الأمراء والأتراك وأمره بإعادة القول. (...) فحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا.»[102]

100- الأسود يميّز العبّاسيّين من الفاطميّين (الأبيض).
101- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 17-8.
102- **المصدر نفسه**، II، ص. 20. تدلّ كلمة «مملوك» في هذا المقطع على دولة تابعة بدلًا من أن تكون سيّدة، وليس على حالة العبودية.

الفصل الخامس
فترة تدخّل السلاجقة
1097 – 1071

لم يكن احتلال السلاجقة لبلاد الشام مسألة فتح عسكري فقط، بل كان عملية اشتملت على عدد من العوامل المترابطة والمتكاملة. على الصعيد الخارجي، كان هناك تقلّص النفوذ الفاطمي في الجنوب والانحطاط المتزامن للقوّة البيزنطية في الشمال من ناحية، ومن الناحية الأخرى، الضغط العسكري المتقطّع ولكن العنيد لدولة السلاجقة الناشطة من الشرق. على الصعيد الداخلي، حدثت ثلاثة تطوّرات اكتسبت أهمّية خاصّة: فالقوّة القبَلية العربية في منطقة حلب دخلت في طور انحطاط متسارع؛ وتراجع قوّة الفاطميّين في بلاد الشام الوسطى والجنوبية خلّف حالة من الفوضى السياسية المحيّرة؛ وكان تسرّب قوّات قبَلية أرمنية، وكردية، وتركمانية على الأخصّ، إلى المناطق غربيّ الفرات قد بدأ يؤثّر على الساحة السياسية والعسكرية في بلاد الشام.

في الخلفية، كانت عوامل اقتصادية تلعب دورها أيضًا. كانت على ما يبدو تجارة بحرية جديدة بين مصر والدول المدينية الإيطالية الناشئة (على الأخصّ جنوة، بيزا وأمالفي) تحدو الفاطميّين إلى إحكام سيطرتهم على البحر الأحمر، وكذلك إلى بذل الجهود

للحفاظ على سيطرتهم على فلسطين، وعلى أكبر قدر ممكن من مرافئ بلاد الشام. في هذه الأثناء، كانت التجارة البرّية من الشرق، المنبعثة إلى حدّ كبير بفضل قيام النظام السلجوقي الجديد في بلاد فارس والعراق، تبحث دون كلل عن منافذ جديدة إلى البحر المتوسّط عن طريق بلاد الشام الشمالية.

إنّ التفاعل بين هذه العوامل المختلفة، على مدى خمسة عشر عامًا، هو الّذي أدىّ بالنهاية إلى إخضاع بلاد الشام لحكم السلاجقة لفترة قصيرة في العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر. وللتوصّل إلى تفهّم كامل لتاريخ بلاد الشام خلال هذه الفترة، من الضروري أن نتذكّر كلّ العوامل المساهمة في تعقيد الوضع.

* * *

عام 1071، عندما قام السلطان السلجوقي ألب أرسلان بعبوره التاريخي للفرات، كان ضعف موقف الخلافة الفاطمية هو العامل الرئيسي للوضع السياسي في بلاد الشام. بالأساس، كان الفاطميّون على رأس مملكة متوسّعة قائمة على ادّعائهم الحقّ – كأئمّة إسماعيليّين – بالسيادة الشاملة على المسلمين. بالرغم من أن الإسماعيلية لم تحظَ قطّ بقبول واسع كبديل للسنّية أو حتّى للشيعية الإثني عشرية، إلّا أنّ محاولة الفاطميّين السيطرة السياسية على العالم الإسلامي كانت ناجحة إلى حدّ ما، في وقت كانت فيه

الفصل الخامس
فترة تدخّل السلاجقة
1071 – 1097

لم يكن احتلال السلاجقة لبلاد الشام مسألة فتح عسكري فقط، بل كان عملية اشتملت على عدد من العوامل المترابطة والمتكاملة. على الصعيد الخارجي، كان هناك تقلّص النفوذ الفاطمي في الجنوب والانحطاط المتزامن للقوّة البيزنطية في الشمال من ناحية، ومن الناحية الأخرى، الضغط العسكري المتقطّع ولكن العنيد لدولة السلاجقة الناشطة من الشرق. على الصعيد الداخلي، حدثت ثلاثة تطوّرات اكتسبت أهمّية خاصّة: فالقوّة القبَلية العربية في منطقة حلب دخلت في طور انحطاط متسارع؛ وتراجع قوّة الفاطميّين في بلاد الشام الوسطى والجنوبية خلّف حالة من الفوضى السياسية المحيّرة؛ وكان تسرّب قوّات قبَلية أرمنية، وكردية، وتركمانية على الأخصّ، إلى المناطق غربيّ الفرات قد بدأ يؤثّر على الساحة السياسية والعسكرية في بلاد الشام.

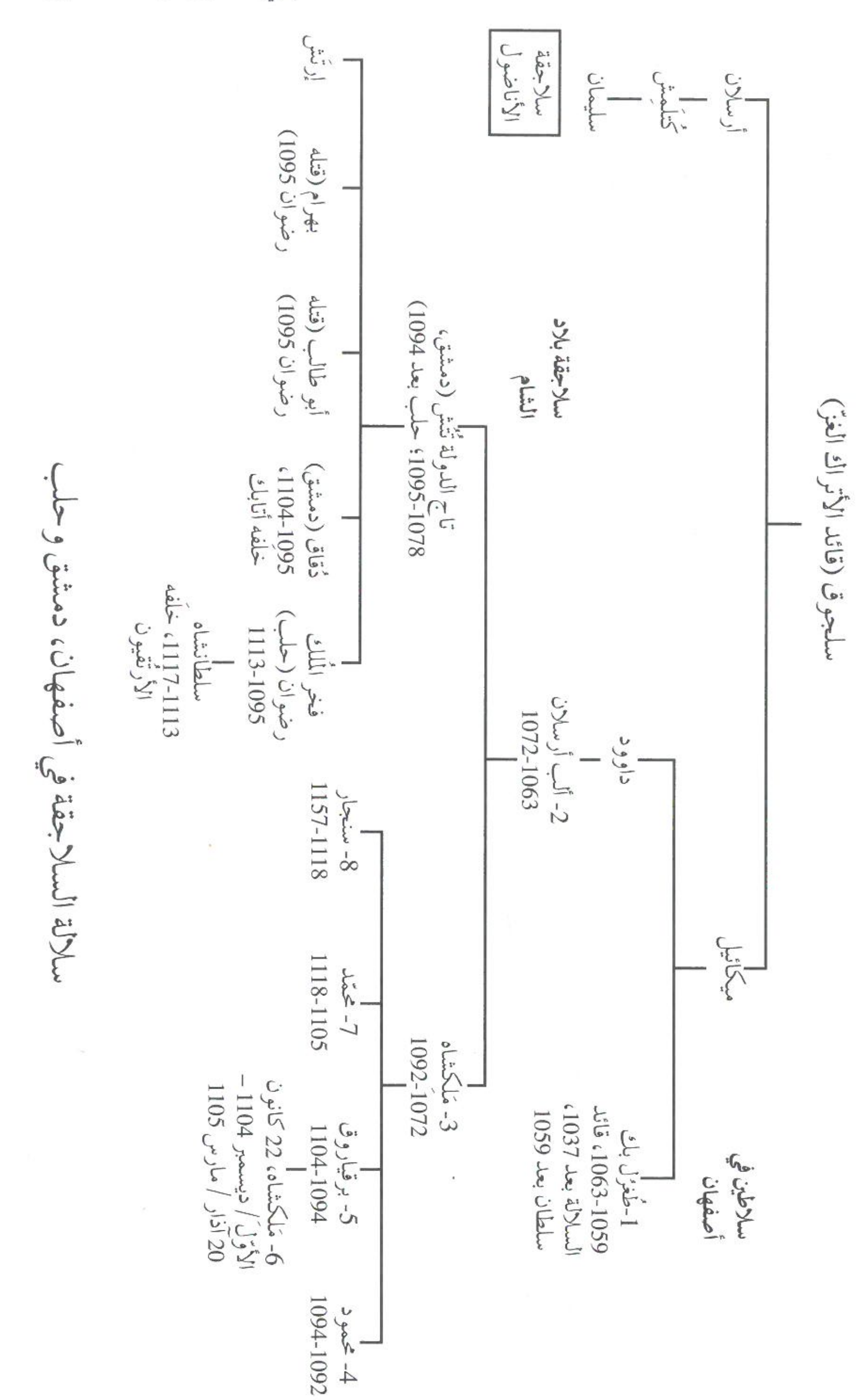
في الخلفية، كانت عوامل اقتصادية تلعب دورها أيضًا. كانت على ما يبدو تجارة بحرية جديدة بين مصر والدول المدينية الإيطالية الناشئة (على الأخصّ جنوة، بيزا وأمالفي) تحدو الفاطميّين إلى إحكام سيطرتهم على البحر الأحمر، وكذلك إلى بذل الجهود

للحفاظ على سيطرتهم على فلسطين، وعلى أكبر قدر ممكن من مرافئ بلاد الشام. في هذه الأثناء، كانت التجارة البرّية من الشرق، المنبعثة إلى حدّ كبير بفضل قيام النظام السلجوقي الجديد في بلاد فارس والعراق، تبحث دون كلل عن منافذ جديدة إلى البحر المتوسّط عن طريق بلاد الشام الشمالية.

إنّ التفاعل بين هذه العوامل المختلفة، على مدى خمسة عشر عامًا، هو الّذي أدىّ بالنهاية إلى إخضاع بلاد الشام لحكم السلاجقة لفترة قصيرة في العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر. وللتوصّل إلى تفهّم كامل لتاريخ بلاد الشام خلال هذه الفترة، من الضروري أن نتذكّر كلّ العوامل المساهمة في تعقيد الوضع.

* * *

عام 1071، عندما قام السلطان السلجوقي ألب أرسلان بعبوره التاريخي للفرات، كان ضعف موقف الخلافة الفاطمية هو العامل الرئيسي للوضع السياسي في بلاد الشام. بالأساس، كان الفاطميّون على رأس مملكة متوسّعة قائمة على ادّعائهم الحقّ – كأئمّة إسماعيليّين – بالسيادة الشاملة على المسلمين. بالرغم من أن الإسماعيلية لم تحظَ قطّ بقبول واسع كبديل للسنّية أو حتّى للشيعية الإثنَي عشرية، إلّا أنّ محاولة الفاطميّين السيطرة السياسية على العالم الإسلامي كانت ناجحة إلى حدّ ما، في وقت كانت فيه



سلالة السلاجقة في أصفهان، دمشق وحلب

الخلافة العبّاسية في بغداد عاجزة عمليًّا. إلّا أنّه، في العام 1058، أعاد احتلال السلاجقة الأخير لبغداد إحياء هيبة الخلفاء العبّاسيّين كالرؤساء الشرعيّين للأمّة الإسلامية. فوجدت الخلافة الفاطمية في مصر نفسها في موقع دفاعي، بتزعزع الأسس النظرية لسلطتها، وسرعان ما وقعت في أزمة داخلية تركت فيما بعد على ما كانت عليه الدولة الفاطمية تأثيرًا لا يمّحي.

عندما وصل الفاطميون إلى القاهرة لأوّل مرّة، كان جيشهم في معظمه من أهل القبائل البربر. مع الوقت أُضيف جنود سودانيون كمشاة. وبعد ذلك بوقت، أُلحق بوحدات البربر والسودانيّين في الجيش الفاطمي مرتزقة، من أرمن وغيرهم، وكذلك مماليك أتراك نُظّموا في أفواج من الفرسان المتفوّقين. في هذه الأثناء، كان زعماء قبائل عرب من مختلف المناطق يتوافدون إلى القاهرة مع أتباعهم، على أمل أن يحظوا بمركز في خدمة الخلفاء. وجرى تجنيد عدد من هؤلاء الزعماء العرب في الجيش كضبّاط فرسان. الأكثر شهرة بينهم كانوا من آل حمدان، أمراء طموحين كان أجدادهم حكّام الموصل وحلب حتّى العقود الأولى من القرن الحادي عشر. وأيّام خلافة المستنصر، ترقّى الأمير الحمداني ناصر الدولة – أحد أبناء الشعبة الموصلية من العائلة – في خدمة الفاطميّين وعُيّن عدّة مرّات كحاكم إقليمي في بلاد الشام. وفي العام 1070، عُيّن قائدًا عسكريًّا لإحدى أبرز فصائل المماليك الخيّالة في القاهرة.

وكان الخلفاء الفاطميّون، لإبقاء جيشهم الخليط الضخم تحت السيطرة، يثيرون الحسد والنزاعات بين عناصره العرقية المختلفة. نجح هذا المخطّط في معظم الأحيان؛ لكن في بعض الأوقات كان يتعذّر ضبط الخلافات في الجيش ضمن حدودها، فيتدهور الوضع إلى تمرّدات وشغب. وأصبح هذا أكثر حدوثًا بعد احتلال السلاجقة لبغداد، عندما استعادت الخلافة العبّاسية هيبتها وأخذت هيبة الخلافة الفاطمية تتقلّص. وعلى الأرجح في محاولة لإحكام سيطرة أكثر صرامة على جيش يتفاقم تمرّده، عيّن الخليفةُ المستنصرُ القائدَ الأرمنيّ بدر الجمالي – وهو ضابط ذو كفاءة بارزة وبأس – في منصب «أمير الجيوش»، أي القائد العامّ، سنة 1070. والظاهر أنّ عددًا من الضبّاط الفاطميّين الكبار، بمن فيهم الأمير الحمداني ناصر الدولة، ساءهم هذا التعيين.

وما إن تسلّم بدر الجمالي القيادة العليا لجيش المستنصر حتّى اندلعت ثورة القاضي ابن أبي عقيل في صور[1]. وأُرسل بدر في الحال إلى بلاد الشام على رأس قوّة من البربر والأرمن لمعالجة هذا الطارئ. فاغتنم الأمير الحمداني ناصر الدولة فرصة ذهابه للاستيلاء على السلطة في القاهرة، بالتآمر مع بعض الضبّاط البربر. ولإبقاء بدر مقيّدًا في عكّا حيث كان قد أقام مقرّ قيادته، ومنعه من العودة لنجدة الخليفة، حرّض المتآمرون عربَ بني كلب في أواسط بلاد الشام وعرب طيّ في فلسطين على الثورة ضدّه؛ كما أنّهم شجّعوا

1- راجع أعلاه، ص. 172-3.

حاكم دمشق الثائر، معلّى بن حيدرة[2]، على المثابرة في تحدّي السلطة الفاطمية، بينما صمد ابن أبي عقيل بنجاح أمام أمير الجيوش في صور. بالإضافة إلى ذلك، أرسل ناصر الدولة وشركاؤه البربر مراسيل إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان، يدعونه فيها إلى احتلال بلاد الشام والإطاحة بالخلافة الفاطمية في مصر. وفي الواقع، كان اجتياز ألب أرسلان للفرات في كانون الأوّل / يناير 1071 ثمّ دخوله إلى نواحي حلب استجابة مباشرة لتلك الدعوة.

عندما عُزل بدر الجمالي عن قاعدته الأساسية في مصر، وواجه موجة من العصيان المدني والقبلي في أواسط بلاد الشام وجنوبها، كما هدّده اجتياح السلاجقة من الشمال، وجد نفسه مجمّدًا في عكّا، وأخذ يبحث عن حليف يساعده على الخروج من مأزقه. فجاءته استجابة سريعة من أحد كبار زعماء التركمان في الأناضول، أتْسِزْ بن أوق. في الوقت نفسه تقريبًا الّذي كان فيه ألب أرسلان في الشمال يواصل تقدّمه باتّجاه حلب، ظهر فجأة أتْسِزْ هذا في فلسطين مع أتباعه القبليّين، لنجدة أمير الجيوش الفاطمي، كما يبدو، ضدّ متمرّدي بني كلب وبني طيّ. وبوصوله إلى الساحة، أصبح دور التركمان واضحًا في الصراع على بلاد الشام.

* * *

كان ظهور التركمان في الأراضي غربيّ الفرات جزءًا من

2- راجع أعلاه، ص. 171-2.

عملية إعادة توزيع عرقية أوسع، أخذت مجراها في الأراضي الشرقية للمسلمين والممتلكات البيزنطية المحاذية لها، على مدى حوالى مئة سنة. فبدءًا من النصف الثاني للقرن العاشر، كان التوسّع البيزنطي في آسيا الصغرى تحت حكم أباطرة السلالة المقدونية و«المغتصبين المتألّقين»[3] قد أدّى إلى تشتيت المجتمعات الأرمنية والكردية من مناطق إستراتيجية على حدود الأطراف العليا للفرات ودجلة. وفي 963-965، أقام الإمبراطور نقفورس فوكاس[4] مستعمرات أرمنية في قيليقيا وفي الزاوية الشمالية الغربية لبلاد الشام، بعد أن انتزع هذه الأرجاء من حمدانيّي حلب. سنة 999، رحّل الإمبراطور بازيل الثاني[5] أعدادًا أخرى من الأرمن إلى تلك المناطق. وبين العامَين 1000 و1064، إذ راحت الممالك والإمارات الصغيرة في أرمينيا المنقسمة تُضَمّ إلى الإمبراطورية البيزنطية، وعندما أخذ السلجوقيون يمارسون الضغط من الشرق، اكتسبت «الهجرة [الأرمنية]، الّتي كانت قد حرّكتها سياسة بيزنطية باتّجاه جبال طوروس وسهل قيليقيا واللكام وشماليّ بلاد الشام» زخمًا مستقلًّا واستمرّت بنمط متزايد بانتظام[6].

بين المهاجرين، كانت هناك زُمَر من المحاربين الطليقين ممّن انخرطوا في خدمة أباطرة البيزنطيّين أو الحكّام المسلمين كمرتزقة. كان بدر الجمالي، أمير جيوش مصر تحت حكم الخليفة المستنصر، في الأصل

3- راجع أعلاه، ص. 100.
4- راجع أعلاه، ص. 100، الحاشية رقم 30.
5- راجع أعلاه، ص. 144.
6- Avedis Sanjian, **The Armenian Communities in Syria under Ottoman Rule** (Cambridge, Mass., 1965), pp. 7-9.

قائدًا لإحدى تلك الزمَر الأرمنية المحاربة. ولم يتعارض اعتناقه الشخصي للإسلام، الّذي ضمن له مركزه في خدمة الفاطميّين، مع علاقته بأتباعه الأرمن المسيحيين، الّذين كانوا منظّمين في فيلق خاصّ ضمن الجيش الفاطمي تحت إمرته مباشرة[7].

بينما كان انسياق الأرمن نحو الغرب، خلال القرنَين العاشر والحادي عشر، قد انطلق من سياسة بيزنطية، فهجرة الأكراد، الّتي حدثت في حوالى الوقت ذاته تقريبًا، يبدو أنّها كانت عمومًا تلقائية. بين المهاجرين الأكراد، كما بين الأرمن، كانت مجموعات من المقاتلين المتنقّلين الّذين كانوا ينخرطون سريعًا في صفوف المرتزقة. وتدلّ على الوجود المبكّر لعناصر كردية عسكرية في شماليّ بلاد الشام الحامية الكردية الّتي أقامها عام 1029 نصر بن مرداس في القلعة، على الطرف الجنوبيّ من جبل بهراء، والّتي سُمّيت بالتالي حصن الأكراد[8]. وفي العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر، أدّى فتح السلاجقة للإمارات الكردية في غربيّ بلاد فارس وشماليّ بلاد ما بين النهرين إلى تشتيت أكبر للأكراد، وبالتالي إلى ازدياد ملحوظ في حركة انتقال الأكراد إلى بلاد الشام[9].

إلّا أنّه بدءًا من منتصف القرن الحادي عشر، طغى على الانسياق التدريجيّ المستمرّ للأرمن والأكراد نحو الغرب سيلٌ

7- قد يكون بعض هؤلاء الجنود الأرمن قد اعتنقوا الإسلام أيضًا، مثل قائدهم، لدى انضوائهم في جيش الفاطميّين.
8- راجع أعلاه، ص. 158-9.
9- H. A. R. Gibb, **The Damascus Chronicle of the Crusades...**, p. 91; Claude Cahen, "The Turkish invasion", in **A History of the Crusades**, edited by Kenneth M. Setton, I, p. 135-53.

عَرمٌ من التركمان بالاتّجاه ذاته. أمّا القبائل الّتي شاركت بهذه الهجرات الجديدة فكانت من الرعيان المنتمين في معظمهم إلى الغُزّ – المجموعة التركمانية نفسها الّتي كان السلاجقةُ زعماءَها المعترَف بهم[10]. وكانوا قد اجتازوا نهر جيحون (آمودريا) إلى فارس للمرّة الأولى، على أثر الفتح السلجوقي ليقيموا في منطقة الديلم، إلى جنوبيّ غربيّ بحر قزوين. والسلاجقة، الّذين كانوا يتوقون إلى ترتيب إدارة منظّمة في البلدان الّتي احتلّوها، بذلوا أقصى الجهد للحؤول دون استيطان أتباعهم القبليّين في المناطق الوسطى، حيث قد يكون وجودهم باعثًا على المشاكل. وكان هذا السبب الرئيسي في احتشاد التركمان في الأطراف الغربية لفتوحات السلاجقة، حيث كوّنت مستوطناتهم الحدودية («أجّ» باللغة التركية) خطّ طليعة طبيعيًّا لتوسّع سلجوقيّ مستقبليّ. كذلك الأمر في العراق، عندما أصبحت تحت حكم السلاجقة، لم يُسمح للتركمان بالاستقرار في المناطق الوسطى منها، حيث كانت الصحارى الحارّة غير ملائمة على كلّ حال لتربية الأغنام، وحيث كانت القبائل العربية المحلّية تقاوم بكلّ ضراوة توطين القادمين الجدد. بدلًا من ذلك، انتقلوا إلى منطقة التلال الكردية والأرمنية في شمالي بلاد ما بين النهرين، حيث المناخ المعتدل والمراعي الوافرة أكثر حفاوة. بالإضافة إلى ذلك، كان الوصول من هذه المناطق الكردية والأرمنية إلى المراعي الخصبة

10- راجع أعلاه، ص. 164. عن انتشار التركمان غربًا، راجع Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 135-53.

الأبعد إلى الغرب، في الأناضول وبلاد الشام، سهلًا ومباشرًا.

في الأناضول، كانت الحصون البيزنطية الدفاعية منظّمة لمقاومة تقدّم الجيوش الغازية. ولكنّ التغلغل التدريجيّ لمجموعات رعوية إلى داخل الأراضي البيزنطية كان غير قابل للكشف النظامي، ولا مجال لوقفه فعليًّا. لم يكن هناك حاجز فعلي أمام المدّ التركمانيّ في بلاد الشام، بسبب الانقسامات بين المرداسيّين وأتباعهم من بني كلاب في منطقة حلب، وانهيار السلطة الفاطمية في المناطق الوسطى والجنوبية. بل في الواقع كانت هناك مناسبات دُعي فيها زعماء تركمان، أمثال هارون بن خان[11]، إلى دخول مناطق معيّنة في بلاد الشام مع أتباعهم، لمناصرة فريق ما في الخلافات القبَلية العربية الجارية، أو في النزاعات السياسية المحلّية. وبالتالي، بينما أُنشئت مستوطنات «أجّ» نظامية تركمانية بنجاح في عمق الأناضول البيزنطية، تمكّنت مجموعات صغيرة من التركمان المستقلّين من بلاد الديلم، شماليّ بلاد ما بين النهرين والأناضول، من الدخول إلى بلاد الشام، وصولًا في الجنوب إلى فلسطين[12].

وباستيطانهم في مناطق قصية عن مراكز الإدارة السلجوقية في بلاد فارس والعراق، فقدَ أولئك التركمان اتّصالهم المباشر بالقيادة السلجوقية. كأتراك غُزّ، استمرّوا في الاعتراف بالسلاجقة كقادتهم الأعلين؛ وكمسلمين سنّيّين ورِعين، كانوا يُذعنون للسلطان

11- راجع أعلاه، ص. 169-70.
12- أحد زعماء التركمان ممّن استوطنوا فلسطين قبل 1070 كان قُرلو (قوروغلو؟)، الّذي ناصر ابن أبي عقيل في صور في ثورته ضدّ الفاطميّين. راجع أعلاه، ص. 172-3.

السلجوقي في أصفهان كمدبّر دائم للسلطة الحاكمة في الدولة الشرعية الشاملة الوحيدة، الّتي كان الخليفة العبّاسيّ في بغداد رأسها نظريًّا. من ناحية أخرى، كانت مستوطنات «الأجّ» النابتة بأعداد لا تُحصى في شماليّ غربيّ بلاد فارس، وشماليّ بلاد ما بين النهرين، والأناضول وبلاد الشام، تبحث عن مصالحها المستقلّة، كلٌّ منها بقيادة زعيمها الخاصّ. فكانت التحالفات القبلية والسياسية الّتي كانوا يعقدونها، والحروب الّتي كانوا يخوضونها والنزاعات المحلّية الّتي كانوا يتدخّلون فيها في معظمها مستقلّة عن أيّة توجيهات سلجوقية.

* * *

وكان المقدّم الأناضولي للأجّ أتْسِزْ بن أوق، الّذي وصل إلى فلسطين سنة 1071 لمساعدة أمير الجيوش الفاطميّ، بدر الجمالي، على قمع ثورات بني كلب وبني طيّ، مثلاً على ذلك. كان ظهوره المفاجئ في فلسطين، على حدّ معلوماتنا، مستقلًّا تمامًا عن الغزو السلجوقيّ لبلاد الشام الشمالية، الّذي قاده ألب أرسلان والمتزامن معه تقريبًا. في بلاد الشام الوسطى والجنوبية، بادر أتْسِزْ على الفور إلى القيام بفتوحات خاصّة به لم يكن للسلاجقة أيّ تورّط فيها، على الأقلّ في ذلك الوقت. في هذه الأثناء، وقف بدر الجمالي، الّذي كان بالفعل قد دعا أتْسِزْ إلى المجيء إلى فلسطين، عاجزًا في عكّا، غير قادر على منع التركماني الطّموح من الاستمرار في فتوحاته:

«جمع أتسز بن أوق مقدّم الأتراك الغزّ بالشام واحتشد وقصد أرض فلسطين فافتتح الرملة وبيت المقدس وضايق دمشق وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها (...) ورعى زرعها عدّة سنين في كلّ ربيع لمضايقتها والطمع في ملكتها ولم يزل متردّدًا إلى أن اضطرب أمرها وخربت المنازل بها وزاد غلاء الأسعار فيها وعُدم تواصل الأوقات إليها وجلا أكثر أهلها عنها».[13]

وكان حصار التركمان لدمشق في سنته الرابعة عندما تخلّى عنها معلّى بن حيدرة وفرّ، وكان قد حكم المدينة منذ 1069، متحدّيًا سلطة الفاطميّين. إلّا أنّ المدينة تمكّنت من الصمود سنة أخرى أمام أتْسِزْ قبل أن تسقط أخيرًا:

«لمّا هرب معلّى بن حيدرة بن منزو (...) من ولاية دمشق (...) اجتمعت المصامدة إلى الأمير زين الدولة انتصار بن يحيى زمامهم والمقدّم واتّفق رأيهم على تقديمه في ولاية دمشق وتقوية نفسه على الاستيلاء عليها ودفع من ينازعه فيها ووقع ذلك من أكثر الناس أجمل موقع وأحسن موضع وارتضوا بهِ ومالوا إليه لسداد طريقته وحميد سيرته، (...) فاستقرّ الأمر على هذه القضية والسجية المرضية في يوم الأحد مستهلّ المحرّم [من السنة 468، 16 آب / أوغسطس 1075]. وفي هذه السنة اشتدّ غلاء الأسعار في دمشق وعُدمت الأقوات ونفدت الغلّات منها (...) ووقع الخلف بين المصامدة وأحداث البلد. وعرف الملك أتْسِز بن أوق مقدّم الأتراك وما آلت إليه الحال وكان متوقّعًا لمثل ذلك فنزل عليها وبالغ في المضايقة لها إلى أن اقتضت الصورة وقادت الضرورة إلى تسليمها إليه بالأمان وتوثّق منه بوكيد الإيمان.

13- ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق** (بيروت، 1908)، ص. 98-9. راجع أيضًا ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت، 1966)، X، ص. 68.

فلمّا دخلها [أتْسِزْ] في ذي القعدة سنة 468 [حزيران / يونيو – تمّوز / يوليو 1076] (...) وفي هذه السنة خُطِبَ للإمام المقتدي بالله [الخليفة العبّاسي] على منبر دمشق (...) وقُطِعت الخطبة للمستنصر.»[14]

عندما فتح أتْسِزْ دمشق، أصبح مؤسّس أوّل إمارة تركمانية في بلاد الشام. وسرعان ما أصبحت سيطرته تشمل كلّ بلاد الشام الوسطى والجنوبية، باستثناء الإمارات الجديدة المستقلّة لبني أبي عقيل في صور، وبني عمّار في طرابلس، وبعض القواعد الساحلية مثل بيروت وصيدا ويافا وعسقلان، الّتي تمكّن الفاطميون من الاحتفاظ بها[15].

ولضمان ذاته في ممتلكاته الجديدة في بلاد الشام، اعترف أتْسِزْ بسلطة السلطان السلجوقيّ[16]. بالإضافة إلى ذلك، ركّز نفسه حاكمًا فعليًّا مستقلًّا واتّخذ لنفسه اللقب الفخم: «الملك المعظّم»[17]. وكان

14- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 108-9. راجع أيضًا ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 99-100؛ ابن عساكر، **التاريخ الكبير** (دمشق 1330-1332 هـ.)، II، ص. 331. وفق ابن الأثير، اسم قائد الحامية الذي تولّى الدفاع عن دمشق هو رزين الدولة. يشير النصّ إليه وإلى أتباعه بالمصامدة، لأنّهم كانوا ينتمون إلى قبيلة بني مصمودة البربرية.

15- ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** (دمشق، 1962)، ص. 98، 109، 225، 258-9.

16- Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 151.

17- ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب** (دمشق 1951)، II، ص. 47. هذه الألقاب الملكية، التي كانت تُستعمل منذ أيّام آخر البويهيّين، أطلقها السلجوقيّون على حكّام المقاطعات الموالين، على الأقلّ نظريًّا، للسلاطين السلجوقيّين. في نهاية المطاف، حلت هذه الألقاب محل ألقاب «الدولة» (سيف الدولة، عضد الدولة، إلخ.)، الّتي كانت تُطلق في القرن السابق على كبار موظّفي الدولة والضبّاط وحكّام الإمارات الّذين كانوا يستمدّون سلطتهم، نظريًّا، من الخلفاء العبّاسيّين أو الفاطميّين. واستُخدمت هذه الألقاب الملكية لاحقًا كألقاب إضافية لسلاطين الأيّوبيّين والفاطميّين في مصر وبلاد الشام، وبقيت متداوَلة حتّى أوائل القرن السادس عشر.

واثقًا من مركزه في دمشق إلى حدّ التفكير بمشاريع لتوسيع سيطرته شمالًا إلى حلب[18] وحتّى جنوبًا إلى مصر[19].

* * *

لو أنّ السلطان السلجوقي ألب أرسلان استمرّ بحملته على بلاد الشام إلى نهايتها المنطقية، لما سنحت الفرصة لأتْسِزْ بن أوق بمتابعة فتوحاته المستقلّة. إلّا أنّه، كما حدث، لم يمكث ألب أرسلان في بلاد الشام لمدّة طويلة. كانت غايته الفورية، بعد اجتيازه الفرات، إقامة محمية سلجوقية فعلية في حلب. هنا، كما أسلفنا[20]، كان الحاكم المرداسيّ عزّ الدولة محمود قد قطع علائقه مع الفاطميّين، وأعلن اعترافه الشكليّ بسلطة السلطان السلجوقيّ والخليفة العبّاسيّ. لكنّ محمودًا هذا كان غير راغبٍ في مغادرة حلب ومقابلة ألب أرسلان «لدَوس بساطه»، أو «لوطء بساطه»، كما كان هذا الأخير يلحّ عليه أن يفعل[21]. فزحف السلطان على حلب وضرب حصارًا عليها إلى أن أُرغم محمود على الرضوخ.

في ذلك الوقت بالذات ورد الخبر لألب أرسلان بأنّ الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس[22] كان يتقدّم على رأس قوّة عظيمة

18- ابن العديم، **المصدر نفسه**.

19- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 109-12.

20- راجع أعلاه، ص. 174-5.

21- ابن الأثير **المصدر نفسه**، X، ص. 64؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 19.

22- راجع أعلاه، ص. 170.

فلمّا دخلها [أتْسِزْ] في ذي القعدة سنة 468 [حزيران / يونيو – تمّوز / يوليو 1076] (...) وفي هذه السنة خُطِبَ للإمام المقتدي بالله [الخليفة العبّاسي] على منبر دمشق (...) وقُطِعت الخطبة للمستنصر.»[14]

عندما فتح أتْسِزْ دمشق، أصبح مؤسّس أوّل إمارة تركمانية في بلاد الشام. وسرعان ما أصبحت سيطرته تشمل كلّ بلاد الشام الوسطى والجنوبية، باستثناء الإمارات الجديدة المستقلّة لبني أبي عقيل في صور، وبني عمّار في طرابلس، وبعض القواعد الساحلية مثل بيروت وصيدا ويافا وعسقلان، الّتي تمكّن الفاطميون من الاحتفاظ بها[15].

ولضمان ذاته في ممتلكاته الجديدة في بلاد الشام، اعترف أتْسِزْ بسلطة السلطان السلجوقيّ[16]. بالإضافة إلى ذلك، ركّز نفسه حاكمًا فعليًّا مستقلًّا واتّخذ لنفسه اللقب الفخم: «الملك المعظّم»[17]. وكان

14- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 108-9. راجع أيضًا ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 99-100؛ ابن عساكر، **التاريخ الكبير** (دمشق 1330-1332 هـ.)، II، ص. 331. وفق ابن الأثير، اسم قائد الحامية الذي تولّى الدفاع عن دمشق هو رزين الدولة. يشير النصّ إليه وإلى أتباعه بالمصامدة، لأنّهم كانوا ينتمون إلى قبيلة بني مصمودة البربرية.

15- ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** (دمشق، 1962)، ص. 98، 109، 225، 258-9.

16- Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 151.

17- ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب** (دمشق 1951)، II، ص. 47. هذه الألقاب المَلكية، التي كانت تُستعمل منذ أيّام آخر البويهيّين، أطلقها السلجوقيّون على حكّام المقاطعات الموالين، على الأقلّ نظريًّا، للسلاطين السلجوقيّين. في نهاية المطاف، حلّت هذه الألقاب محل ألقاب «الدولة» (سيف الدولة، عضد الدولة، إلخ.)، الّتي كانت تُطلق في القرن السابق على كبار موظّفي الدولة والضبّاط وحكّام الإمارات الّذين كانوا يستمدّون سلطتهم، نظريًّا، من الخلفاء العبّاسيّين أو الفاطميّين. واستُخدمت هذه الألقاب المَلكية لاحقًا كألقاب إضافية لسلاطين الأيّوبيّين والفاطميّين في مصر وبلاد الشام، وبقيت متداوَلة حتّى أوائل القرن السادس عشر.

واثقًا من مركزه في دمشق إلى حدّ التفكير بمشاريع لتوسيع سيطرته شمالًا إلى حلب[18] وحتّى جنوبًا إلى مصر[19].

* * *

لو أنّ السلطان السلجوقي ألب أرسلان استمرّ بحملته على بلاد الشام إلى نهايتها المنطقية، لما سنحت الفرصة لأتْسِزْ بن أوق بمتابعة فتوحاته المستقلّة. إلّا أنّه، كما حدث، لم يمكث ألب أرسلان في بلاد الشام لمدّة طويلة. كانت غايته الفورية، بعد اجتيازه الفرات، إقامة محمية سلجوقية فعلية في حلب. هنا، كما أسلفنا[20]، كان الحاكم المرداسيّ عزّ الدولة محمود قد قطع علائقه مع الفاطميّين، وأعلن اعترافه الشكليّ بسلطة السلطان السلجوقيّ والخليفة العبّاسيّ. لكنّ محمودًا هذا كان غير راغبٍ في مغادرة حلب ومقابلة ألب أرسلان «لدَوس بساطه»، أو «لوطء بساطه»، كما كان هذا الأخير يلحّ عليه أن يفعل[21]. فزحف السلطان على حلب وضرب حصارًا عليها إلى أن أُرغم محمود على الرضوخ.

في ذلك الوقت بالذات ورد الخبر لألب أرسلان بأنّ الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس[22] كان يتقدّم على رأس قوّة عظيمة

18- ابن العديم، **المصدر نفسه**.

19- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 109-12.

20- راجع أعلَاه، ص. 174-5.

21- ابن الأثير **المصدر نفسه**، X، ص. 64؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 19.

22- راجع أعلاه، ص. 170.

لمهاجمة الحاميات السلجوقية المقامة حديثًا في شرقي آسيا الصغرى، قرب بحيرة فان. فقطع السلطان السلجوقي عند ذاك حملته في بلاد الشام بسرعة وعاد عبر الفرات للتصدّي لهذا الطارئ. وفي 6 آب 1071[23]، هُزم البيزنطيون هزيمة نكراء قرب مدينة ملاذكرد، في أرمينيا، وأُسر الإمبراطور البيزنطي نفسه. فشغل انتباهَ السلاجقة حينها تنظيمُ الاحتلال السريع للأناضول، الّذي تبع هزيمة البيزنطيّين الحاسمة في ملاذكرد. ولم يقُم السلاجقة بأيّ تحرّك جدّي باتّجاه بلاد الشام لعدّة سنوات.

* * *

في مصر، تمكّن الأمير الحمدانيّ ناصر الدولة وأصحابه البربر من البقاء في السلطة لبعض الوقت، مع أنّ المساعدة المنتظرة من السلاجقة لم تصلهم أبدًا. ولكن في العام 1073، اغتيل ناصر الدولة نتيجة مؤامرة بين مماليكه. فاستغلّ بدر الجمالي الفوضى الّتي تلت ذلك وغادر عكّا، حيث كان قد استطاع الصمود بنجاح أمام المغتصبين منذ 1070، وزحف على القاهرة. وبين 1074 و1077، قمع سلسلة من ثورات البربر والعرب والسودانيّين، ونجح في تنصيب ذاته على رأس نظام عسكري جديد يتمتّع بغطاء رسميّ من

23- هذا هو التاريخ الّذي يمكن استنتاجه من ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 27-8 (7 ذو القعدة 463 هـ).

الخلافة الفاطمية.

وبينما كان بدر الجمالي منهمكًا بتثبيت سلطته الجديدة في مصر، استولى أتْسِزْ بن أوق على دمشق سنة 1076. وفي أوّل السنة التالية، اجتاح أتْسِزْ مصر، إلّا أنّ قوّاته اندحرت أمام بدر الجمالي، واضطرّت إلى الانسحاب قبل أن تتمكّن من إتمام هجومها المخطّط على القاهرة. ولدى عودته إلى بلاد الشام، انشغل أتْسِزْ لفترة في قمع ثورة شعبية في القدس:

«وأتى [أتْسِزْ] البيتَ المقدّس، فرأى أهله قد قبّحوا على أصحابه ومخلّفيه، وحصروهم في محراب داود (...)، فلمّا قارب البلد تحصّن أهله منه وسبّوه، فقاتلهم، ففتح البلد عنوة ونهبه، وقتل من أهله فأكثر حتّى قتل مَن التجأ إلى المسجد الأقصى، وكفّ عمّن كان عند الصخرة وحدها.»[24]

أمّا في دمشق فلم يلقَ أتْسِزْ أيّة صعوبة: «رأى أهلها قد صانوا مخلّفيه وأمواله، فشكرهم، ورفع عنهم الخراج تلك السنة»[25]. إلّا أنّ بدر الجمالي لم يترك أتْسِزْ هناك يتمتّع بالسلام لمدّة طويلة. سنة 1078، أُرسلت قوّة فاطمية من مصر لمحاصرة المقدَّم التركمانيّ في عاصمته في بلاد الشام. في هذه الأثناء، كان السلطان السلجوقي مَلِكشاه (1072-1092) – ابن ألب أرسلان وخليفته – قد أرسل أخاه الطموح والحربيّ تاج الدولة تُتُش إلى بلاد الشام، مع تفويض

24- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 103.

25- **المصدر نفسه**. عن الخراج، راجع أعلاه، ص. 45.

ليقتطع لنفسه مملكة خاصّة هناك. وبينما كانت القوّات الفاطمية تضيّق الحصار على دمشق، كان تُتُش قد وصل إلى شماليّ بلاد الشام، استعدادًا لمهاجمة حلب. فاستنجد به أتْسِزْ ليساعده ضدّ الفاطميّين، واستجاب تُتُش فورًا للنداء. عند ذاك هرعت الجيوش الفاطمية إلى التخلّي عن محاصرة دمشق وانسحبت إلى الشاطئ.

بطلبه المعونة العسكرية ضدّ الفاطميّين من تُتُش المتغطرس، جلب أتْسِزْ نهايته بنفسه عن غير تعمّد:

«وخرج أتْسِزْ إلى [تُتُش] وخدمه وبذل له الطاعة والمناصحة وسلّم البلد إليه فدخلها وأقام بها مُدَيدة ثمّ حدّثته نفسه بالغدر بأتْسِزْ ولاحت له منه أمارات استوحش بها منه متسهلة (كذا) فقبض عليه في شهر ربيع الأوّل [من سنة 471، أيلول / سبتمبر – تشرين الأوّل / أوكتوبر 1078] وقتل أخاه أوّلًا ثمّ أمر بخنقه فَخُنِقَ بِوَتَرٍ في المكان المعتقل فيه وملكَ تاج الدولة دمشق (...) وملك أعمال فلسطين.»[26]

بوفاة أتْسِزْ وتسلّم تُتُش للسلطة في دمشق، بدأت حقبة الحكم السلجوقي في بلاد الشام.

* * *

في هذه الأثناء، في حلب، كانت إمارة المرداسيّين تتداعى

26- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 112. راجع أيضًا ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 111؛ ابن عساكر، **المصدر نفسه**، II، ص. 331.

وتنهار. هنا، كما ذكرنا سابقًا[27]، كان الأمير عزّ الدولة محمود قد نجح في انتزاع السلطة من عمّه عطيّة عام 1066. رفض عطيّة تقبّل هزيمته، وأخذ يتحدّى حكم محمود بدعم فعلي من الحامية البيزنطية في أنطاكية القريبة. وإذ انحاز معظم عرب بني كلاب إلى جانب عطيّة، طلب محمود الدعم من التركمان، مشجّعًا إيّاهم على الاستيطان في أراضيه بأعداد متزايدة. وأدّى هذا بطبيعة الحال إلى إضعاف وضع بني كلاب في بلاد الشام الشمالية وإلى النمو السريع لقوّة التركمان في المنطقة على حساب العرب.

وأتاحت وفاة عطيّة عام 1072[28] لمحمود قدرًا من الارتياح؛ وظلّت سلطته دون منازعة خلال المدّة الباقية من حكمه. إلّا أنّ عرب بني كلاب استمرّوا في إشعال المشاكل له، كما أنّ سلسلة من المؤمرات السياسية في بلاطه جعلته في حالة استنفار دائم، وسبّبت له قلقًا حقيقيًّا. وكان لولب هذه المؤامرات زعيم عربيّ من قبيلة الكنانة – سديد الملك علي بن منقذ – الّذي كان في خدمة محمود، كممثّل سياسي على ما يبدو، منذ 1068[29]. وكان عليّ بن منقذ هذا صاحب مكر ودهاء، وخبيرًا في التخطيط للدسائس. وبحلول العام 1073 كانت شكوك محمود قد أُثيرت بسبب مكائد عليّ السياسية، إلى درجة صمّم فيها على الفرار من بلاط المرداسيّين، وطلب اللجوء لدى بني عمّار في طرابلس. ومن هذه المسافة المأمونة، استمرّ عليّ

27- راجع أعلاه، ص. 169-70.
28- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 31.
29- **المصدر نفسه**، II، ص. 12.

في إدارة عمليّاته السياسية في حلب بمهارة، إلى أن سمحت له وفاة محمود بالعودة إلى عاصمة المرداسيّين[30].

ومن المرجّح أنّ هذه المساجلة الطويلة الأمد من إرهاق فكر محمود ضدّ علي بن منقذ كانت السبب في «قرحة الأمعاء» المزمنة الّتي شكا منها محمود، والّتي أدّت بالنهاية إلى وفاته في جمادى الأولى 467 (ديسمبر 1074 – يناير 1075)[31]. وبالكدّ دام حكم ابنه وخليفته المتهوّر نصر سبعة عشر شهرًا. وكان محمود في الواقع قد أوصى بخلافته إلى ابن أصغر له، شبيب. إلّا أنّ زمرة البلاط المتنفّذين، يقودهم من طرابلس على ما يبدو عليّ بن منقذ، فضّلوا نصرًا. وعندما نُصّب نصر، غادر عليّ بن منقذ طرابلس ورجع إلى حلب[32]، ليعود ويصبح مجدّدًا الشخصية المسيطرة في شؤون السياسة الداخلية لدى المرداسيّين.

وفورًا بعد وفاة محمود وخلافة نصر له، تقدّم أتْسِزْ بن أوق، الّذي كان قد احتلّ دمشق للتوّ، شمالًا إلى أراضي حلب، واستولى على حصن الرفنية في وادي العاصي. من هناك، أخذت قوّات أتْسِزْ تقوم بهجمات منتظمة ضدّ الأطراف الجنوبية لإمارة المرداسيّين. فاستدعى نصر زعيمًا تركمانيًّا من منطقة الفرات اسمه أحمد شاه ليساعده على ردّ تلك الهجمات. وخلال فترة قصيرة، تمكّن أحمد شاه من استرجاع الرفنية لنصر، وطُردت قوّات أتْسِزْ حتّى دمشق.

30- **المصدر نفسه**، II، ص. 34-40.
31- **المصدر نفسه**، II، ص. 42.
32- **المصدر نفسه**، II، ص. 53.

لكن يبدو أنّ نجاح أحمد شاه أخاف الأمير المرداسي:

«وقبض نصر على الأمير أحمد شاه التركي، واعتقله في القلعة [قلعة حلب]؛ وجلس فشرب إلى العصر؛ وحمله السكْر على الخروج إلى الأتراك، وسكناهم في الحاضر، وأراد أن ينهبهم، وحمل عليهم، فرماه التركي بسهم في حلقه فقتله، وتبعه أصحابه فوجدوه قد مات؛ وذلك يوم الأحد مستهلّ شوّال من سنة ثمان وستّين وأربعمئة [9 أيّار / مايو 1076]. وكان نصر أهوج.»[33]

كان نصر الفرد الثاني من عائلة مرداس الّذي مات وهو سكران. فقبل ذلك بأربع سنوات، كان عمّ أبيه عطيّة قد قُتل عندما سقط عن أحد سطوح القسطنطينية حيث كان قد نام بعد جلسة شراب[34]. وكان الحاكم المرداسي التالي لحلب، السابق، أخو نصر المتهتّك، فاقدًا للوعي تقريبًا من فرط السكر عندما حملوه ليتسلّم السلطة في قلعة حلب، واضطروا إلى استعمال البكرات ليرفعوه إلى قاعة العرش:

«وكان والي القلعة رجلًا يُقال له ورد، وعنده الأمير سديد المُلك أبو الحسن بن منقذ، وكان قد عاد من طرابلس إلى حلب في أيّام نصر؛ وعندهما جماعة من الخواصّ؛ فلمّا علموا بذلك استدعوا أخاه سابق بن محمود.

وحُمل من العقبة، وكان ساكنًا بها في الدار الّتي تُنسَب إلى عزيز الدولة فاتك، ورُفع إلى القلعة بحبل من السور، وهو سكران، ونادوا بشعاره، وأطاعه الأجناد

33- **المصدر نفسه**، II، ص. 49.
34- **المصدر نفسه**، II، ص. 31.

(...). ولُقّب عزّ الملك أبو الفضائل[35]، ودخل عليه ابن حيّوس فأنشده قصيدة.»[36]

أوّل قرار رسمي طُلب من سابق اتّخاذه كحاكم كان إطلاق سراح أحمد شاه. على أثر وفاة نصر، طغى على المدينة التركمان المخيّمون حولها، وزعيمهم الموقوف كان الشخص الوحيد الّذي يستطيع ضبطهم. ولكن، ما كاد هيجان التركمان يخمد حتّى كان عرب بني كلاب قد احتشدوا حول أخوَي سابق، وثّاب وشبيب، وابن خالهما وصهرهما مبارك بن شبل، وقاموا بثورة. وبينما طلب سابقٌ المساعدة من أحمد شاه وغيره من زعماء التركمان المحلّيّين، بادر الثوّار إلى طلب العون من السلطان السلجوقيّ مَلِكشاه.

واستجابة للطلب العاجل من أخي سابق، وثّاب، وقريبه، مبارك، اللذَين كانا قد ذهبا إلى أصفهان شخصيًّا للاستنجاد بالسلجوقيّين، أرسل السلطان مِلكشاه أخاه تُتُش إلى بلاد الشام في صيف 1077[37]. وانضمّ عدد من زعماء «الأجّ» التركمان إلى الأمير السلجوقيّ في زحفه غربًا لمهاجمة حلب، بمساعدة عرب بني كلاب وزعمائهم المرداسيّين. وفي حلب، التأم الأهالي حول سابق للدفاع عن المدينة بمساعدة أحمد شاه والتركمان. ولكن، أمام عدد القوّات الزاحفة، بدا حظّهم بالنجاح ضئيلًا جدًّا.

* * *

35- من المرجّح أنّ عليّ بن منقذ، الّذي كان ميّالًا للسخرية، قد أطلق، من باب المزاح، هذه الألقاب التي لا تناسب متهتّكًا سكّيرًا.
36- **المصدر نفسه**، II، ص. 53. عند وفاته عام 1080 أو 1081، كان ابن حيّوس قد جمع ثروة طائلة من مدح حكّام حلب المتتالين. راجع **المصدر نفسه**، II، ص. 74-5.
37- راجع أعلاه، ص. 191-2.

كان شرف الدولة مسلم بن قريش، أمير الموصل والزعيم الأعلى لعرب عُقَيل في شماليّ العراق، الأمير العربيّ الأشدّ قلقًا حيال احتلال تركيّ لحلب. فقد كان أسلافه قد حلّوا محلّ الحمدانيين كحكّام للموصل سنة 990. وعندما فتح السلجوقيون العراق سنة 1058-1059، سارع أمراء عُقَيل إلى عقد صلح معهم، معترفين بسلطتهم لقاء الاحتفاظ بممتلكاتهم. وعليه، عندما أمر السلطان السلجوقيّ مِلكشاه مسلم بن قريش بترك الموصل والتقدّم لدعم تُتُش في حصار حلب، لم يكن أمام مسلم، بصفته تابعًا له، إلّا الطاعة. من ناحية أخرى، كان الأمير العقيليّ يخشى بأن يؤدّي تحطيم الإمارة العربية الرئيسة في بلاد الشام، على يد السلاجقة، إلى مشاكل في إمارته العربية بالذات في العراق.

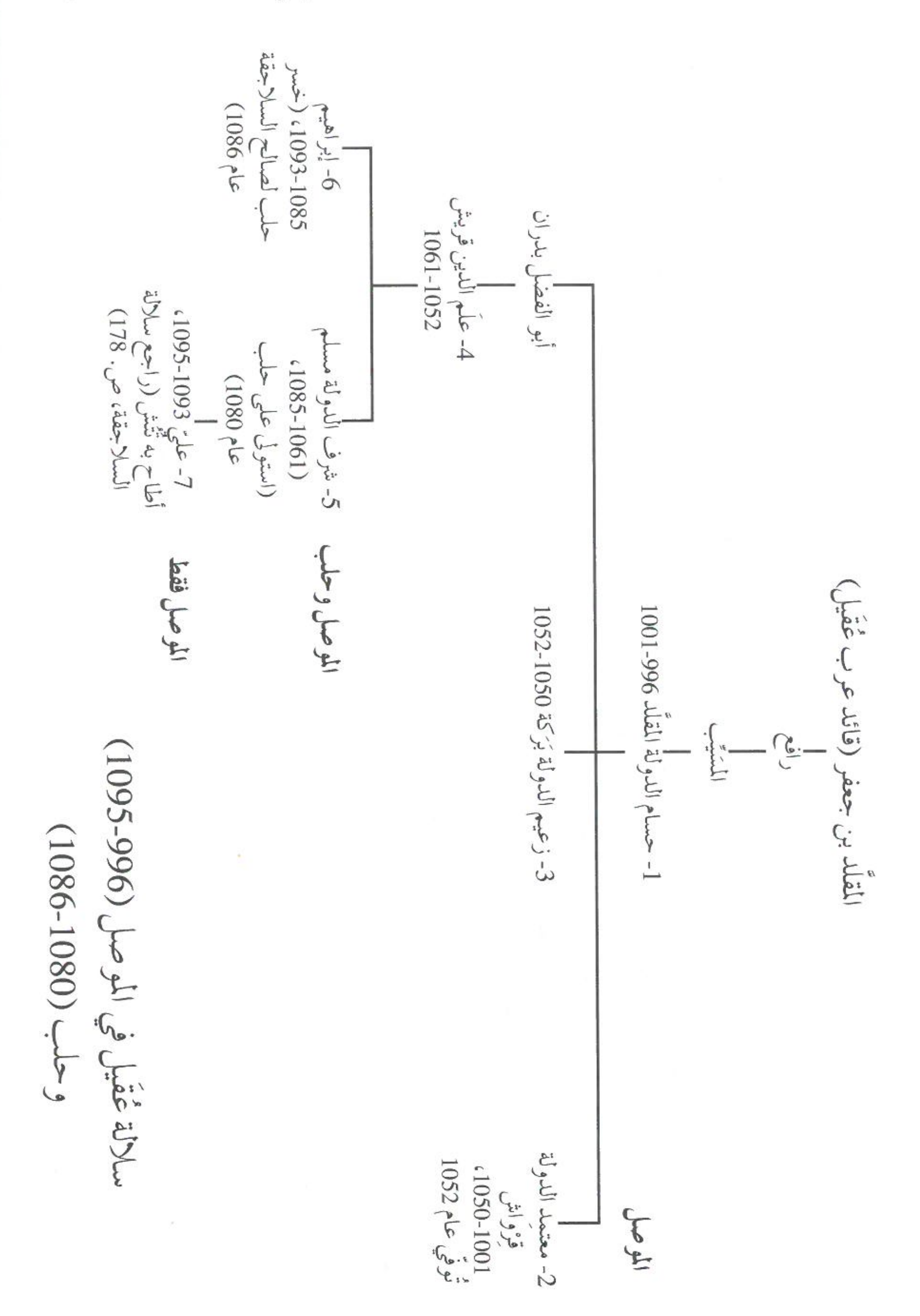
وعندما وصل مسلم بن قريش إلى بلاد الشام، قام فورًا بإجراء اتّصالات بعرب بني كلاب وبزعمائهم المرداسيّين الثوّار، محذّرًا إيّاهم من أخطار استمرارهم في التعاون مع الأتراك:

«وكان هوى شرف الدولة أبي المكارم مع سابق، وكان يسير إليه في الباطن بما يقوّي نفسه، وكان يُنكِر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك.

فاستأذن بنو كلاب تاج الدولة في رحيل الظعون فأذن لهم. (...) فاستأذن [مسلم] تاج الدولة في الرحيل، ورحل. (...)

وأشار على مبارك ووثّاب وشبيب بالاحتياط على أنفسهم أو الهرب إلى حلب. (...)

ولم يكُ بقي مع تاج الدولة من بني كلاب غيرهم في نفر يسير، فكاتبهم سابق



سلالة عُقيل في الموصل (996-1095) وحلب (1080-1086)

وتألّفهم وقال لهم: «إنّي إنّما أذبّ وأحامي عن بلادكم وعزّكم، ولو صار هذا البلد إلى تُتُش لزال مُلك العرب وذُلّوا». (...) فهربوا إلى حلب بعد أن قُتل أصحابهم قبل الهزيمة وبعدها، وصاروا إلى سابق.

وكتب سابق إلى الأمير أبي زائدة محمّد بن زائدة (...) يعرّفه ما هو فيه من الضيق، ويسأله الإقبال عليه والقيام بمعونته؛ ويحذّره من التخلّف عنه، فيكون ذلك مسبّبًا لزوال ملك العرب (...).

فلمّا وقف الأمير أبو زائدة محمّد بن زائدة على هذه الأبيات، اتّفق مع منصور ونائب سابق، وجمعوا ما يزيد عن ألف فارس وخمسمائة راجل من بني نُمير، وقُشير، وكلاب، وعُقَيل، وكلّ ذلك بتدبير الأمير شرف الدولة أبي المكارم ومشورته. ووفد بهم الأمير أبو زائدة (...) لمحاصرة حلب ومعونة تُتُش.»[38]

بمواجهة هذا التجمّع القبلي العربي دفاعًا عن حلب، وجد تُتُش نفسه عاجزًا عن أخذ المدينة. فاكتفى لهذه الفترة بنهب مدن وقرى مختلفة في الجوار، ثمّ اتّجه جنوبًا لانتزاع دمشق من أتْسِزْ، كما سبق وذكرنا. وبعد تثبيت نفسه في الحكم هناك، أرسل أحد قوّاده، أفشين، ليتولّى تدمير شماليّ بلاد الشام على صعيد كبير، «ولم يبقَ في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرّة إلى حلب»[39]. وإذ استمرّ التدمير، تقاطر اللاجئون من المناطق المرداسية إلى الموصل، طالبين الاحتماء لدى مسلم بن قريش[40]. وبعث سابق وعرب بني كلاب، الّذين لم يعد بإمكانهم الصمود طويلًا أمام غزوات أفشين المتتالية،

38- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 57-61.
39- **المصدر نفسه**، II، ص. 67.
40- **المصدر نفسه**.

بمراسيل إلى مسلم يحثّونه فيها على التقدّم إلى حلب وأخذها قبل أن تسقط بيد الأتراك[41].

فلم يتوانَ الأمير العُقَيلي عن تلبية الدعوة. وفي حزيران / يونيو 1080، قاد قوّاته عبر الفرات إلى بلاد الشام وظهر أمام حلب. فرفض سابق، بضغط من أخوَيه وثّاب وشبيب، أن يدعه يدخل المدينة. إلّا أنّه في أوّل تمّوز / يوليو، احتشد السكّان المحلّيون والأحداث، يقودهم شريف عبّاسي يُدعى ابن الحُتَيتي (أو الحُتَيتي بكلّ بساطة)، وتدبّروا أمرهم لفتح الباب الرئيسي للمدينة لكي تدخل القوّات العُقَيلية. واستمرّ سابق وأخواه في إبداء بعض المقاومة في القلعة لمدّة قصيرة، ولكنّهم سرعان ما اختلفوا فيما بينهم، واستسلموا أخيرًا بشروط. فسمح لهم مسلم بالاحتفاظ ببعض الحصون في منطقة الفرات وعلى طول حدود الأناضول، وتزوّج من أخت لهم. في هذه الأثناء، بايعه علنًا ابن الحُتيتي وأهل المدينة أميرًا على حلب محلّ سابق[42]. وهكذا انتهى أخيرًا حكم المرداسيّين في بلاد الشام الشمالية وضُمّت أراضيهم إلى سيطرة العُقَيليّين.

* * *

كان امتداد السيطرة العُقَيلية من الموصل إلى حلب نصرًا باهرًا لمسلم بن قريش. في وقت كان فيه السلجوقيون في أوج قوّتهم،

41- المصدر نفسه، II، ص. 67-8.
42- المصدر نفسه، II، ص. 67-9؛ كذلك ابن الأثير، المصدر نفسه، X، ص. 115.

وفي تصميمه على الحفاظ على بقايا السيطرة القبَلية العربية في بلاد الشام والعراق، في وجه التوسّع التركي المستمرّ، نجح أمير الموصل في توحيد كلّ الأراضي العربية الممتدّة من حدود بلاد فارس في الشرق إلى وادي العاصي في الغرب تحت حكمه. ويمكن أن يُعزى إذعان السلاجقة، جزئيًّا، لهذا التوسّع الاستثنائي لممتلكات العُقَيليّين إلى أنّ مسلم بن قريش كانت تربطه بالسلجوقيّين صلة مصاهرة: كانت إحدى زوجاته عمّة السلطان مَلِكشاه. وفورًا بعد استيلائه على حلب، حرص الأمير العُقَيليّ على إرسال أحد أبنائه – الّذي كان ابن عمّة ملِكشاه – إلى البلاط السلجوقيّ في أصفهان ليحصل على «ضمان» رسميّ لحكم المقاطعات الّتي كانت سابقًا للمرداسيّين[43]. وعندما أُعطي هذا الضمان، عاد مسلم إلى الموصل، تاركًا أخاه عليًّا ليحكم حلب كنائب عنه[44].

إلّا أنّ السيطرة العُقَيلية على شماليّ بلاد الشام كان محكومًا عليها بالإخفاق على المدى البعيد. فقبل حصول مسلم بن قريش على ضمان حلب وممتلكاتها من ملِكشاه بثلاث سنوات، كان السلطان قد أقطع كلّ بلاد الشام لأخيه تُتُش، شرط أن يتمكّن هذا الأخير من جعل هذا الإقطاع[45] فعليًّا بالفتح[46]. وبحلول العام 1080، كان تُتُش قد ركّز نفسه في دمشق، ولكنّه ما زال يشتهي

43- ابن الأثير، المصدر نفسه.
44- ابن العديم، االمصدر نفسه، II، ص. 75.
45- كان استعمال كلمة «إقطاع» في هذه الفترة لا يزال غير دقيق، لكنّه يتضمّن بالتأكيد علاقة تبعية بين المقطوع له وبين المعطي.
46- ابن الأثير، المصدر نفسه، II، ص. 111.

حلب، الّتي فشل في انتزاعها من المرداسيّين سنة 1078. في هذه الأثناء، كان أمير سلجوقي آخر يُدعى سليمان بن قُطْلَمِش – تربطه قرابة بعيدة بمِلكشاه وتُتُش – قد نجح في إقامة دولة سلجوقية فعلية له في الأناضول، بمساعدة التركمان القاطنين هناك. وكان سليمان بن قُطْلَمِش، من عاصمته في قونية، مثل قريبه البعيد تُتُش، ينظر بعينَي الشهوة إلى شماليّ بلاد الشام. كلا الرجلين كانا طموحَين بالمقدار نفسه: في الواقع، ربّما كان بعامل الخوف من طموحهما أنّ السلطان مِلكشاه استسهل القبول بالتوسّع الإقليميّ للإمارة العُقَيلية، لكي تظلّ «منطقة عازلة» قبَلية عربية بين ملكه ومناطق سيادتهما[47].

بين تُتُش في الجنوب وسليمان بن قُطلمِش في الشمال، وجد العُقَيليون في حلب أنفسهم منذ البدء في وضع بالغ الحراجة. في هذه الأثناء، كانت تواجههم داخليًّا المشاكل ذاتها الّتي كان الحمدانيون والمرداسيون قبلهم واجهوها دون أن ينجحوا. وما كاد مسلم بن قريش يصل إلى الموصل حتّى بدأت الوحدة الموقّتة الّتي تمكّن من فرضها على القبائل العربية في بلاد الشام الشمالية بالانفراط، ما مهّد الطريق لثورات جديدة من العصيان القبَلي. واغتنم عدد من الزعماء التركمان وغيرهم من المغامرين فرصة غياب الأمير، واستولوا على المدن والحصون في المناطق المجاورة؛ وبين هؤلاء المغامرين كان المطران المسيحيّ لمدينة البارة – وهي تقع قرب حلب – الّذي استولى على قلعة شَيْزر على العاصي، غربيّ حماه،

47- عن سياسة مَلِكشاه في هذا الصدد، راجع Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 150-2.

وأقام نفسه هناك كلصّ «شريف» على ما يبدو. في الوقت ذاته، باشر الأمراء المرداسيون بتحدّي سلطة العُقَيليّين انطلاقًا من الحصون الّتي بقيت في أيديهم في الشمال والشرق، بينما أخذ زعيمان عربيّان – المحنّك علي بن منقذ والمدعوّ خلف بن مُلاعب الأشهبيّ – يقتطعان لنفسَيهما إمارتَين مستقلّتَين في الجنوب. بحلول العام 1082، كان خلف بن ملاعب قد ثبّت مركزه في حمص[48]. وركّز عليّ بن منقذ جهوده على إحكام السيطرة على منطقة من العاصي الأوسط، بمحاذاة أراضي أصدقائه القدماء بني عمّار الطرابلسيّين. وفي العام 1081، ثبّت نفسه في قلعة شَيزر، الّتي كان قد تمكّن من شرائها من مطران البارة بعد حصار طويل[49].

وكردّة فعل مباشرة لاستيلاء عليّ بن منقذ على شَيزر، عاد مسلم بن قريش إلى بلاد الشام عام 1082:

«ووفى له ابن منقذ بكلّ ما عاهده عليه، فثقل ذلك على شرف الدولة وحسد ابن منقذ على شَيزر فسار عسكر حلب مع [أخيه] مؤيّد الدولة عليّ بن قريش إلى شَيزر، ونزلوا عليها في يوم الجمعة خامس ذي الحجّة سنة أربع وسبعين وأربعمائة [3 أيّار / مايو 1082]. (...)

وكان عليّ بن قريش قد أخذ في طريقه حصنًا لابن منقذ يُقال له أسفونا، غربيّ كفرطاب. [في شَيزر]، كان ابن منقذ قد تأهّب للحصار، وحمل من الجسر إلى شَيزر ما يكفي لمن فيه مدّة طويلة من سائر الأشياء.

48- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 79.

49- **المصدر نفسه**، II، ص. 76-7؛ أيضًا ابن الجوزي وابن عساكر، كما هو مذكور في ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 113، الهامش 1.

وحصره عليّ بن قريش مدّة إلى أن وصل شرف الدولة بنفسه، فنزل على شَيزر يوم الأربعاء سلخ المحرّم من سنة خمس وسبعين وأربعمائة [أوّل حزيران / يونيو 1082].

ثمّ رحل [مسلم] عنها إلى حمص يوم السبت ثالث صفر [3 تمّوز / يوليو]، وأقام عسكره على شَيزر، فتطارح ابن منقذ عليه، وسيّر ابنه أبا العساكر وامرأته منصورة بنت المطوّع وأخته رفيعة بنت المنقذ إلى حمص؛ فدخلوا عليه، وحملوا إليه مالًا، فأنفذ إلى عسكره، ورحّله عن شَيزر في الثامن والعشرين من صفر من السنة [28 تمّوز / يوليو]. (...)

ولمّا وصل شرف الدولة إلى حماة قبض على جميع الأتراك الّذين بالشام وأخذ منهم الحصون الّتي كانت في أيديهم، وهي بيت لاها، وتلّ اغدي، وهاب، وكفر نبَّل. وقبض على وثّاب وشبيب ابنَي محمود، وأخذ منهما قلعة أعزاز والأثارب، وأطلقهما بعد ذلك، وحمل الأتراك، وحبسهم في الرحبة [على الفرات] فداموا بها إلى أن قُتل.

وقبض شرف الدولة على أكثر أقطاع بني كلاب بالشام، وعاد إلى حلب؛ وقبض على حسن بن وثّاب النمَيري أمير بني نُمير (...) فاعتقله بحلب مدّة وقتله.»[50]

هذه التدابير الحازمة الّتي اتّخذها مسلم بن قريش، لتقوية قبضته على ممتلكاته في بلاد الشام، أقلقت عليّ بن منقذ، وخلف بن ملاعب والأمراء المرداسيّين. وفي الحال، عقد هؤلاء الزعماء العرب تحالفًا لمقاومة العُقَيليّين، وبعثوا بمراسيل إلى دمشق يدعون فيها تُتُش إلى التقدّم واحتلال منطقة حلب. وأبدى تُتُش استعداده المتحمّس للاستجابة للدعوة؛ إلّا أنّه كان منشغلًا في هذه الفترة بمسألة اعتبرها

50- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 77-8.

أكثر إلحاحًا. كان قريبه سليمان بن قطلمِش يتطلّع إلى احتلال أنطاكية، المعقل الأخير للبيزنطيّين في بلاد الشام، الّذي كان يحاذي مملكته السلجوقية الحديثة الإنشاء في الأناضول. وكان تُتُش يحرص على الحؤول دون استيلاء سليمان على موطئ قدم استراتيجيّ كهذا في بلاد الشام – وهي أرض كانت قد اقتُطعت رسميًّا له كمنطقة لتوسّعه. لذلك قرّر إفشال خطط قريبه الأناضوليّ عن طريق محاولة أخذ أنطاكية بنفسه، قبل المباشرة بأيّ عمل ضدّ العُقَيليّين في حلب.

بالنسبة إلى العقيليّين، كان انشغال تُتُش الموقّت بمسألة أنطاكية فرصة لا تفوَّت. فما كاد تُتُش يبدأ بحصار القاعدة الأمامية البيزنطية، حتّى قام مسلم بن قريش باجتياح منطقة دمشق. وهرع لمساعدة الأمير العُقَيليّ حشد ضخم من الأكراد ورجال القبائل العربية من كلّ أنحاء بلاد الشام (بما فيهم عرب بني كلب من أواسط بلاد الشام وعرب بني طيّ من فلسطين)، كما جاءه أيضًا وعد بالمساعدة من بدر الجمالي من مصر. بحلول العام 1083، كان مسلم وحلفاؤه القبليون قد وصلوا إلى خارج دمشق. فتخلّى تُتُش عن حصاره لأنطاكية وسارع عائدًا ليدافع عن عاصمته، التي كانت جيوش مسلم تحاصرها. وتمّ بسهولة تشتيت القوّات القبلية غير المنظّمة الّتي كانت تساعد مسلم في محاصرة المدينة، ولكنّه استطاع الصمود لفترة وهو ينتظر وصول التعزيزات العسكرية من مصر. وأخيرًا عندما أدرك أنّ المصريّين لا ينوون الوفاء بوعدهم بالمساعدة، رفع حصاره لدمشق وتراجع. وخوفًا من قيام تُتُش بحملة تأديبية،

بادر حالًا إلى مصالحة خلف بن ملاعب، زعيم حمص. وأُقنع خلف بأن يحفظ إمارته الصغيرة الإستراتيجية الموقع كمنطقة عازلة بين حلب ودمشق؛ مقابل ذلك، أُهدي له الحصنان البالغا الأهمية، الرفنية والسلَمية، في منطقة حماه[51].

وكما حدث، لقي مسلم بن قريش – آخر الأمراء العرب في حلب في الواقع – نهايته على يد سليمان بن قطلمِش، صاحب قونية، وليس على يد تُتُش، صاحب دمشق. ففي كانون الأوّل / ديسمبر 1084، اجتاز سليمان بن قطلمِش جبال طوروس إلى داخل بلاد الشام، وانتزع أنطاكية من البيزنطيّين الّذين كانوا قد سيطروا عليها باستمرار منذ 969[52]. من هناك، أكمل ليجتاح منطقة حلب. فبادر مسلم بن قريش لمواجهته في المعركة، ولكنّ «أصحاب شرف الدولة لم يثبتوا معه»[53]. فانهزم وقُبض عليه إذ كان فارًّا من أرض المعركة في 21 حزيران / يونيو 1085. وبأمر من سليمان بن قُطلِمش، عُذّب وأُعدم في اليوم ذاته[54]. وبحسب ما جاء في أسطورة لاحقة، أُصيب بحربة وهو فارّ – يُزعم أنّ أحد حلفائه المحلّيّين المستائين رماه بها – وصرخ «يا شام الشوئم» إذ خرّ صريعًا[55].

* * *

51- ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**، ص. 114-5؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 126-7 و130؛ ابن العدِيم، **المصدر نفسه**، II، ص. 79-83.

52- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 138-9؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 86-7. بالنسبة إلى الفتح البيزنطي لأنطاكية، راجع أعلاه، ص. 105-6.

53- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 92.

54- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 139-40.

55- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 91-2.

إثر وفاة مسلم، اختار زعماء عرب عُقيل أخاه إبراهيم بن قريش ليخلفه. وإبراهيم هذا كان قد أمضى سنين عديدة مسجونًا بأمر من أخيه، في الموصل على ما نعلم، و«لم يمكنه المشي والحركة لمّا أُخرِج»[56] ليتسلّم السلطة. وقبل وصول الحاكم العُقيليّ الجديد إلى بلاد الشام لتنظيم الدفاع عن حلب، سارع سليمان بن قطلمِش إلى محاصرة المدينة في 27 حزيران / يونيو. وفي غياب قوّات عُقَيلية كافية، تولّى الأحداث في حلب، بقيادة الشريف العبّاسيّ ابن الحُتَيْتي، مقاومة الحصار[57].

ولمّا عجز سليمان بن قطلمِش عن أخذ المدينة بالقوّة، رفع الحصار عنها في 31 تمّوز / يوليو وتوجّه جنوبًا لفترة، منتزعًا معرّة النعمان وكفرطاب من العُقَيليين، مُكرهًا عليّ بن منقذ في شَيزر على دفع جزية له. ثمّ عاد إلى حلب، على أمل أن يتمكّن من إخضاعها عن طريق المفاوضات. وطلب منه ابن الحُتَيْتي ورفاقه، الّذين كانوا ما زالوا مسيطرين عليها، أن يمهلهم بعض الوقت لدرس شروط الاستسلام الّتي عرضها عليهم. وفي هذه الأثناء، بعثوا بمراسيل إلى أصفهان يطلبون النجدة من السلطان السلجوقي ملِكشاه. ولمّا تبيّن أنّ المساعدة لن تأتيهم من تلك الجهة، توجّهوا إلى تُتُش في دمشق، ملحّين عليه أن يسارع ويحتلّ مدينتهم قبل أن تسقط في يدَي ابن عمّه ومنافسه[58].

56- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 141.

57- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 92، 95-6؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**.

58- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 147؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 95-6.

غادر تُتُش دمشق في أوائل صيف 1086، وتقدّم شمالًا باتّجاه حلب، يرافقه أرتوق بن أكسب – زعيم تركماني كان قد برز كقائد عند السلطان ملِكشاه، وقد التحق حديثًا بتُتُش في بلاد الشام ونال منه إقطاع القدس[59]. وهاجم تُتُش وأرتوق معًا قوّات سليمان بن قطلمِش وهزماها في عين سَيلَم، على مسافة قصيرة من حلب. وقَتل سليمان نفسه في المعركة:

«فانهزم أصحاب سليمان، وثبت وهو في القلب، فلمّا رأى انهزام عساكره أخرج سكّينًا معه فقتل نفسه، وقيل بل قُتل في المعركة.»[60]

وعلى أثر هزيمة سليمان بن قطلمِش ومقتله، تقدّم تُتُش لاحتلال حلب. ورفض ابن الحُتَيْتي أن يسلّم المدينة بحسب الوعد، فأخذها تُتُش بالقوّة في 11 تمّوز / يوليو 1086:

«فعمد رجل من تجّار حلب يعرف بابن البرعوني الحلبيّ، وراسل تاج الدَّولة [تُتُش] في تسليم حلب إليه؛ ورفع بعض أصحابه بحبال إلى بعض أبراج السور، وساعده قوم من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدّولة في ذلك الموضع. وتسامع النّاسُ فنادوا بشعاره في البلد جميعه.»[61]

59- ابن الأثير، **المصدر نفسه**؛ كذلك ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 134-6.
60- **المصدر نفسه**، X، ص. 147.
61- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 98. تُطلق مصادر أخرى على ابن البرعوني أسماء مختلفة؛ راجع **المصدر نفسه**، الهامش 3.

استطاعت قلعة حلب، الّتي كان أمير عُقَيليّ يتولّى الدفاع عنها، الصمود لمدّة سبعة عشر يومًا قبل أن تستسلم أخيرًا[62]. وبسقوط القلعة، انتهى حكم العُقَيليّين في شماليّ بلاد الشام. أمّا ابن الحتيتي، الّذي واصل المقاومة لفترة في حصنه الخاصّ خارج المدينة[63]، فقد مُنح عفوًا بعد ذلك بوقت قصير[64]. إلّا أنّه لم يُسمح له بالعودة إلى حلب؛ فحتّى أهل المدينة أنفسهم لم يكونوا يريدونه أن يعود، لأنّ حكمه كان ظالمًا وغير شعبي إلى أقصى حدود[65].

بعد أن استكمل تُتُش فتح حلب بوقت قصير، تلقّى الخبر بأنّ السلطان مَلِكشاه قد وصل إلى بلاد الشام الشمالية بجيشه. فسارع تُتُش، حرصًا منه على تحاشي الاصطدام بأخيه وسيّده الأعلى[66]، إلى العودة إلى دمشق؛ في هذه الأثناء، كان حليفه وتابعه أرتوق بن أكسب قد عاد إلى القدس[67]. وفي 3 تشرين الثاني / نوفمبر 1086، دخل السلطان ملِكشاه حلب. ثمّ ترك المدينة في عهدة قائده قسيم الدولة أقسنقر الحاجب (الّذي كان أيضًا زوج أمّه بالرضاعة)[68] وتوجّه فورًا إلى أنطاكية، حيث عيّن قائدًا آخر له، ياغي سيان، حاكمًا عسكريًّا. من هناك، تقدّم السلطان إلى مرفأ السويدية قرب مصبّ العاصي. هنا، سجد يصلّي شاكرًا على شاطئ المتوسّط؛ فقد

62- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 148.
63- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 95-6.
64- **المصدر نفسه**، II، ص. 99.
65- **المصدر نفسه**، II، ص. 96، 102.
66- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، II، ص. 149.
67- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 99.
68- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 162.

أصبح ملكه الآن يمتدّ «من بحر الشرق إلى بحر الغرب»[69].

* * *

كما سبق وأشرنا[70]، جرت الفتوح السلجوقية في بلاد الشام على يد تُتُش ومِلكشاه في الوقت الّذي كان فيه انبعاث التجارة في أوروبا الغربية – وعلى الأخصّ في إيطاليا – يجلب ازدهارًا متناميًا إلى البلدان المسلمة المتاخمة لشرقيّ المتوسّط. وكانت مصر الفاطمية أكثر البلدان تأثّرًا مباشرًا بهذا الازدهار الجديد، إذ كانت مسيطرة على التجارة البحرية النامية عبر البحر الأحمر بين المحيط الهندي والمتوسّط. وبدءًا من حوالى 1070، «شجّع حكّام مصر فعليًّا التجارة مع مدن إيطاليا التجارية عن طريق منح مواثيق حماية لتجّارهم»[71]. وبالإمكان القول إنّ عملية إعادة التنظيم الكاملة لمصر على يد الوزير المطلق الصلاحيات بدر الجمالي (1074-1094) وابنه وخلفه «الأفضل شاهانشاه» (1094-1121) كان مردّها، إلى درجة ما على الأقلّ، إلى الحاجة الملحّة إلى تحسين الإدارة الفاطمية لصالح تجارة متوسّعة.

في بلاد الشام، تجلّى النموّ الاقتصاديّ لهذه الفترة بازدياد ملحوظ للنشاط التجاريّ في المدن الساحلية – والأكثر بروزًا كان الازدهار التجاريّ لطرابلس تحت حكم بني عمّار[72]. في داخل بلاد

69- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 101.
70- راجع أعلاه، ص. 176.
71- H. A. R. Gibb، **المصدر نفسه**، ص. 96.
72- راجع أعلاه، ص. 173-4.

الشام، إذ أصبحت مدن مثل حلب ودمشق أكثر انهماكًا بالتجارة المتنامية، ضاق ذرع طبقة تجّار المدن بالفوضى السياسية المتفشّية. لذلك، عندما وصل السلاجقة إلى بلاد الشام، استقبلهم أهل المدن في كلّ مكان بحماس، وقدّموا لهم فورًا كلّ العون. وفي حلب، كما أسلفنا، كان التاجر ابن البرعوني ومناصروه هم الّذين أعانوا تُتُش على أخذ المدينة من ابن الحُتَيْتي ومناصريه الأحداث[73]. وبعد ذلك بوقت قصير، عندما ناشد ابن الحُتَيْتي مَلِكشاه كي يسمح له بالعودة إلى حلب، ذُعر أهل المدينة من هذه الإمكانية، ومنّ عليهم السلطان برفضه منح الإذن له، وحتّى أنّه نفاه على مدى حياته خارج بلاد الشام[74].

بالفعل، عندما باشر السلاجقة بتأسيس حكمهم في بلاد الشام، كانت قطيعتهم مع ماضيهم القبلي الغُزّي قد تمّت. ففي بلاد فارس والعراق، كانوا قد أنشأوا دولة ذات إدارة منظّمة قائمة على نمط التقاليد المدينية الفارسية[75]. وحيثما امتدّت سيطرتهم، أُخضعت القبَلية والفوضى المدينية بسرعة، وحلّت محلّهما سيطرة حكومية قوية وإجراءات بيروقراطية منظّمة. وعندما استولى تُتُش على دمشق سنة 1078 «وأحسن السيرة في أهله [البلد]، وعدل فيهم»[76]، «وفعل بالضدّ من فعل [سلفه] أتْسِزْ فيها»[77]. في حلب، وضع الحاكم الّذي

73- راجع أعلاه، ص. 208.
74- نُفي إلى ديار بكر في أعالي بلاد ما بين النهرين، حيث مات في فقر مدقع. ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 150.
75- Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 153-7.
76- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 111.
77- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 112.

عيّنه ملِكشاه عام 1086، أقسنقر الحاجب، نهاية للفوضى الّتي كانت تبلي المدينة وضواحيها أيّام المرداسيين والعُقَيليين، واستبدل بها نظامًا مثاليًّا:

«فأحسن قسيم الدولة في حلب السّيرة وأجمل السّياسة وأقام الهيبة، وأفنى قطّاع الطريق، وتتبّع الذعّار في كلّ موضع فاستأصل شأفتهم.

وعمرت حلب في أيّامه بسبب ذلك لورود التجّار والجلّابين إليها من كلّ مكان.

وحكى لي والدي (...) أنّه استأصل أرباب الفساد إلى حدّ بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لا يغلق أحدٌ بابه، وأن يتركوا آلاتهم الّتي للحرث في البقاع في الليل والنهار.

فخرج متصيّدًا فمرّ على فلّاح وقد فرغ من عمله، وأخذ آلة الحرث معه إلى منزله، فانفرد من عسكره وقال له: «ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحدٌ من أهل القرى شيئًا من آلة الحرث؟» فقال: «بلى والله - حفظ الله قسيم الدّولة - والله لقد أمنّا في أيّامه من كلّ ذاعر ومفسد، وما رفعتُ هذا خوفًا عليها ممّن يأخذُها؛ وإنّما ههنا دويبة يقال لها ابن آوى إذا تركنا هذه العدّة ههنا جاءت وأكلت هذه الجُلود الّتي عليها».

فلمّا عاد قسيمُ الدّولة أمر بالصيّادين وبثّهم في أقطار بلد حلب لصيد بنات آوى حتّى أفنوها من ضواحي حلب.»[78]

الأمن والنظام اللذان أدخلهما السلاجقة إلى بلاد الشام في

78- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 103-5.

المناطق التي احتلّوها عزّزا، دون شكّ، النشاط التجاريّ. والأهمّ من ذلك، إنّ توسّع حكم السلاجقة من بلاد فارس والعراق إلى بلاد الشام سرّع التجارة البرّية باتّجاه الغرب لتبلغ البحر المتوسّط. وفي العام 1077، عندما اجتاز تُتُش الفرات إلى داخل منطقة حلب، كانت هناك جماعات من التجّار - يُفترض أنّها من بلاد فارس والعراق - ترافق قوّاته الغازية[79]. طبعًا، أكثر المدن استفادة مباشرة من الانتعاش السريع للتجارة البرّية خلال هذا العقد كانت المدن الداخلية، وأوّلها حلب. إلّا أنّه في النهاية، كانت هذه التجارة البرّية، مثل التجارة البحرية من مصر، تنصبّ على المرافئ (في الدرجة الأولى اللاذقية، طرطوس، طرابلس، جبيل، بيروت، صيدا، صور، وعكّا)، لتُنقَل من هناك بحرًا إلى بيزنطية أو إيطاليا. فلا عجب إذن أن يكون احتلال السلاجقة لدمشق وفلسطين، وبعده لحلب وأنطاكية، قد تبعته منافسة بين السلاجقة والفاطميّين للسيطرة على ساحل بلاد الشام.

* * *

على الفور تقريبًا بعد تثبيت نفسه في دمشق، تقدّم تُتُش إلى الساحل واستولى على صيدا وبيروت[80]. استولى الفاطميون مجدّدًا على صيدا على ما يبدو في العام التالي (1079)[81]، ثمّ استعادها تُتُش

79- **المصدر نفسه**، II، ص. 61.
80- ابن شدّاد، **المصدر نفسه**، ص. 98-9، 102.
81- **المصدر نفسه**، ص. 99.

عيّنه ملِكشاه عام 1086، أقسنقر الحاجب، نهاية للفوضى الّتي كانت تبلي المدينة وضواحيها أيّام المرداسيين والعُقَيليين، واستبدل بها نظامًا مثاليًا:

«فأحسن قسيم الدولة في حلب السّيرة وأجمل السّياسة وأقام الهيبة، وأفنى قطّاع الطريق، وتتبّع الذعّار في كلّ موضع فاستأصل شأفتهم.

وعمرت حلب في أيّامه بسبب ذلك لورود التجّار والجلّابين إليها من كلّ مكان.

وحكى لي والدي (...) أنّه استأصل أرباب الفساد إلى حدّ بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لا يغلق أحدٌ بابه، وأن يتركوا آلاتهم الّتي للحرث في البقاع في الليل والنهار.

فخرج متصيّدًا فمرّ على فلّاح وقد فرغ من عمله، وأخذ آلة الحرث معه إلى منزله، فانفرد من عسكره وقال له: «ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحدٌ من أهل القرى شيئًا من آلة الحرث؟» فقال: «بلى والله – حفظ الله قسيم الدّولة – والله لقد أمنّا في أيّامه من كلّ ذاعر ومفسد، وما رفعتُ هذا خوفًا عليها ممّن يأخذُها؛ وإنّما ههنا دويبة يقال لها ابن آوى إذا تركنا هذه العدّة ههنا جاءت وأكلت هذه الجُلود الّتي عليها».

فلمّا عاد قسيمُ الدّولة أمر بالصيّادين وبثّهم في أقطار بلد حلب لصيد بنات آوى حتّى أفنوها من ضواحي حلب.»[78]

الأمن والنظام اللذان أدخلهما السلاجقة إلى بلاد الشام في

78- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 103-5.

المناطق التي احتلّوها عزّزا، دون شكّ، النشاط التجاريّ. والأهمّ من ذلك، إنّ توسّع حكم السلاجقة من بلاد فارس والعراق إلى بلاد الشام سرّع التجارة البرّية باتّجاه الغرب لتبلغ البحر المتوسّط. وفي العام 1077، عندما اجتاز تُتُش الفرات إلى داخل منطقة حلب، كانت هناك جماعات من التجّار – يُفترض أنّها من بلاد فارس والعراق – ترافق قوّاته الغازية[79]. طبعًا، أكثر المدن استفادة مباشرة من الانتعاش السريع للتجارة البرّية خلال هذا العقد كانت المدن الداخلية، وأوّلها حلب. إلّا أنّه في النهاية، كانت هذه التجارة البرّية، مثل التجارة البحرية من مصر، تنصبّ على المرافئ (في الدرجة الأولى اللاذقية، طرطوس، طرابلس، جبيل، بيروت، صيدا، صور، وعكّا)، لتُنقَل من هناك بحرًا إلى بيزنطية أو إيطاليا. فلا عجب إذن أن يكون احتلال السلاجقة لدمشق وفلسطين، وبعده لحلب وأنطاكية، قد تبعته منافسة بين السلاجقة والفاطميّين للسيطرة على ساحل بلاد الشام.

* * *

على الفور تقريبًا بعد تثبيت نفسه في دمشق، تقدّم تُتُش إلى الساحل واستولى على صيدا وبيروت[80]. استولى الفاطميون مجدّدًا على صيدا على ما يبدو في العام التالي (1079)[81]، ثمّ استعادها تُتُش

79- **المصدر نفسه**، II، ص. 61.
80- ابن شدّاد، **المصدر نفسه**، ص. 98-9، 102.
81- **المصدر نفسه**، ص. 99.

بعد ذلك بزمن يسير. وفي وقت ما بعد 1081، فتح تُتُش طرطوس، جنوبيّ اللاذقية، مع بعض الحصون الساحلية المجاورة[82]. ومع أنّه من غير الواضح متى أُخذت اللاذقية ذاتها، «مدينة التجّار»[83] هذه كانت دون ريب تحت سيطرة تُتُش عام 1094[84].

بدأ الهجوم المعاكس الفاطمي في بلاد الشام الساحلية سنة 1089، عندما أرسل بدر الجمالي قوّة ضخمة من مصر لتستعيد عكّا من حاكم فاطمي ثائر[85]، وصور من بني أبي عَقيل، وبيروت وصيدا من السلاجقة، وجبيل من بني عمّار، أسياد طرابلس (هذه الأخيرة لمدّة قصيرة على الأقلّ)[86]. في الوقت نفسه، أُقيم «رأس جسر دفاعي»[87] في جنوبيّ فلسطين. بعد ذلك، تحت حكم ابن بدر، الأفضل، استُعيدت القدس (1098) من الأميرَين التركمانيّين سقمان وإلغازي، ولَدَي أرتوق بن أكسب، اللذَين كانا قد اكتسبا المدينة كإقطاع بعد وفاة والدهما[88]. من الواضح أنّ حكّام مصر كانوا يعتبرون فلسطين وساحل بلاد الشام مناطق حيوية لا

82- ابن الأثير، **االمصدر نفسه**، X، ص. 121.
83- راجع أعلاه، ص. 129.
84- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 118.
85- انتزع عكّا من الفاطميّين أتْسِزْ من دمشق، ثمّ سقطت المدينة في يد مغامر تركي آخر، يُدعى أبو منقلي، الذي حكمها أوّلًا باسم الفاطميّين ثمّ ثار ضدّهم. راجع ابن شدّاد، **المصدر نفسه**، ص 173-4.
86- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 120؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 176. حسب ابن شدّاد (**المصدر نفسه**، ص. 96)، بقيت جبيل في أيدي بني عمّار حتّى استولى عليها الإفرنج (1102). كذلك، يبدو أنّ الفاطميين لم يتمكّنوا من استعادة بيروت من السلاجقة (**المصدر نفسه**، ص. 102).
87- H. A. R. Gibb، **المصدر نفسه**، ص. 95.
88- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 135. عن أرتوق بن أكسب، راجع أعلاه، ص. 208.

لمصالحهم التجارية فقط، بل أيضًا لسياستهم الدفاعية. وإذ أعادوا تثبيت سيطرتهم في هذه المناطق، تمكّن وكلاؤهم السياسيون على ما يظهر من إقامة علائق هامّة أبعد إلى الداخل، ممّا أربك السلاجقة إلى درجة بعيدة.

ومن المرجّح أنّه بسبب تحريض سياسي فاطمي بدأ خلف بن مُلاعب، صاحب حمص، بتخريب الاتّصالات المنظّمة بين داخل بلاد الشام وساحلها بعد 1089 بوقت وجيز:

«وكتب ولاةُ الشّام إلى السّلطان ملك شاه يشكون ما يلقونه من خَلف بن مُلاعب بحمص من قطع الطريق وإخافة السّبيل، فكتب إلى قسيم الدّولة [أقسنقر في حلب] وتاج الدّولة [تُتُش في دمشق] ويغى سيان [في أنطاكية] وبوزان صاحب الرُّها[89]، فساروا في عساكرهم [إلى حمص]، فحاصروها وضايقوها ففتحوها؛ وأعطاها السلطان تاج الدّولة [إلى] تُتُش.

ونزل قسيم الدّولة على أفامية، فأخذها من خلف بن مُلاعب وسلّمها إلى نصر بن منقذ [ابن علي بن منقذ وخلَفه].

ثمّ إنّ السلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديد الى أصبهان، فحبسه إلى أن مات ملك شاه، وتوجّه إلى مصر وعاد إلى الشّام، واحتال حتّى مَلَكَ أفامية بالحيلة بعد ذلك.

(...) [عام 488 / 1095] وثب أهل أفامية على حِصْنها فأخذوه من الأتراك، (...) وكان تاجُ الدّولة قد أخذه من ابن منقذ، وسار جماعةٌ مِنْ أهلها إلى مصر يستدعون واليًا من قِبَلهم «لميلهم» إلى الإسماعيلية ونُفورهم من التُّرك.

89- الرّها مدينة مهمّة في منطقة الفرات الأعلى، على الضفّة الشرقية من النهر.

ووصل خلَف بن مُلاعب في سنة تسع وثمانين وأربعمائة [1096] وتسلّمها، وعاد إلى الفساد وقَطع الطريق.»[90]

وبعودة الفاطميّين إلى التمركز في بلاد الشام، في أمكنة ساحلية حصينة، وبسيطرة السلاجقة على الداخل، استمرّ بنو عمّار في طرابلس، وكانوا دومًا حريصين على الحفاظ على استقلال إمارتهم الصغيرة وترويج تجارتها، في إقامة علائق حسنة مع الجهتَين. فرخاء عاصمتهم المزدهرة كان متوقّفًا على التجارة البرّية القادمة من بلاد فارس والعراق عبر حلب، وعلى التجارة البحرية القادمة من مصر. وعندما حاول تُتُش، عام 1092، انتزاع طرابلس من جلال المُلك ابن عمار (ابن أخي أمين الدولة الحسن وخليفته)[91]، تمكّن الأمير من إبراز مناشير، أي براءات تعيين رسمية من السلطان مَلِكشاه، قدّمها إلى تُتُش عن طريق الوسيط أقسنقر في حلب:

«وعرض عليه المناشير الّتي بيده من السلطان بالبلد، والتقدّم إلى النوّاب بتلك البلاد [المجاورة] بمساعدته، والشدّ معه، والتحذير من محاربته، فقال آقسنقَر لتاج الدولة تُتُش: لا أقاتل مَن هذه المناشير بيده؛ فأغلظ له تاج الدولة، وقال: هل أنت إلّا تابع لي؟ فقال آقسنقَر: أنا أتابعك إلّا في معصية السلطان؛ ورحل من الغد عن

90- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 106، 122. ابن الأثير (**المصدر نفسه**، X، ص. 202-3) يحدّد العام 485 هـ (1092 م.) كتاريخ انتزاع السلاجقة لحمص وأفامية من ابن ملاعب.
91- راجع أعلاه، ص. 173. أمين الدولة الحسن، مؤسّس الإمارة العمّارية، كان قد تُوفّي في رجب 464 (آذار / مارس – نيسان / أبريل 1072). ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 71.

موضعه، فاضطرّ تاج الدولة إلى الرحيل، فرحل غضبان.»[92]

* * *

طالما كان أخوه مَلِكشاه على قيد الحياة، كانت يدا تُتُش في بلاد الشام مقيّدتَين. فقد أعيق طموحه لبسط حكمه على كلّ الأرض، ليس فقط بعودة الفاطميّين إلى فلسطين والمدن الساحلية بين عكّا وجبيل، وبالاستقلال المستمرّ لبني عمّار في طرابلس، بل أيضًا بوجود ياغي سيان في أنطاكية وأقسنقر في حلب. والظاهر أنّه بهدف تقوية مركز بني منقذ في شَيزر كعازل ضدّ تُتُش قام أقسنقر بتسليم أفامية إلى هؤلاء الأمراء العرب، بعد أن أُخذت من خلف بن مُلاعب[93]. ومن الممكن أيضًا أنّ أقسنقر قاوم محاولة تُتُش أخذ طرابلس من بني عمّار ليس لأنّه تأثّر حقيقة بالمناشير الّتي ادّعوا أنّها من السلطان، بقدر ما فضّل ألّا يكون أخو السلطان – وهو جار يُحتمل أن يشكّل خطرًا – مسيطرًا على المحطّة الأخيرة الساحلية الرئيسية في خطّ التجارة شماليّ بلاد الشام.

وفي العام 1092، تُوفّي مَلِكشاه، مخلّفًا «فقط أولادًا صغارًا ذوي أمّهات طموحات»[94] للتنازع على خلافته. وكان تُتُش في طريقه إلى زيارة أخيه في أصفهان عندما بلغه نبأ وفاته. وبدعم

92- **المصدر نفسه**، ص. 203. النبرة العامّة للمقطع المذكور توحي بأنّ الوثائق الّتي أبرزها ابن عمّار لم تكن بالضرورة أصلية.
93- راجع أعلاه، ص. 203، 215.
94- Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 162.

من أقسنقر في حلب، ومن ياغي سيان في أنطاكية، وكذلك من تابعين آخرين سابقين لَملكشاه في أعالي بلاد ما بين النهرَين، استولى تُتُش على مدينة الرَّحبة على الفرات، وأعلن نفسه سلطانًا هناك في شباط / فبراير 1093[95]. ثمّ أكمل طريقه لينتزع الموصل من العُقَيليين استعدادًا للزحف على بغداد وأصفهان. في هذه الأثناء، كان ابن مِلكشاه الأكبر برقياروق قد تمكّن من الاستيلاء على عرش السلاجقة في بلاد فارس. وبمؤازرة زعماء أتراك مختلفين مناهضين لتُتُش القوي والكفوء، تصدّى برقياروق لتحدّي عمّه وتقدّم إلى أعالي بلاد ما بين النهرَين ليحاربه. وسارع أقسنقر من حلب عند ذاك إلى فسخ عهده مع تُتُش، وانحاز إلى جانب برقياروق، كما فعل مناصرون آخرون لتُتُش باستثناء ياغي سيان، سيّد أنطاكية. وعندما تخلّى عن تُتُش معظم حلفائه، صمّم على تفادي مواجهة عسكرية فورية مع ابن أخيه، وانسحب موقّتًا إلى دمشق ليستعدّ لجولة ثانية[96].

وفي أيّار / مايو – حزيران / يونيو 1094، تحرّك تُتُش مرّة أخرى من دمشق وتقدّم على رأس قوّة كبيرة إلى داخل أراضي حلب. فلاقاه أقسنقر في معركة خارج المدينة، ولكنّه هُزم وأُسر وأُعدم على عجل؛ ثمّ حوصرت حلب وتمّ الاستيلاء عليها[97]. ولمكافأة ياغي سيان في أنطاكية على ولائه، أقطعه تُتُش معرّة النعمان واللاذقية وغيرها من المدن والحصون في أراضي حلب[98]. ثمّ استدار تُتُش شرقًا ليحتلّ

95- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 220-2.
96- **المصدر نفسه**، X، ص. 222، 232.
97- **المصدر نفسه**، X، ص. 232؛ ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 126-7؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 110-3، 117.
98- ابن العديم،**المصدر نفسه**، II، ص. 118، 125.

كلّ بلاد ما بين النهرين العليا[99]. من هناك، مضى قدمًا ليجتاح بلاد فارس، وهزم قوّات برقياروق وطاردها في فرارها[100].

ولفترة وجيزة بدا كأنّ تُتُش النشط الفعّال سوف ينجح في خلع ابن أخيه وإعادة توحيد مُلك أخيه مَلِكشاه تحت إمرته هو. إلّا أنّه في 26 شباط / فبراير 1095، وصلت سيرته فجأة إلى نهايتها. فقد احتشد الزعماء الأتراك في بلاد فارس لمؤازرة السلطان برقياروق وهزموا الغزاة في اشتباك عنيف خارج مدينة الرَّيّ (قرب طهران اليوم)، وقُتل تُتُش في المعركة[101]. وبذلك اختفى من الساحة الأمير السلجوقي الوحيد ذو الشخصية الضخمة الّذي كان بإمكانه الحفاظ على مملكة مَلِكشاه متّحدة.

* * *

في بلاد فارس والعراق، تركت وفاة تُتُش الخلافة السلجوقية موضع نزاع بين أولاد ملِكشاه وأحفاده، الّذين أدّت نزاعاتهم المتواصلة إلى تفسّخ الممتلكات الشاسعة للسلطنة:

«كان كلّ أمير يحاول تأمين حلفاء له فيُنفق من ماله ويهب من أراضيه

99- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 127؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 223؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 118.
100- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 234.
101- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 129-30؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 119؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 244-5. يحدّد المصدران الأوّلان تاريخ المعركة.

ويُضعف وضعه بذلك. وكانوا يتوفّون في سنّ مبكرة ويتركون أطفالهم في رعاية أتابك (قوّاد عسكريّين) يعتبرونهم أقوياء أو يقوّون شوكتهم إلى حدّ يمكّنهم من الدفاع عن حقوق الأطفال. ومن حتميّة الأمور أنّ هؤلاء الأتابك كانوا يعملون للاستيلاء على السلطة الحقيقية لأنفسهم قبل كلّ شيء، ويتطلّعون إلى تصفية، يومًا ما، سلالة اسمية أصبحت عديمة الفائدة. كان التركمان دائمًا على استعداد للتدخّل في هذه النزاعات. (...) والأكراد، (...) واللوريّون، (...) والبدو [وقوى محلّية مختلفة هنا وهناك] استفادوا جميعًا من تلك الفوضى.»[102]

في بلاد الشام أيضًا، واجه حكم السلاجقة مشاكل خطيرة. فالسكّان الأتراك، الّذين كانوا سابقًا الدعامة الأساسية لقوّة السلاجقة، نقص عددهم إلى حدّ كبير بسبب حروب تُتُش الأخيرة. «كان التركمان قد غادروا بلاد الشام وفلسطين... ذهبوا بقيادة تُتُش لفتح بلاد ما بين النهرين العليا، وظلّوا هناك، واختلطوا مع أقربائهم الّذين لم يغادروا مناطقهم على الإطلاق»[103]. وعليه، عندما خلف أبناء تُتُش أباهم في ملكه في بلاد الشام، افتقروا إلى مصادر القوّة البشرية الكافية لجعل سيطرتهم فعلية تمامًا.

بالإضافة إلى ذلك، كان أبناء تُتُش في بلاد الشام، مثل أبناء عمومتهم في بلاد فارس، غير متّحدين قلبًا وروحًا. أكبرهم، فخر المُلك رِضْوان، نصّب نفسه في حلب فورًا بعد وفاة والده، بمؤازرة قائده العسكري (الأتابك) جناح الدولة حسين، متحدّيًا بذلك قريبه السلطان بركياروق. بعد ذلك بوقت وجيز، تمكّن ابن أصغر لتُتُش،

102- Claude Cahen، **المصدر نفسه**، ص. 162.
103- **المصدر نفسه**، ص. 164-5.

شمس الملوك دُقاق، من الاستيلاء على دمشق بمساعدة مناصري أبيه هناك، قبل أن يُتاح الوقت لأخيه رضوان لمنعه عن ذلك. القائد العسكري لدُقاق، الأتابك ظَهير الدين طغتكين، كان قد أُسِر بينما كان يحارب مع تُتُش في معركة الرّيّ. نكاية برضوان، ولإدامة تفسّخ ممتلكات السلاجقة في بلاد الشام، أطلق السلطان بركياروق سراح طغتكين وأرسله لينضمّ إلى دُقاق في دمشق. في هذه الأثناء، في حلب، اتّخذ رضوان الحيطة بأن أعدم أخويه الباقيَين، أبا طالب وبهرام[104]. ثمّ بدأ بالتحضير لحرب ضدّ دُقاق.

في دمشق، تعاون دُقاق والأتابك طغتكين لإقامة نظام متين قائم في معظمه على الدعم المحلّي. وطغتكين، الّذي كانت قد أُطلقت يده في إدارة الأعمال، كان معروفًا في المدينة كقائد ومدير شؤون كفوء:

«واستنابه [تُتُش] في تدبير أمر دمشق وحفظها أيّام غيبته فأحسن السيرة فيها وأنصف الرعية من أهلها وبسط المعدلة في كافّة مَن بها فكثر الدعاء له والثناء عليه فعلت منزلته وامتُثِلت أوامره وأمْثِلته ولم يلبث أن شاع ذكره بنجابته وأشفقت النفوس من هيبته فولّاه [تُتُش في وقت لاحق] ميافارقين من ديار بكر [مقاطعة في بلاد ما بين النهرَين العليا] وهي أوّل ولايته وسلّم إليه ولده الملك شمس الملوك دُقاق واعتمد عليه في تربيته وكفالته (...) ووصل إلى دمشق في سنة 488 [1095] فتلقّاه الملك شمس الدولة دُقاق (...) وبولغ في إكرامه واحترامه (...) واعتُمد

104- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 119-22؛ كذلك ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 130-1؛ ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 246-8.

عليهِ في تدبير المملكة (...) وعُقدت الوصلة بينهُ وبين ظهير الدين أتابك وبين الخاتون صفوة الملك والدة الملك شمس الملوك دُقاق ودخل بها واستقامت له الحال بدمشق.»[105]

على العموم، كان دُقاق، على ما يبدو، قانعًا بمملكته الدمشقية الصغيرة الّتي كان يديرها بالاشتراك مع رئيس جيشه (الأتابك). وكانت عاصمته مدينة ما زال اقتصادها محلّيًّا وذا اكتفاء ذاتي بالأساس. أسواقها – ناهيك عن مشاغلها – كانت تقوم بحاجات منطقة غنية بالمنتجات الزراعية: الغوطة الحَسَنة الرَّيّ، ببساتين الخضَر والفواكه والكرمة والزيتون، كذلك سهلا البقاع وحوران الخصيبان بمواسمهما الوفيرة من القمح. في الجوار، كانت هناك مناطق رعي تعطي مختلف اللحوم ومنتجات الحليب والجلود. وكان الخشب متوفّرًا من غياض الحور والدلب والجوز في الغوطة، ومن سنديان الغابات الجبلية إلى الغرب وصنوبرها وسروها. تجاريًّا، استفادت دمشق من انبعاث التجارة السائد، ولكنّ موقعها بالنسبة إلى طرقات التجارة الرئيسة في الغرب والشمال كان هامشيًّا نوعًا ما. وبالنسبة إلى مملكة قاعدتها دمشق، كان التوسّع الإقليميّ ضروريًّا في بعض الحالات لغايات الدفاع، أمّا من الناحية الاقتصادية، فكان توسّع كهذا يشكّل ترفًا أكثر منه ضرورة.

كان حكم دُقاق وطغتكين محبوبًا من أهالي دمشق. والاحترام

105- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 131. كما روى ابن خلّكان، تُتُش ذاته، قبل وفاته، هو الّذي أعطى طغتكين أمّ دُقاق زوجة له.

الّذي أبداه الرجلان دون تردّد تجاه السلطان السلجوقي في أصفهان، والخليفة العبّاسي في بغداد – الممثّلَين للسيادة السنّية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت – كان يُرضي السكّان المحلّيين، ومعظمهم من السنّيّين الأتقياء. علاوة على هذا، كان الدمشقيون يحبّذون سياسة طغتكين الحكيمة «الذي أجمل في تدبير[هم] وبالغ في الذبّ عن [مدينتهم]»[106]. تحت الحكم المستقرّ الّذي أقامه الأمير المعتدل المتواضع ورئيس جيشه (الأتابك) البارع، بدأت دمشق تبني تقاليد من التهذيب المدني ظلّت تتزايد تحت أنظمة الحكم الّتي تلت، وحوّلت المدينة تدريجيًّا من عاصمة إقليمية ذاوية إلى مركز بارز من مراكز المدنية المسلمة. وقبل مضي زمن طويل، زالت من الأذهان عصور من المصاعب والاضطرابات الّتي تحمّلتها دمشق منذ سقوط الأمويّين، ودخلت المدينة في ما سوف يكون عصرها الذهبي.

بخلاف دمشق، كانت حلب بعد 1095 غير مستقرّة سياسيًّا. كانت المدينة، بصفتها المركز التجاريّ الرئيسيّ لداخل بلاد الشام، تسيطر على مجرى التجارة باتّجاه ساحل البحر المتوسّط من الأناضول في الشمال والعراق وبلاد فارس في الشرق. هنا، كان أقسنقر قد جهد – خلال سنيه السبع كحاكم – لإدخال أساليب إدارة محسّنة تتماشى مع النماء التجاري المستمرّ. ولكن، في الخفاء، بقيت قوى اجتماعية بالية تتمسّك بمواقفها المترسّخة وبقيت ناشطةً سياسيًّا.

106- ابن القلانِسي، **المصدر نفسه**.

وعندما رُفعت قبضة أقسنقر، اغتنم عرب بني كلاب، بقيادة من تبقّى من زعماء المرداسيّين، فرصة انشغال تُتُش بحروبه في بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس، ليعودوا إلى البروز كقوّة قبَلية مخرِّبة في منطقة حلب. في هذه الأثناء، ثبّت الأحداث العُصاة قوّتهم داخل المدينة بقيادة حطّاب سابق اسمه بركات بن فارس، المعروف أكثر بكنيته: المِجَنّ[107]. وفي التلال إلى الغرب والجنوب، حافظ الإسماعيليون على وجود قويّ، كما فعل النُّصَيريون في جبل بهراء والدروز في جبل السمّاق. بين هذه الجماعات غير السنّية الثلاث، كان الإسماعيليون هم الأكثر مضايقةً، لأنّهم كانوا يحظون بدعم فاطميّي مصر.

على صعيد آخر، كان وضع حلب عام 1095 مزعزعًا لسبب بسيط هو أنّ سيطرة المدينة على شماليّ بلاد الشام لم تكن كاملة قطّ. في الغرب، كان ياغي سيان يحكم أنطاكية بشكل مستقلّ، كما كان يسيطر على معرّة النعمان وغيرها من المدن الحصينة ضمن أراضي حلب. وكان يدعم ياغي سيان في أنطاكية الأرمن المحلّيون، الّذين كانوا يؤمّنون له قوّات قتالية قوية[108]. إلى الجنوب، كان بنو منقذ ما زالوا مسيطرين على شَيزر؛ بالإضافة إلى ذلك، كان العدائي خلف ابن ملاعب قد عاد إلى أفامية، بدعم من الأهالي الإسماعيليّين ومن الفاطميّين في مصر[109]. في الشرق، كانت الرّها وغيرها من المدن في منطقة الفرات تحت سيطرة زعماء تركمان مختلفين، كانوا قد نالوها

107- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 255-6؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 124.
108- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 127.
109- راجع أعلاه، ص. 215-6.

كإقطاعات من تُتُش قبل ذلك بوقت قصير. بين هؤلاء الزعماء كان سُقمان – ابن أرتوق بن أكسب، الحليف السابق لتُتُش – الّذي كان يسيطر على مدينة سروج وله علاقات متينة بالتركمان في أعالي بلاد ما بين النهرَين[110]، بينما كان أخوه إلغازي يدير إقطاع العائلة القديم في القدس[111]. وبينما كان هذا التفتّت السياسي مستمرًّا في شماليّ بلاد الشام ومنطقة الفرات المحاذية، فإنّ وضع حلب كمركز سياسي وتجاري رئيسي في المنطقة بقي غيرَ مستقرّ.

لم يكن رضوان على ما يبدو، بصفته حاكمًا لحلب، يدري من أين يجب أن يبدأ. كان هذا الأمير عنيدًا وطموحًا، ولكنّ استنفاد السكّان الأتراك غربيّ الفرات لم يترك قوّات كافية في تصرّفه. كسلجوقي، كان يُنتظر منه طبعًا أن يؤيّد الإسلام السنّي. إلّا أنّ السنّة، في شماليّ بلاد الشام، كانوا ما يزالون أقلّية بين المسلمين. بمعزل عن الإسماعيليّين والنُّصَيريّين والدروز، ظلّت الشيعة الإثنا عشرية مترسّخة بقوّة لدى القبَليّين العرب في المناطق الريفية، كما بين سكّان حلب وغيرها من المدن. لتأمين دعم شعبي، حاول رضوان محاباة الشيعة الإثني عشريّين في منطقته، عن طريق تلطيف الطابع السنّي لحكمه. كما حاول أيضًا استمالة الإسماعيليّين بإقامة علائق ودّية مع الفاطميّين في مصر. ولتقوية وضعه العسكري، استمال أحداث حلب وعرب بني كلاب في الجوار إلى خدمته كحلفاء له. فيما يتعلّق بالأحداث، تبيّن أنّ سياسته هذه كانت خطرة. فقائدهم

110- ابن الأثير، **المصدر نفسه**، X، ص. 269؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 113.
111- راجع أعلاه، ص. 207-8.

المِجنّ[112] أصبح لفترة قويًّا إلى حدّ أن «خطر له انتزاع السلطة من رضوان»، بالتالي كان من الضرورة مطاردته وقتله.

منذ اللحظة الّتي ثبّت فيها رضوان نفسه في حلب، حاول أن يوسّع أراضيه إلى الغرب وإلى الشرق. وهذا بالطبع أوصله إلى مجابهة مع ياغي سيان في أنطاكية من ناحية، ومن الناحية الأُخرى مع السلطان برقياروق في بلاد فارس، الّذي لم يكن يرغب في رؤية رضوان يُنشئ لنفسه موثبة شرقيّ الفرات. ولمّا عجز رضوان عن إحراز أيّ تقدّمٍ ما في أيّ من الجهتَين، استدار ليحارب أخاه دُقاق في دمشق. لهذه الغاية، أقام حلفًا مع سقمان بن أرتوق، سيّد سروج. أواخر 1096، تقدّمت قوّات رضوان وسقمان لمحاصرة دمشق، وما لبثت أن رُدّت على يد دُقاق بمساعدة ياغي سيان من أنطاكية[113]. إلّا أنّه في 1097، عندما حاول دُقاق الردّ باجتياح أراضي حلب، هزمه رضوان وسقمان في معركة مفتوحة في قِنَّسْرين (21 آذار / مارس) وأجبراه على التراجع[114].

في حلب نفسها، واجه رضوان مشاكل مع قائد جيشه (الأتابك) الطموح، جناح الدولة حسين. فَتَشَبُّهًا بِمَثَل طغتكين في دمشق، الّذي كان قد تزوّج من أمّ دُقاق، حاول جناح الدولة تقوية مركزه في حلب، عن طريق الزواج من أمّ رضوان[115]. وفي الوقت ذاته ربّما، أمّن لنفسه إقطاع مدينة حمص، التي كانت على حدود

112- راجع أعلاه، ص. 224.
113- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 131-2؛ ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 124.
114- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 126-7.
115- **المصدر نفسه**، II، ص. 127.

منطقة دمشق، كتخصيص شخصي له[116]. وبينما سمح رضوان لجناح الدولة أن يأخذ حمص، لم يشأ ترك المجال له للتدخّل في شؤون حلب. كان رضوان، بعكس أخيه دُقاق في دمشق، مصمّمًا على تثبيت سلطته هو في أراضيه، وبالتالي لم يكن يرغب في التنازل عن الكثير من نفوذه لصالح قائده الأتابك.

من أنطاكية، رسم ياغي سيان الخطط لتوسيع شقّ الخلاف بين الأمير والأتابك. في العام 1096، ساعد جناحُ الدولة رضوانَ على انتزاع معرّة النعمان من ياغي سيان[117]. في وقت لاحق تلك السنة، انضمّ إلى رضوان وسقمان في هجومهما على دمشق، ولكنّه فرّ من الميدان ورجع إلى حلب قبل انتهاء الحملة[118]. وفي السنة التالية، عندما اجتاح دُقاق منطقة حلب، ترك جناح الدولة رضوان وسقمان يواجهان الاجتياح بمفردهما على ما يبدو. وعلى أثر انتصار رضوان في قنّسرين، فرّ جناح الدولة من حلب مع زوجته – أمّ رضوان – ليثبّت نفسه مستقلًّا في حمص[119].

كان ياغي سيان، على ما يظهر، يلعب لعبةً مخادِعة في ما يتعلّق بالتنافس بين دُقاق ورضوان، قبل أن يختلف هذا الأخير مع الأتابك زوج أمّه. فبينما شجّع دُقاق علنًا على اجتياح منطقة حلب سنة 1097، ووصل عاجلًا إلى ساحة المعركة في قنّسرين ليدعمه[120]، كان

116- **المصدر نفسه**.
117- **المصدر نفسه**، II، ص. 123.
118- **المصدر نفسه**، II، ص. 125.
119- **المصدر نفسه**، II، ص. 127؛ ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 133.
120- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 126.

موقفه من الخصام بين ابنَي تُتُش، كما رُوي، ينمّ عن السخرية:

«ونزل عسكر حلب بحاضر قنّسرين فاتّفق الأمر على أن يجتمعوا على نهر قُوَيْق ويتحدّثوا، فاجتمعوا وتحدّثوا، والنهر بينهم؛ فلم يتّفق الصّلحُ، فقال ياغي سيان لسكمان [سقمان]: 'هؤلاء المُلوك يقتتلون على ملكهم، أنتَ يا بيّاع اللبَن دخولُك معهم لأيّ صفة؟'»[121]

على الفور بعد هزيمة دُقاق في قنّسرين وفرار جناح الدولة إلى حمص، وصل ياغي سيان إلى حلب ليعقد تحالفًا مع رضوان ويزوّجه من ابنته خاتون جنجق[122]. وبعد التحالف هذا تقدّم الرجلان جنوبًا، يؤازرهما سقمان بن أرتوق، لانتزاع حمص من جناح الدولة، وبادرا إلى مهاجمة دمشق. أمّا رضوان، الّذي شجّعه انتصاره على دُقاق في قنّسرين، فصمّم على ألّا يترك دمشق سالمة. فمن الواضح أنّه كان يخطّط لإعادة توحيد بلاد الشام الداخلية، على الأقلّ، تحت حكمه.

وفي الطريق إلى حمص، توقّف رضوان وحلفاؤه لمحاصرة شَيزر[123]. وكان حصار هذا الحصن في أسبوعه الرابع أو الخامس عندما وردت أنباء مقلقة من الشمال. الإفرنج، الّذين فرغوا للتوّ من انتزاع غربيّ الأناضول من السلاجقة المحلّيّين، كانوا قد اجتازوا جبال طوروس لينقضّوا على أنطاكية. لم يكن أحد يعلم مَن كان

121- **المصدر نفسه**. الإشارة إلى سقمان على أنّه «بيّاع لبن» تلمّح إلى أصله الرعوي التركماني.
122- **المصدر نفسه**، II، ص. 127.
123- **المصدر نفسه**، II، ص. 129؛ ابن القلانسي، **المصدر نفسه**.

هؤلاء الإفرنج، وما الّذي جعلهم يظهرون فجأة على الساحة. إلّا أنّه، كما روي، كان «لا يُحصى عددهم كثرةً»[124]، وبوصولهم إلى منطقة أنطاكية، بعد مرور سريع عبر الأناضول، دبّ الرعب في قلوب جميع الحكّام المسلمين في بلاد الشام.

فترك ياغي سيان حلفاءَه خارج شَيزر وهرع شمالًا ليتدبّر أمر الدفاع عن مدينته. ورفض رضوان وسقمان اللحاق به إلى هناك؛ فتركا شَيزر دون احتلالها وعاد كلّ منهما إلى قاعدته لانتظار التطوّرات[125]. من عاصمته المهدّدة، أرسل ياغي سيان نداءات مستعجلة يطلب النجدة، إلى دُقاق وطغتكين في دمشق، وإلى جناح الدولة في حمص، وإلى «أمراء وملوك الشرق» وإلى «جميع الأمراء المسلمين»[126]، إلّا أنّ نداءاته لم تلقَ جوابًا في هذا الوقت. وفي 21 تشرين الأوّل / أكتوبر 1097، عندما وصل الإفرنج أخيرًا إلى أنطاكية، كان ياغي سيان في مواجهتهم بمفرده.

124- ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 134.
125- ابن العديم، **المصدر نفسه**، II، ص. 129-30؛ ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 133
126- **المصدر نفسه**، II، ص. 130؛ راجع أيضًا ابن القلانسي، **المصدر نفسه**، ص. 134.

الفصل السادس
إمبراطورية قيد الامتحان

بوصول الإفرنج إلى أنطاكية سنة 1097، انتهت مرحلة من تاريخ بلاد الشام. وكانت هذه المرحلة قد بدأت بتداعي النظام الهلّينيّ الإغريقيّ المدنيّ في البلاد تحت وقع الفتح العربيّ. ولم تكن المدنية الهلّينية في بلاد الشام، حتّى في أوجها، أكثر من لمعان سطحيّ، وذلك رغم ومضات عرَضية من التألّق. تحت المظهر الخارجيّ، كان هناك نوع من الرجعية عادت وبرزت بسرعة، بشكل أو بآخر، كلّما أتاحت الظروف ذلك. خارج المدن الّتي دخلتها الهلّينية، حيث كانت طبقة مزدهرة من البرجوازيّين المحلّيّين تقلّد عادات المستعمرين الإغريق أو الرومان المقيمين بينهم، كانت الأرياف الأكثر محافظة، بفلّاحيها في العِزَب وقبائلها، تتمسّك بتقاليدها الضيّقة القديمة بتشبّث عنيد. ومن الصحراء القريبة، الممتدّة شرقًا إلى العراق وجنوبًا إلى أقصى أطراف شبه الجزيرة العربية، كانت قوى قبَلية – تربطها صلات قربى عرقية بفلّاحي بلاد الشام البائسين – تظهر على الساحة مرّة تلوَ الأخرى لتدعيم المقاومة المحلّية ضدّ النظام القائم. وعندما كان الحكم الإغريقيّ أو الرومانيّ قويًّا، كان التململ المزمن للأرياف والتعدّيات المخرّبة من الصحراء تظلّ ملجومةً، بالقوّة العسكرية أحيانًا، وأحيانًا بالتكيّف الحكيم المرن.

وعندما دُمّر أخيرًا النظام الرومانيّ في البلاد – بشكله البيزنطيّ المتطوّر – بسبب الفتح العربي، أدّى انفجار القوّة القبَلية الّذي شمله هذا الفتح إلى انقلاب اجتماعيّ جذريّ، جاعلًا بلاد الشام ترتدّ سريعًا إلى ما كانت عليه، ومؤذنًا ببدء عهد جديد.

ما كادت الفتوحات العربية لبلاد الشام تكتمل حتّى باشر حكّام دمشق الأمويون، بالنيابة عن الخلفاء المسلمين في المدينة المنوّرة، ببذل الجهود لإنقاذ ما أمكن من التراث الهلّيني المحلّيّ. وفي فترة لاحقة، عندما استولوا على الخلافة، تابع الأمويون هذه السياسة لصالح الدولة المسلمة الفتية والمتنامية. فعلى المدى الطويل، لا تستطيع قوّة حاكمة السماح بأن تصبح المدن خرابًا لا يمكن إصلاحه، أو بأن ينهب البدو ممتلكات زراعية منتِجة فتتحوّل إلى أراضٍ قاحلة بالكدّ صالحة كمراعٍ. إلّا أنّ التجربة الأموية، بالرغم من بعض النجاحات في البداية، فشلت في بلاد الشام. كانت القبائل العربية، الّتي حاول الأمويّون لجم مطامحها، العماد العسكري لسلالتهم، وكان عليهم على الدوام تقديم التنازلات أمام مطالبها النَّهِمة على حساب الانتظام الإداري. وبحلول منتصف القرن الثامن، سئم الخلفاء الدمشقيون الفشل المتكرّر لجهودهم الرامية إلى ضبط الفوضى في مقاطعتهم، فأخذوا يجارونها باستسلام متهوّر. وعندما شارف العهد الأموي على الانتهاء، كانت القبَلية العربية في بلاد الشام قد بدأت تسلك الطريق إلى الانتصار.

مع الوقت، تمكّن الخلفاء العبّاسيون الأوائل، بصفتهم حكّام

إمبراطورية إسلامية ثبّتت قاعدتها، من فِطام الدولة المستعمرة المسلمة عن الاتّكال العسكري الكامل على القبائل العربية المشاغبة والنهّابة. ففي بغداد، قرب المدائن، عاصمة الساسانيّين القديمة، نجح هؤلاء الخلفاء في إنشاء إدارة قائمة على التقاليد المدينية الساسانية الّتي تمكّنت من البقاء بعد الفتوحات العربية لبلاد فارس ولأجزاء من العراق. وخلال مئة سنة، كان قد تشكّل نظام مديني مسلم جديد، يجمع بين السنّية الّتي ترعاها الدولة – أي الإسلام السنّي بصياغة الفقهاء التقليديّين المتقَنة – وبين حضارة عالمية، فارسية النكهة، تستخدم للتعبير لغة عربية ذات أساليب غنيّة. حتّى بعد انحطاط النفوذ العبّاسيّ، ظلّ هذا التقليد المدينيّ المسلم النشط حيًّا، واستمرّ في التطوّر في الأراضي الشرقية للإسلام، ليبلغ نضوجه الكامل في أواخر القرن الحادي عشر، تحت حكم سلاطين أصفهان السلاجقة – حُماة الخلفاء العبّاسيّين العاجزين بعد العام 1055. اقتصاديًّا، كان النظام المدينيّ للأراضي الشرقية للإسلام يستمدّ قوّته من تجارة عبور نشيطة – معظمها برًّا – لم تتوقّف قطّ عن الجريان بين آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية، بالرغم من التغيّرات السياسية المتكرّرة، والعنيفة غالبًا، في المنطقة.

تولّى الخلفاء العبّاسيون في القرنَين الثامن والتاسع، بإدارتهم الجيّدة للدواوين وبقوّاتهم المسلّحة المنضبطة والمختلطة عرقيًّا، إدخال نظامهم المديني المرتّب إلى بلاد الشام بتصميم وعزم. إلّا أنّ القوى المحلّية للقبَلية، من مراكزها الحصينة في الأرض، أبدت

مقاومة ضارية لم يتمكّن تصميم العبّاسيين من قهرها في النهاية. فالثورات القبَلية كانت تُقمع في منطقة لتعود وتظهر في موقع آخر بقوّة أكبر؛ وفي هذه الأثناء، كانت خلافات دينية عنيدة تنبت بين السكّان المسلمين هنا وهناك، تتحدّى السنّية الشرعية المنظّمة التي تنادي بها وتدعمها الحكومة المركزية في بغداد. وبينما تطوّرت بعض هذه «البدع» تلقائيًّا، برزت أخرى استجابة لتأثيرات خارجية خفيّة ومخرّبة من إسبانيا وشمالي أفريقيا ومصر وشبه الجزيرة العربية. وبحلول القرن العاشر، أصبحت بلاد الشام الملاذ المفضّل لمختلف المذاهب الشيعية الّتي كانت ترفض الاعتراف بشرعية الخلافة العبّاسية. وأصبحت السَّلَمية، إحدى مدن بلاد الشام، مقرّ الإمام الإسماعيلي الغائب الّذي فرّ إلى شمالي أفريقيا ليؤسّس الخلافة الفاطمية المنشقّة عام 909. في الوقت نفسه، قامت سلسلة من الاجتياحات لبلاد الشام على يد القرامطة، القبائل الآتية من شرقيّ شبه الجزيرة العربية، ودفعت الفوضى المتأصّلة في بلاد الشام إلى أقصى حدّها، ووضعت البلاد في حالة تشوّش مطلقة.

بحلول القرن العاشر، كانت مصر – الّتي فتحها الفاطميون عام 969 – تتطوّر بسرعة كمركز للحضارة الإسلامية يضاهي بلاد فارس والعراق. الانتعاش التدريجي للتجارة في أوروبا الغربية، الّذي رافق ظهور الملكيات الإقطاعية في فرنسا وألمانيا، وبروز المدن الإيطالية كمراكز مزدهرة للتبادل التجاري، حضّ على إعادة تنشيط التجارة البحرية المتوسّطية، الّتي كانت قد فترت منذ عهد الفتح العربي.

أمّا مصر، الّتي كانت تسيطر على نقطة الاتّصال البرّية بين البحر الأحمر والمتوسّط، فكانت أحد البلدان التي أفادت من الظروف الجديدة. وثمّة مستفيد آخر، بيزنطية، عاصمة الصناعة والتجارة في القرون الوسطى دون منازع. ولأنّ بلاد الشام، بموانئها البحرية الممتازة، تقع في منتصف الطريق بين مصر وبيزنطية، أصبحت بطبيعة الحال ميدان التنافس بين الفاطميّين والبيزنطيّين، كلّ منهما يحاول السيطرة على أكبر عدد ممكن من المراكز الرئيسة فيها. وإذ تعاظمت المنافسة على بلاد الشام بين القوّتَين المستعمرتَين، زادت التوتّرات بين الأهالي المسلمين والمسيحيّين، ممّا أدّى إلى انفجارات عنف من حين إلى آخر.

مثل الخلافة العبّاسية والدول الّتي خلفتها في بلاد فارس والعراق، كانت الخلافة الفاطمية، الّتي أقامت مركزها أخيرًا في مصر، ترعى تطوير نظام مدينيّ مسلم يتماشى مع مصالح اقتصادها التجاري المتنامي. وقد حاول الخلفاء الفاطميون جاهدين إدخال هذا النظام إلى بلاد الشام، حيث كان انتعاش التجارة في ذلك الوقت ينعكس في نموّ مدينيّ تلقائيّ. ولا مجال للشكّ بأنّ مدنًا كالرملة وطبريّا ودمشق وطرابلس وحلب كانت ستفيد كثيرًا من إقرار النظام الفاطميّ المدينيّ. إلّا أنّ القبَلية في بلاد الشام، في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر، كانت في ذروتها وأثبتت أنّ إخضاعها مستحيل. كذلك الأمر في المدن، فالأقلّيات التجارية المهيمنة الّتي بدأت تبرز أظهرت أنّها رافضة للتخلّي عن

نفوذها المحلّيّ والانصياع لسيطرة أجنبية. وبقطع النظر عن سائر الاعتبارات، فالفاطميّون، كالإسماعيليّين، فشلوا في جعل حكمهم شعبيًّا في مدن بلاد الشام، الّتي كانت إمّا سنّية متمسّكة (مثل دمشق والرملة وطبريّا والقدس)، أو شيعية إثني عشرية صامدة (مثل حلب وصور وطرابلس)، وفي الحالتَين، معادية مبدئيًّا للإسماعيلية. ومن غرائب التناقض أنّ الفاطميّين، الّذين كانوا، في بلاد الشام، مهتمّين على الأخصّ بتثبيت سيطرتهم على المدن الهامّة تجاريًّا، كانوا مضطرّين إلى البحث عن الدعم السياسي بشكل حصري تقريبًا في الأرياف القبَلية الراكدة اقتصاديًّا، لأنّ إسماعيليتهم - كتحدٍّ للنهج السنّي - كانت تستحثّ ترحيبًا أوسع هناك. وكان الفشل النهائي للنظام الفاطميّ في بلاد الشام هو النتيجة الطبيعية لكون عقائده الدينية والسياسية - ولو كوّنت جذورًا صلبة ودائمة بين مسلمين غير سنّة في المناطق الريفية - كان سكّان المدن المسلمون، البورجوازية المعتبَرة والشعب المشاغب، يرفضونها رفضًا مطلقًا كبدعة خبيثة وادّعاء موذٍ لا أساس له.

في غياب إدارة منظّمة للدولة أو شبه غيابها، وبدءًا من القرن العاشر، حافظَت سلسلة متعاقِبة من الإمارات الإقليمية والحكومات المدينية الاستبدادية على اليسير من النظام في بلاد الشام، محاولةً - بطريقة أو بأخرى - التكيّف مع الفوضى القبَلية المتفشّية والمنتشرة حولها. وفي بعض الحالات - كما في حلب الحمدانيّين والمرداسيّين-، فإنّ إمارات إقليمية، كانت هي نفسها من أصل

قَبَلي، حاولت أن تتوصّل إلى تفاهم مع القبائل المحلّية عن طريق استرضائها بالامتيازات، تمامًا كما فعل الأمويون في عهدهم. وفي حالات أُخرى – مثل اللاذقية زمن شيوخ فُصَيص، أو طرابلس أيّام بني عمّار –، حاولت السلالات المحلّية الحاكمة أن تستمرّ في السلطة عن طريق الاستزلام لدولة مستعمِرة مسلمة أو غير مسلمة: الفاطميّين، البيزنطيّين، أو السلاجقة. وفي حالات أخرى أيضًا – على الأخصّ في دمشق، وكذلك في حلب وسواها – يبدو أنّ الأقلّيات التجارية المحلّية المهيمنة بادرت إلى رعاية تنظيم عصابات شبه قبَلية من الأحداث للدفاع عن المدن، في الدرجة الأولى ضدّ الغزوات البدوية، وضدّ اجتياحات المستعمِرين كذلك. وسرعان ما كانت هذه العصابات تبدأ باتّباع سياساتها الخاصّة، وكثيرًا ما نجح زعماؤها في الاستيلاء على السلطة في المدن ليحكموها كطغاة. في المدى الطويل، تكشّف أنّ ظلمهم الغاشم كان معطِّلًا للحياة المدينية المنظّمة بقدر غزوات البدو، التي أُوجِد الأحداث أصلًا لمقاومتها.

خلال العقود الثلاثة الأخيرة للقرن الحادي عشر، تسبّب قيام سلطنة السلاجقة في بلاد فارس والعراق في انبعاث فعّال للنظام المدينيّ المسلم السنّيّ – الّذي طوّره العبّاسيون بالأصل – في الأراضي الشرقية للإسلام. بحلول العام 1071، كان السلاجقة يجتاحون بلاد الشام، وقبائل التركمان تغزو الأناضول لتضع حدًّا لحكم البيزنطيّين هناك. وكردٍّ على هجوم السلاجقة باتّجاه الغرب، قام الفاطميون من مصر بمحاولة أخيرة يائسة للعودة إلى بلاد الشام،

فاحتلّوا عددًا من المدن الساحلية مع أجزاء من فلسطين. وكما في السابق، لم يكن بإمكان الفاطميّين حشد تأييد شعبي لهم إلّا بين الفلّاحين القبَليّين من غير السنّة في الأرياف. في المراكز المدينية الرئيسية – على الأخصّ في الداخل – هيمن السلجوقيون وبدأوا – لأوّل مرّة بنجاح – بإدخال مفاهيمهم المتطوّرة للنظام المدنيّ وتطبيقها في مدن مثل دمشق وحلب.

ولو دامت سيطرة السلاجقة على الأراضي الشرقية للإسلام، لكان التمدّن، الّذي انتشر في بلاد الشام تحت رعايتهم الفعّالة، انتصر قبل مرور زمن طويل. عبر عالم المتوسّط وامتداداته شرقًا وغربًا، كان زخم التجارة في ذلك الوقت يضع المدن على طريق ازدهارها، في البلدان المسيحية كما الإسلامية. فالنظام المدينيّ الّذي روّجه السلاجقة في بلاد الشام بفعالية حازمة كان دون ريب منسجمًا مع اتّجاهات تلك الفترة. ونظرًا لموقع بلاد الشام المركزي في التجارة بين الشرق والغرب، كان أيّ تراجع أو انهيار لنظامها المديني الناشئ يستدعي حتمًا تدخّلات فعّالة – من جانب أو من آخر – من قوى مستعمِرة مصمِّمة على الحفاظ على طرق التجارة مفتوحة دون عوائق. وبمختصر الكلام، كانت لمدن مصر وبيزنطية وإيطاليا مصلحة في الحفاظ على النظام في بلاد الشام بقدر ما كانت للسلاجقة، الضامنين الأساسيين لهذا النظام.

إلّا أنّه، كما حدث، لم تدم مملكة السلاجقة طويلًا. فقد بدأت بالتفسّخ بعد العام 1092، مثل سائر الممالك الإسلامية الّتي سبقتها،

تحت وقع القوى الإقليمية والقبلية البالية الّتي فشلت في محْوها. في بلاد الشام، استمرّ النظام السلجوقيّ على صعيد محلّيّ في دمشق، يسانده سكّان المدينة السنّيون الملتزمون الّذين ظلّوا أوفياء لفكرة الدولة العالمية المسلمة السنّية. في الأماكن الأُخرى من البلاد، كانت هناك عودة سريعة إلى حالة من الفوضى والاضطراب لم تستطع قوّة محلّية أو إقليمية وضع حدّ لها.

في العام 1097، وصل الفرنجة – حشود فظّة ضارية من بلدان أوروبا الغربية المجهولة – إلى أنطاكية وواصلوا فتحهم لبلاد الشام بمساعدة القوّة البحرية الإيطالية. وبادر بعض المسيحيّين المحلّيين على الفور إلى الاحتشاد لمساندتهم. وإذ تقدّمت قوّات الصليبيّين شرقًا إلى الرُّها، وجنوبًا إلى القدس، سارع أمراء أرياف بلاد الشام وزعماؤها – من سنّيّين وشيعيّين – إلى عقد الصلح معهم، وحتّى إلى عرض المساعدة عليهم، بينما لم يُبدِ الفاطميون في المدن الساحلية وفي فلسطين إلّا مقاومة رمزية. وحدهم أهل المدن السنّيون – ومن دون أيّ شيء محسوس يمكن الاعتماد عليه – رفضوا القبول بالهزيمة. ففي حلب ودمشق، اللتَين بقيَتا وحدهما غير مقهورتَين، تضافرت قوى الإسلام المدينيّ، يحدوها إيمان دينيّ لا يتزعزع، وتعاقَب عليها الزعماء الأتراك والأكراد، ونظّموا أنفسهم لخوض حرب طويلة الأمد ضدّ المجتاحين الغرباء وحلفائهم المحلّيّين. وعندما انتصروا في النهاية، قُمعت قوّات الأرياف بقساوة، بعد أن فقدت مصداقيّتها نهائيًّا، وتمكّنت بلاد الشام المسلمة، تحت حكم سنّي جديد، من الدخول أخيرًا في عهدها المدينيّ.

المراجع

المراجع الأوّلية

ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 12 جزءًا، بيروت، 1965-1966.

ابن خلّكان، **وفيّات الأعيان**، تحقيق إحسان عبّاس، 8 أجزاء، بيروت، 1970-1972.

ابن شدّاد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق سامي دهّان، دمشق، 1962.

ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سامي دهّان، 3 أجزاء، دمشق، 1951-1968.

ابن عساكر، **التاريخ الكبير**، تحقيق عبد القادر بدران، 5 أجزاء، دمشق، 1329-1332 هـ.

ابن القِلاعي، **مديحة على جبل لبنان**، تحقيق بولس قرألي في **حروب المُقدَّمين**، بيت شباب، 1938.

تحت وقع القوى الإقليمية والقبلية البالية الّتي فشلت في محْوها. في بلاد الشام، استمرّ النظام السلجوقيّ على صعيد محلّيّ في دمشق، يسانده سكّان المدينة السنّيون الملتزمون الّذين ظلّوا أوفياء لفكرة الدولة العالمية المسلمة السنّية. في الأماكن الأُخرى من البلاد، كانت هناك عودة سريعة إلى حالة من الفوضى والاضطراب لم تستطع قوّة محلّية أو إقليمية وضع حدّ لها.

في العام 1097، وصل الفرنجة – حشود فظّة ضارية من بلدان أوروبا الغربية المجهولة – إلى أنطاكية وواصلوا فتحهم لبلاد الشام بمساعدة القوّة البحرية الإيطالية. وبادر بعض المسيحيّين المحلّيين على الفور إلى الاحتشاد لمساندتهم. وإذ تقدّمت قوّات الصليبيّين شرقًا إلى الرُّها، وجنوبًا إلى القدس، سارع أمراء أرياف بلاد الشام وزعماؤها – من سنّيّين وشيعيّين – إلى عقد الصلح معهم، وحتّى إلى عرض المساعدة عليهم، بينما لم يُبدِ الفاطميون في المدن الساحلية وفي فلسطين إلّا مقاومة رمزية. وحدهم أهل المدن السنّيون – ومن دون أيّ شيء محسوس يمكن الاعتماد عليه – رفضوا القبول بالهزيمة. ففي حلب ودمشق، اللتَين بقيَتا وحدهما غير مقهورتَين، تضافرت قوى الإسلام المدينيّ، يحدوها إيمان دينيّ لا يتزعزع، وتعاقَب عليها الزعماء الأتراك والأكراد، ونظّموا أنفسهم لخوض حرب طويلة الأمد ضدّ المجتاحين الغرباء وحلفائهم المحلّيّين. وعندما انتصروا في النهاية، قُمعت قوّات الأرياف بقساوة، بعد أن فقدت مصداقيّتها نهائيًّا، وتمكّنت بلاد الشام المسلمة، تحت حكم سنّي جديد، من الدخول أخيرًا في عهدها المدينيّ.

المراجع

المراجع الأوّلية

ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 12 جزءًا، بيروت، 1965-1966.

ابن خلِّكان، **وفيّات الأعيان**، تحقيق إحسان عبّاس، 8 أجزاء، بيروت، 1970-1972.

ابن شدّاد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق سامي دهّان، دمشق، 1962.

ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سامي دهّان، 3 أجزاء، دمشق، 1951-1968.

ابن عساكر، **التاريخ الكبير**، تحقيق عبد القادر بدران، 5 أجزاء، دمشق، 1329-1332 هـ.

ابن القِلاعي، **مديحة على جبل لبنان**، تحقيق بولس قرألي في **حروب المُقدَّمين**، بيت شباب، 1938.

ابن القلانِسي، **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق هـ. ف. أمِدروز، بيروت، 1908.

البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق دي خويه، لَيدن، 1863-1866.

ثابت بن سِنان وابن العديم، **تاريخ أخبار القرامطة**، تحقيق سهيل زكّار، بيروت، 1971.

صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت**، تحقيق الأب فرنسيس هور اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، 1969.

الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، 10 أجزاء، القاهرة، 1968-1969.

المتنبّي، **ديوان**، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، 4 أجزاء، القاهرة، 1938.

المسعودي، **التنبيه والإشراف**، بغداد، 1938.

المسعودي، **التنبيه والإشراف**، تحقيق دي خويه، لَيدن، 1893.

المُقدَّسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، لَيدن، 1906.

ياقوت، **معجم البلدان**، 5 أجزاء، بيروت، 1957.

يحيى بن سعيد الأنطاكي، **تاريخ** (*Corpus scriptorum christiano-rum orientalium, vols. 51-52; Scriptores arabici, VII*)، تحقيق ل. شيخو، ب. كرّا دو فو وهـ. زيّات، لوفان، 1954.

Herodotus, *The Persian Wars*, trans. by George Rawlinson in Francis R. B. Godolphin, ed., *The Greek Historians*, New York, 1942.

المراجع الثانوية

محسن الأمين، **خطط جبل عامل**، الجزء الأوّل، بيروت، 1961.

مصطفى حياري، **الإمارة الطائية في بلاد الشام في القرنَين الثاني عشر والثالث عشر**، أطروحة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأميركية في بيروت، 1969.

محمّد كرد علي، **خطط الشام**، 6 أجزاء، بيروت، 1969.

Bosworth, C. E., *The Ghaznavids; their empire in Afghanistan and eastern Iran*, Beirut, 1973.

Cahen, Claude, "The Turkish invasion", in *A history of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton, I, Philadelphia, 1955, pp. 135-176.

Diehl, Charles, et Georges Marçais, *Le monde oriental de 395 à 1081*, Paris, 1944.

Gibb, Sir Hamilton A. R., "The Caliphate and the Arab states, in *A history of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton, I, Philadelphia, 1955, pp. 81-98.

Gibb, Sir Hamilton A. R., *The Damascus chronicle of the Crusades*, London, 1932.

Hodgson, Marshall G. S., "Al-Darazi and Hamza in the origin of the Druze religion", *Journal of the American Oriental Society*, LXXII (1962), pp. 5-20.

Lammens, Henri, *La Syrie; précis historique*, 2 vols., Beirut, 1921.

Lewis, Bernard, *The Assassins; a radical sect in Islam*, London, 1967.

Lewis, Bernard, *Islam from the Prophet Muhammad to the capture of Constantinople*, 2 vols., New York, 1974.

Lewis, Bernard, "The Isma'ilites and the Assassins", in *A History of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton, I, Philadelphia, 1955, pp. 99-132.

Lopez, Robert S., and Irving W. Raymond, *Medieval trade in the Mediterranean world*, New York, 1955.

Makarem, Sami, *The Druze faith*, Delmar, N. Y., 1974.

Massignon, Louis, *Opera minora*, 3 vols., Beirut, 1963.

Sanjian, Avedis K., *The Armenian communities in Syria under Ottoman rule*, Cambridge, Mass., 1965.

Zambaur, E. de, *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam*, Hanover, 1927.

فهرس

قائمة السلالات

المحتويات

للمؤلّف
(بالتسلسل الزمني للنشر)

George Grassmuck & Kamal Salibi, *A Manual of Lebanese Administration* (Beirut: American University of Beirut, 1955).

"The Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk Rule, 1099 – 1516", in *Arabica*, IV (1957), pp. 290 – 296.

"The Maronite Church in the Middle Ages and its Union with Rome", in *Oriens Christianus*, Band 42 (1958), pp. 92 – 104.

Maronite Historians of Medieval Lebanon (Beirut: American University of Beirut, 1959; Naufal, 1991).

"The *Buḥturids* of the *Ġarb*, Medieval Lords of Beirut and of Southern Lebanon", in *Arabica*, VIII (1961), pp. 74 – 97.

"The Traditional Historiography of the Maronites", in *The Historians of the Middle East*, edited by Bernard Lewis and P. M. Holt (London, 1962), pp. 212 – 225.

"Islam and Syria in the Writings of Henry Lammens", in *The Historians of the Middle East*, edited by Bernard Lewis and P. M. Holt (London, 1962), pp. 330 – 342.

The Modern History of Lebanon (London: Weidenfeld & Nicolson, 1965; Delmar, N. Y.: Caravan, 1977); *Histoire du Liban du XVII[e] siècle à nos jours* (Paris: Naufal, 1988).

"Northern Lebanon under the Dominance of Ġazīr, 1516 – 1591", in *Arabica*, XIV (1967), pp. 144 – 166.

"The Muqaddams of Bsharri: Maronite Chieftains of the Northern Lebanon, 1382 – 1621", in *Arabica*, XV (1968), pp. 63 – 86.

Francis Hours, s.j., et Kamal Salibi, "Muhammad ibn al-Ḥanash, Muqaddam de la Biqa', 1499 – 1518 : un épisode peu connu de l'histoire libanaise", in *Mélanges de l'Université Saint-Joseph,* XLIII (1968), pp. 3 – 23.

"The Sayfās and the *eyalet* of Tripoli, 1579 – 1641", in *Arabica*, XX (1973), pp. 25 – 52.

Crossroads to Civil War: Lebanon 1958 – 1976 (Delmar, N. Y.: Caravan, 1976).

Syria under Islam, 634 – 1097 (Delmar, N. Y.: Caravan, 1977; Beirut: Dar Nelson, 2009).

منطلق تاريخ لبنان، 634 – 1516 (بيروت: كارافان 1979؛ نوفل، 1992).

A History of Arabia (Delmar, N. Y.: Caravan, 1980).

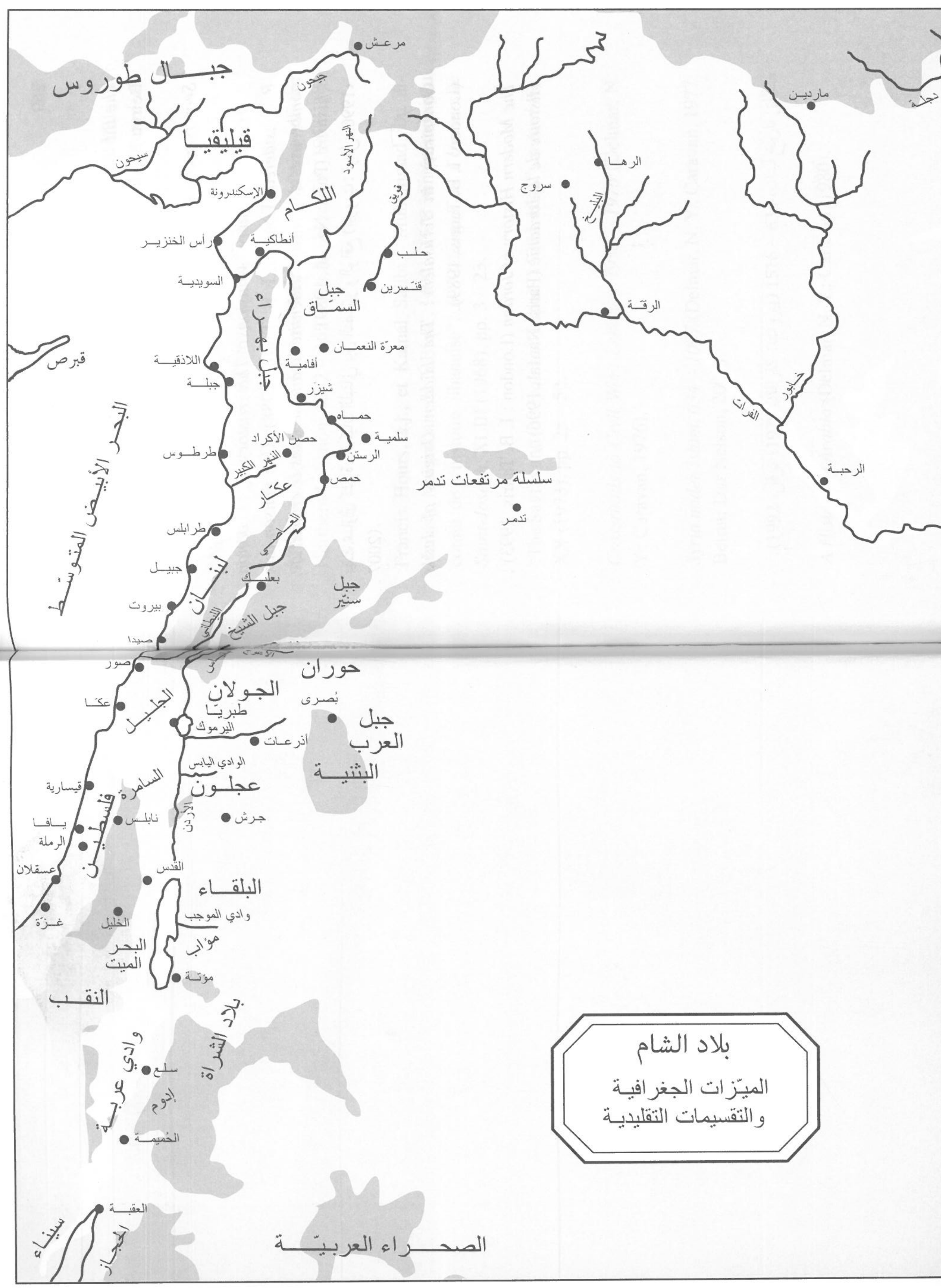
The Bible Came from Arabia (London: Jonathan Cape, 1985; Beirut: Naufal, 1996).

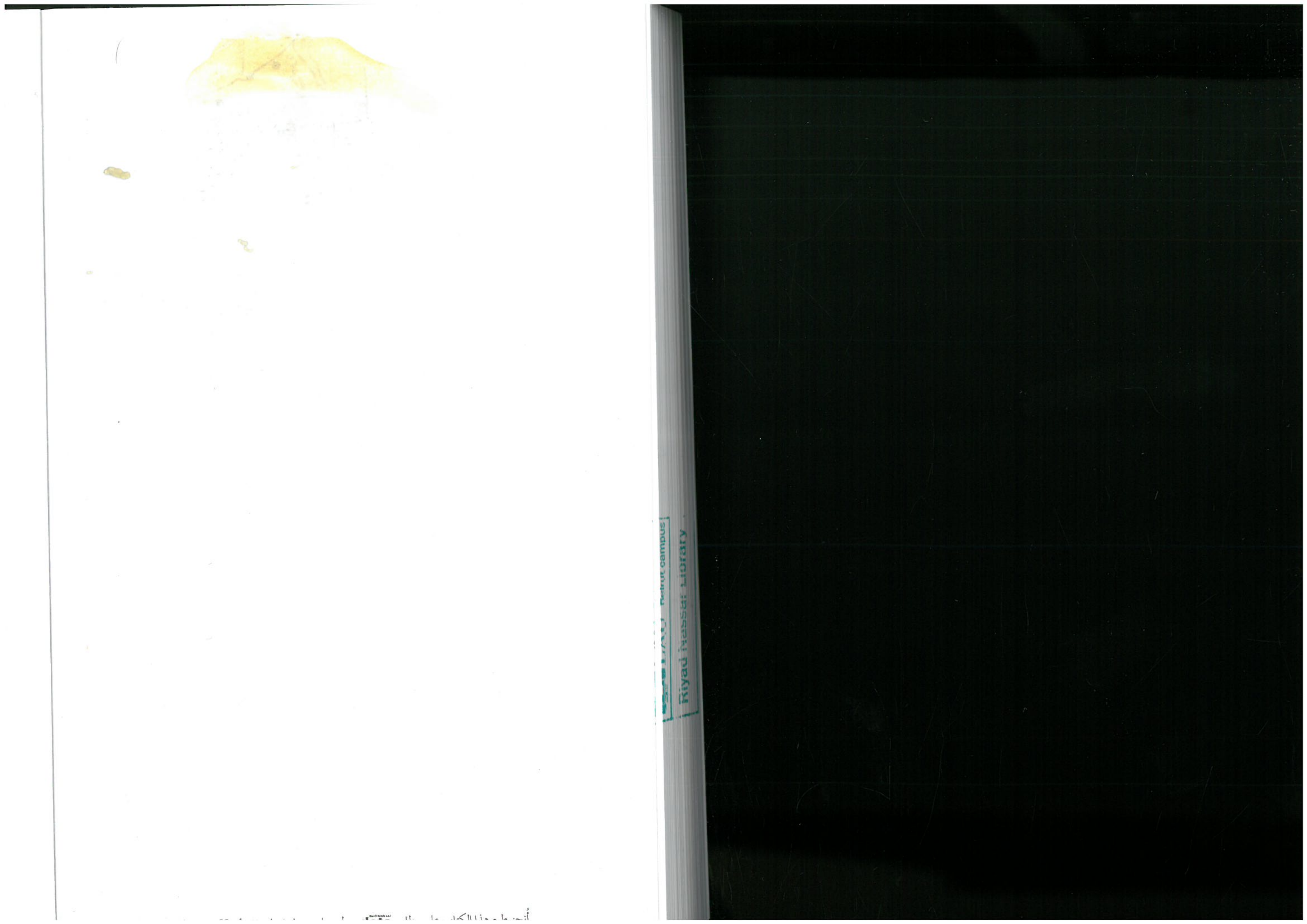
Secrets of the Bible People (London: Saqi, 1988).

A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered (London: I. B. Tauris, 1988); *Une maison aux nombreuses demeures, L'identité libanaise dans le creuset de l'histoire* (Paris: Naufal, 1989);
بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين التصوّر والواقع (بيروت: نوفل، 1990، 2007).

Conspiracy in Jerusalem : The Hidden Origins of Jesus (London: I. B. Tauris, 1989).

The Modern History of Jordan (London : I. B. Tauris, 1993) ; *Histoire de la Jordanie* (Paris: Naufal, 1996).


بلاد الشام
الميّزات الجغرافية
والتقسيمات التقليدية
جبال طوروس
قيليقيا
سيحون
جيحون
مرعش
الإسكندرونة
اللكام
النهر الأسود
عفرين
رأس الخنزير
أنطاكية
السويدية
حلب
قنسرين
جبل السماق
جبل بهراء
قبرص
اللاذقية
جبلة
معرّة النعمان
أفامية
شيزر
حماه
سلمية
الرستن
حصن الأكراد
طرطوس
النهر الكبير
عكار
حمص
العاصي
البحر الأبيض المتوسط
طرابلس
جبيل
لبنان
بعلبك
جبل سنير
بيروت
الليطاني
جبل الشيخ
صيدا
صور
بانياس
حوران
الجولان
بصرى
عكا
الجليل
طبريا
جبل العرب
اليرموك
أذرعات
البثنية
الوادي اليابس
السامرة
قيسارية
عجلون
فلسطين
يافا
نابلس
جرش
الأردن
الرملة
عسقلان
القدس
البلقاء
غزّة
الخليل
وادي الموجب
مؤاب
البحر الميت
مؤتة
النقب
بلاد الشراة
وادي عربة
سلع
إدوم
الخميمة
العقبة
سيناء
الحجاز
الصحراء العربيّة
سلسلة مرتفعات تدمر
تدمر
الرها
سروج
البليخ
الرقة
ماردين
دجلة
الفرات
خابور
الرحبة



بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى

1097-634

كان ينبغي أن ترى هذه الدراسة النور منذ أن نُشرت بالإنكليزية أساسًا (1977)، لشدّة أهمّية المرحلة التاريخية الّتي تعالجها. في هذه الأثناء، ظهرت دراسات أُخرى عن بلاد الشام بعد الفتح الإسلامي، تتطرّق إلى زوايا أُخرى وتعرض وجهات نظر مختلفة، لكنّها لم تُبطل العمل الأساسي الّذي حقّقه المؤرّخ الدكتور كمال الصليبي هنا.

يركّز الكتاب الجهد على دراسة المعاصي الّتي اضطرّ أن يواجهها الحكم في بلاد الشام، والتحالفات الّتي فرضتها عليه، ويكشف سبب هشاشة الدول المتتالية نتيجة هذه الظروف.

رغم صعوبة بعض المراجع التاريخية الأساسية الّتي اعتمدتها هذه الدراسة، فإنّ المؤلّف نجح في تحليلها ثمّ قصّها، كعادته، بأسلوب سلس ومشوّق.

والباحث، الدكتور كمال الصليبي، بات مرجعًا في دراسة التاريخ، وله كتب عديدة في تاريخ المنطقة (لبنان، سوريا، الأردن، شبه الجزيرة العربية)، وفي كيفية كتابة التاريخ وتأثيراتها بالمجتمع (بيت بمنازل كثيرة، مؤسّسة نوفل 1990، 2007). أمّا في الدراسات التوراتية، فقد ساهم في قلب المضمار رأسًا على عقب!

